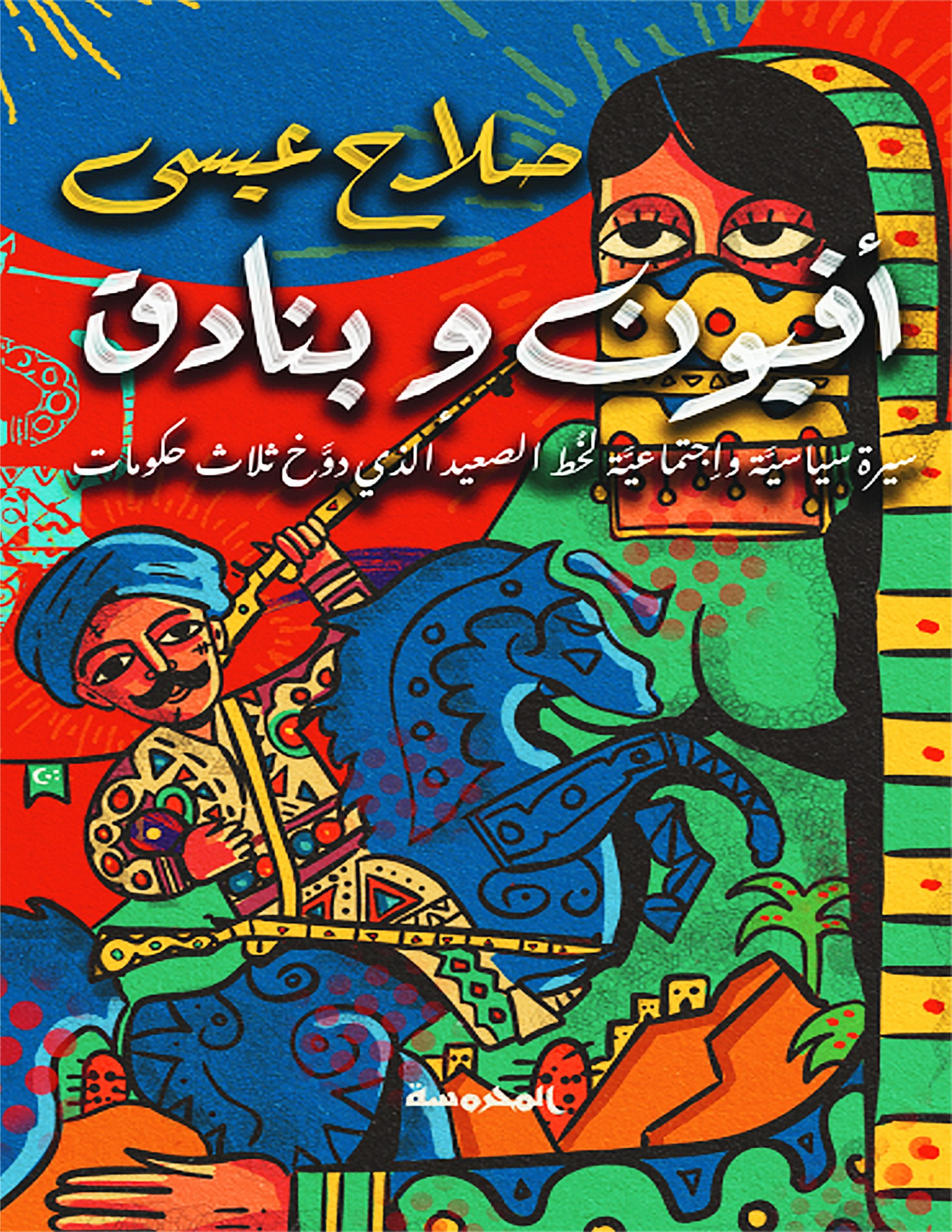


حلاج عيسى

الأيون و بنادق

سيرة سياسية واجتماعية لخط الصعيد الذي دوّخ ثلاث حكومات



بالمنكرسة

افتتاحية

خَوْنَة، وَمُسْتَعْمِرُونَ، وَأَوْلَادُ لَيْل...

هذه قصّة لا تخلو من إثارة، ولكنها -للأمانة- لم تقصدها! ولستُ في حاجة لأن أؤكد أن فصول التاريخ تحتفل أحيانًا بوقائع وشخصيات، ولولا أن كثيرين من الصّادقين هم رُوائها المُعتمدين؛ لكان مُحتمًا أن نعتبرها وليدة «سرحات» الخيال المَرِيض، أو العايث، أو كليهما معًا...

ولأنّ التاريخ -كالحيّة- لا يُعطي أسرارَه لمن يخوضون بحره بعقولٍ تفتقدُ لشجاعةِ البحث عن الحقيقة، وجسارة الالتزام بها؛ فَمَا أَكْثَرَ الظواهر التي تمرُّ أمام أعين هؤلاء، فلا تَلْفُثُهم، ولا تَهْمُهم، فإذا فعلوا ذلك -في النادر القليل- فهموها على غير وجهها الصحيح؛ فَبَخَلَت عليهم بأسرارها، وصنّت بجوهرها... ساعَتها لا يَبْقَى بين أيديهم من تلك الظواهر سوى وجهها السطحي، وإثارتها غير المُبَرِّرة، تبعث على الظنِّ بأنّها وليدة «سرحات» الخيال المَرِيض، أو العايث، أو كليهما معًا...

والظاهرة التي ترصّدُها هذه الحكاية واجدةٌ من تلك الظواهر الهامشيّة للتاريخ المصري، لم تُفْز بأيِّ مُحاولةٍ لِفَهْمِها أو تفسيرها، وقد كَوْنْتُ فكرتي الأولى عنها عندما لاحظْتُ -وأنا أراجع الأوامرَ الرسميّة التي صدرت في عهد والي محمد سعيد باشا- أن كثيرًا منها يتعلق بمن وصفته تلك الأوامرُ بـ «الشقيّ الشهير عمر المصري»؛ فبعضها يطلب القبضَ عليه، والآخر يرصّد مكافأةً لذلك، وثالثٌ يُحذّر من مُعاوَنَتِهِ... وانتهت الأوامرُ فجأةً في عصر الخديوي إسماعيل (خليفة سعيد) بأمرٍ يعفو عن «الشقيّ الشهير عمر المصري».

ولعدّة شهور أصبح هذا «الشقيّ الشهير» هو همّي الوحيد، إلى أن اتّصح لي أنه كان واحدًا من أشهر زعماء البدو في منطقة الفيوم بصعيد مصر، وقد قادهم في ثورة تمرّد على والي محمد سعيد تمرّدًا مُسلحًا؛ انتصارًا لمطالبهم آنذاك، وهي ثورة كادت تنتهي باستقلال الفيوم عن مصر.

وفي فترة مُبَكِّرةٍ من عمري، اكتشفتُ أن أدهم الشرقاوي شخصيةً حقيقيّة. وبينما يقدّمه الموالُّ الشعبيُّ رمزًا للتمرّد على الظلم والقهر الطبقي، فإنه -كما وصّفته مجلة «اللطائف المصوّرة»، التي نشرت صورته وخبرَ مصرعه في 31 أكتوبر (تشرين الأول) 1921- «شقيّ، وقاطعُ طريق،

وَمُجْرِمٌ أَكْبَرُ، وطاقية. طَارَدَهُ رَجَالُ الصَّبْطِ والبوليس، واصطادوه؛ فأراحوا
الْبِلَادَ مِنْ شَرِّهِ وَجَرَائِمِهِ».

وقد تعمَّد الوجدانُ الشعبيُّ الذي صاغ المَوَّالُ أن يُحْدِثَ تَبْدِيلًا بَسِيطًا،
يُوهِمُ أن الواقعة حَدَّثَتْ في العصر التركي المملوكي، فيها «باش أغا» (حاكِم
لَكَيْن جَبَّار)، في حين أن حَاكِمَ مصر وَقْتُهَا كان عَظْمَةُ السُّلْطَانِ فُؤَادِ الأَوَّل!

وقتها لَمَعَتْ بعضُ الذكريات الباهتة من طفولتي؛ ففي قريتنا -واحدة من
قُرَى وَسْطِ الدَّلَّتَا- يروون مَوَّالًا عن عبد الحميد عَبل، ويصوغون رُؤْيَاً له تجعله
تَنُوءًا آخر على لَحْنِ الأدهم الشرقاوي، بل إنه -في حدود ما أذكر- قد هَمَات
نَفْسَ مِيتَةٍ؛ إذ خانهُ خَلِيفُ له، هو أحد الحُفَرَاءِ، وألصِقَ قُوَّةً بُنْدَقِيَّتَهُ بِأُذُنِهِ،
وأطلق عِيَارًا واحدًا قضى عليه، وهكذا لم يَتَلَهُ أعداؤه إِلَّا بالخيانة.

وقد حَاوَلْتُ -فيما بعد- أن أجمع تفصيلاتٍ أخرى عن حياته؛ لأقارنَ نَصَّ
المَوَّالِ بالحقيقة التاريخية، ولكِنِّي فعلْتُ ذلك في الغالب بعد الأوان؛ إذ
عَصَتْنِي ذَاكِرَةُ المُخْضَرَمِينَ، وَدَهَبَ المَوْتُ بالعالمين بالأمر.

وقد فعل آخرون نفسَ الأمر، فقد اكتشف الأستاذ زكريا الحجاوي
شَخْصِيَّةَ الأدهم، وصاغ قِصَّتَهُ في روايةٍ مَنشُورةٍ، كما بذل الصَّدِيقُ الأستاذ
عبد الملك خليل مَجْهُودًا لاكتشاف شخصية ياسين (بطل ملحمة ياسين وبهية)
الحقيقيَّة، بعد أن علم أن المرحوم اللواء صالح حرب باشا هو الذي قضى
عليه، يَبْدُ أنه -للأسف- لم يُكْمِلْهُ...

والغريب أن الوجدان الشعبي يمزج قصصَ هؤلاء الأشقياء برؤى ومشاهدٍ
من ثرائهِ الدِّينِيِّ، فأبشع ما في ملحمة الأدهم هو خيانة صديقه بدران له؛ فقد
تَرَبَّيَا مَعًا، وَتَرَامَلَا في المدرسة، وَبَكَيَا مَعًا عند وفاة عم أدهم (الشيخ
الشرقاوي الكبير)، وَوُثِّقَ فِيهِ الأدهم، وَائْتَمَنَ عَلَى ابْنَةِ عَمَّتِهِ سِتِ الدَّارِ، وعلى
حبيبته ياسمينه، يَبْدُ أَنَّ بدران خانهُ، وَأُطْلِقَ الرِّصَاصُ عَلَيْهِ؛ شَأْنُ كُلِّ جَبَّانٍ، هُنَا
يبدو مشهد «العشاء الأخير» الذي حضره الأدهم وبدران مشهدًا إنجيليًا
صريحًا؛ فبدران يكاد في هذا المشهد أن يكون «يهودا الأسخريوطي»، الذي
باع المسيح بثلاثين قطعة من الفضة، وَتَبَّؤُ «يسوع» بأن هذا العشاء الأخير
يُكْرِّرُهُ الأدهم لبدران بنفس المعنى تقريبًا.

وامتدادًا لهذه الإسقاطات الدينية على شخصية هؤلاء الأشقياء، فقد
أذهلني أنني اكتشفت أن عددًا كبيرًا من آلاف الأضرحة التي أقيمت في قُرَانَا
المصريَّة لأولياء الله تَضُمُّ تحت قبابها عِدَدًا كبيرًا من هؤلاء الأشقياء! وهكذا
أصبح بعض أولاد الليل -بعد موتهم- ملجأ للقاصدين، ووسيلة لقضاء الحاجات،
وَبَابًا لِمَلَكُوتِ السَّمَاءِ يُنْدَرُّ لَهُ وَيُتَوَسَّلُ بِهِ، وَتَتَعَلَّقُ بِقِدَاسَتِهِ القلوب. ليس هذا
فقط، بل إن بعض بنات الليل قد نِلْنَ أَيْضًا هذه المنزلة الغريبة، ومنهنَّ

«الست ظريفة»، التي بدأت بائعة مُتعة في سوق البغايا، وانتهت «شيخة» من مشايخ منفلوط!.

والرؤية الشعبية لهؤلاء الأشقياء تحرص على تأكيد بعض المُقدَّسات التي تُميِّز النَّفسَ المصريَّة، ولتتأمل -مثلاً- ذلك الاستبشاع الذي حرص الوجدان الشعبيُّ على إضفائه على خيانة بدران لصديقه أدهم، وهو ما يفعله -في حدود ما بقي من الذاكرة- بالنسبة لمقتل عبد الحميد عَبل!

وتبقى الخيانة -وعلى رأسها خيانة علاقات الصداقة ووشائج الرَّجم- هي مصرع الأبطال الحقيقي، وهزيمتهم الوحيدة؛ إنهم لا يفتقدون للشجاعة، وليسوا بأضعف من أعدائهم، لكنَّ الخيانة هي مَصْرَعُهُم، وأظنُّ أن هذا كلُّه وليدُ المرارة التي ملأت خُلق المصريين بالشَّجَى بعد أن هَزَمَت الخيانة و«الوَلَس» فارسَهم النبيل «أحمد عرابي»، وربما قبل ذلك بقرون، عندما وَقَعَت مصر -بفعل الخيانة- أسيرة الغزو العثمانيِّ في معركة «مرج دابق». وهنا تقفز ملاحظة هامة، فما فعله الوجدان الشعبي في تراثه ليس خيالاً مَحْضاً؛ فهو لم يَفْعَلْ تلك الصِّفات، وبلَصَّحها بـ «أولاد الليل» قد يكون بالغَ قليلاً، ولكنَّ المُبالغة شيء، والكذب أصلاً شيء آخر...

فليس صحيحاً إذاً ما يذهب إليه البعض من أن الوجدان الشعبي قد فعل هذا إعجاباً بالشجاعة بصفةٍ مُطلقة، أو تدخُّلاً في نفسية شعبٍ مُستدَلَّ يُحبُّ الأقوياء، ويتميِّز بـ «المازوكية» في جسِّه وروحه، وهو ما يقوله بعض من ينظرون باستعلاء إلى الشعب المصري؛ إذ لو كان كذلك لأعجبَ بِجَبَروت حُكَّامه وطغيانهم، ولما ساند بالحبِّ مَنْ شَقَّ عصا الطاعة عليهم، إلى دَرَجَةٍ تُقدِّسهم.

والدليل القويُّ على أن الوجدان الشعبي لم يَفْعَلْ هذه الرؤية، وإنما استند على حقائق تاريخية عن هؤلاء الأشقياء، هو أن العديد من الشخصيات والأحداث التي يرونها حقيقة؛ فبدران -على سبيل المثال- هو شخصيَّة واقعيَّة، وقد أشارت إليه الصُّحفُ في سَرْدِها لحادثِ مَصْرَعِ الأدهم باسمه الحَقِيقِي: «محمود أبو العلا»، خفير عزبة بلال، الواقعة في زمام قرية قليشان بالبحيرة، إحدى محافظات شمال الدلتا في مصر. وأبو العلا هو صديق الأدهم وحليفه الذي باعه وسلَّمه بثلاثين قطعة من النَّحاس!

ومن المُحتمَل إذاً -لو أجهدنا أنفُسَنَا في مُقارَنة السيرة الشعبية بالمسيرة الفعلية لهؤلاء الأشقياء- أن نواجه بظاهرة لِشَكلٍ من الأشكال المقاومة المصرية للطغيان والاحتلال والاستذلال، قد لا يكون هو الشكل الأمثل، ولكنه نوعٌ من الاحتجاج المشروع على أيِّ الأحوال.

وأستطيع هنا أن أحمِّل مسؤولية القول بأن السنوات التي تَلَّتْ هزيمة الثَّورة العُرابيَّة قد شَهِدَت موجةً من هؤلاء «الأشقياء»، وَجَّهوا رصاصهم -في

الغالب- ضدّ الذين خانوا الثورة وباعوا؛ فقتلهم «الأشقياء»، وسرقوا دُورَهُمْ، وسمّوا مواشيهم، واقتلعوا زراعاتهم، بسلاح تثبت -فيما بعد- أنّه بقيّة ما ورّعه عُرابي من أسلحة على الفلاحين للمُشارَكة في صدّ الغزو، وأحدثوا اختلالاً شديداً في الأمن العام، وهي موجة هدّدت مكاتة «اللورد كرومر» أوّل مُعتمدي الاحتلال، الذي حاز منصيبه وقتها على وعدٍ بأنه سيكفل لمصر الأمن السياسيّ والجنائيّ؛ لتزدهر ماليّتها.

ولا أريد بالطبع أن تختلّ المقاييس بين أيدينا، فيتقدّس مُجرمون، لكن الظاهرة ينبغي أن تكون محلّ دراسات مُعمّقة تكتشف أبعادها؛ إذ لا شكّ أن التاريخ الرسميّ لـ«أولاد الليل» غير دقيق تماماً. ومن المؤكّد أن هناك جوانب من حياتهم قد طُمست عمداً أو جهلاً، والأرجح أن المؤرّخ الشعبيّ المجهول قد شكّ في زمة المؤرّخين الرسميّين، فحرص على تسجيل سيرة أولاد الليل بأسلوبه الخاص، الذي يكفلُ حفظه وتواتره وبقاءه، رغم أنف التاريخ الرسمي، الذي أصبح تزويره تقليداً عريباً.

وتعكس فصول «أفيون وبنادق» محاولةً للاهتمام بهذا الجانب من تاريخنا الاجتماعي، فقد عثرتُ على الخطوط الأولى لهذا الكتاب وأنا أحاول أن أرصد ملامح موجة العنف السياسي التي خصّبت بالدمّ تاريخ العقد السّابق على قيام ثورة 23 يوليو مباشرةً، فقد لاحظتُ أن حياة أولاد الليل (أبطال موجة العنف الجنائي) هي الوجه المُكمل لهذه الظاهرة. وقد أدركتُ على الفور الارتباط بين وجهيّ هذه الموجة؛ ومن هنا كان اهتمامي بسرد وتحليل قصّة زعيم أولاد الليل: محمد محمود منصور، الشّهير بـ«الخُط»!

وقد حاولتُ في حدود الوثائق المتوفّرة أن أقدم رؤية أكثر شموليّة لظاهرة أولاد الليل، ومن المؤسف أن ما عثرت عليه كان قليلاً، وبرغم ذلك فقد كفاني لاكتشاف الخطوط الرئيسيّة التي تضيء الظاهرة وتُحلّلها، وتنفي عنها تلك المُعالجات الصّيقة الأفق التي تنظر للحياة بمنظار أخلاقيّ مُجرّد فقط، ولا تفهم الأخلاق بمقياس اجتماعيّ؛ فالخير والشرّ -في مفهومهما الصحيح- أسيران للسؤال العلميّ الذي يقول: «خيرٌ من؟ لصالحٍ من؟ وشرٌّ من ضدّ من؟».



محمد محمود منصور، الشَّهير بـ«الخُطَّ»!

وفي ضوء هذا كله فإنَّ الفَرَضَ القَائِلَ بأنَّ أولاد الليل قد بدأوا جميعًا حياتهم بواقعة تَارٍ- يُثِيرُ علاماتِ استفهام، لا يهتمُّ بها المُصْلِحون الاجتماعيُّون عادةً، لكنَّها تهمُّ البَاحِثَ في ظواهر المُجتمع من مَظلة اليقين بترايُطها وشمولها؛ إذ ما مُبَرَّر هذا الرِّفض المكثَّف لأن يقوم القانون -كجزءٍ من سلطة الدولة- بهذا القصاص، أيعكسُ هذا شكلاً من أشكال رَفْضِهِ وعدم الثِّقة به؟ هل يعكس وَعْيًا بأن هذا القانون ليس تعبيرًا عن العَدل المُطلَق، وإلَّا ما هو عَدْلُ المَالِكِينَ، ولِحسابِهِم؟ عَدْلُ «يَعُوجِ الطُّربُوشِ على نَاحِيَةٍ ويحكم بأربع سنين.. إثنين في السِّجْنِ العَالِي وَاتْنين في الرِّنازين»؛ كما تقول بهيَّة؟ هذه فكرة أرجو ألا تكون خاطئة تمامًا...

وإذا اقتنعت معي بصحَّة التحليل العلمي الممتاز الذي توصَّل إليه الطبيب النفسيُّ «فرانز فانون» الزنجي، «المارتنيكي»^[1]، الذي استشهد دفاعًا عن استقلال الجزائر؛ فسوف تنظر إلى «سيكولوجية شعوب المستعمرات» باعتبارها وليدة القهر الاستعماريِّ نفسه؛ فالعُنْفُ الذي يُمارِسُهُ الاستعمارِيُّون ضدَّ هذه الشعوب يخلق «عُنْفًا مُرتدًّا»، ولكنه مكبوت؛ للَعَجَزِ عن التعبير عنه،

وهذا الإحباط النفسي المُتكرِّر لدى شعوب المُستَعْمَرات يخلق أنماطاً مُرتَبِكةً من التعبير عن العنف، لا أشك أن ظاهرة «أولاد الليل» (بجانب ما تَتميَّز به من خصوصيَّة) وليدَةُ شَرعيَّة لها...

وبعد...

إن الأمانة تقتضي أن أذكر بالشُّكر أن هذه المحاولة تَدينُ بوجودها إلى عَدَدٍ من المصادر، على رأسها: المذكرات المنشورة للأستاذ محمد هلال، ضابط البوليس الذي اقتنص الخط، وطاردة لمُدَّة عام كامل، ثم هجر البوليس واشتغل بالصحافة- وتحقيقين صحفِيَّين للأستاذ محمد حسنين هيكل، كانا من الأعمال التي دَفَعَت حياتَه الصحفيَّة في بدايتها إلى الأمام، فضلاً عن أخبار وتحقيقات -غير مُوقَّعة- نُشِرت في سنواتٍ مُتفرِّقة على صفحات: «المصري»، «الأهرام»، «أخبار اليوم»، «آخر ساعة»، «المُصوِّر»، «السواري»، «الأُمَّة»، و«روز اليوسف».

وسوف يسعدني كثيراً أن ألقَى -كتابةً- من الذين عاصروا -عن قُرب- عالم أولاد الليل وزعيمهم الخط، أيَّ تفاصيل أو إيضاحات أو تصحيحات تساعدني في استكمال فَهْم هذه الظاهرة، وسوف أشير إلى المصدر إذا ما طَلَب صاحِبُه ذلك. ولعلَّ الشَّكل الذي اخترته لمعالجة هذه «الحدُوتة» لا يُغضِب كثيرين؛ فقد حاولتُ أن أوازنَ (بمصطلحات نُقَّاد المسرح) بين «الفرجة» و«الفكر»، فاحتفظتُ للعرض بشعبيَّة القائمة على التشويق والبساطة، ولم أهمل ما تُفجِّره الظاهرة -بكل إثارته الطَّبعية- من دلالات فكريَّة، والجانبان متكاملان بطبيعة الموضوع نفسه؛ فالفرجة ليست اصطناعاً مُبتدلاً، والفكر ليس تَلفيقاً مُقرَّراً...

وإني لآمل -يا عزيزي القارئ- أن تجد في هذه «الحدُوتة» مُتعة الفرجة؛ إذا كُنت لا تريد سواها، وألاً نضِنَّ عليك بِمُتعة الفكر؛ إذا كُنت تَقصِّده، فإن فَعَلتُ هذا أو ذاك فَلعلها تُؤدِّي خِدْمَةً ضئيلةً لِفَهْم الشَّعب المصري العظيم، الذي علَّمني وربَّاني، وأعطاني الكثير؛ فَعَشَّقته، وإذا لم تفعل، فإن الغُفرانَ لا يُصَنُّ على المَحَبوبِ في مَلَكوتِ كِبَريائِه!

صلاح عيسى

القاهرة - أغسطس (آب) 1973.

الفصل الأول

مفاجأة في البحر الأخضر

الرَّمان: صباح يومٍ حارٍّ من أغسطس (آب) 1947.

المكان: باحةٌ واسعةٌ أمام وابلور «مالطي».

الشمس تظهر في الأفق، قطراتٌ من ندى الفجر تتبخر ببُطءٍ تحت أشعتها الدافئة، قليلٌ من الليل ما زال ناشبًا في دفء النهار، وما بقي من قطرات الندى يعلّق بأوراق عيدان الدُّرة الطويلة، التي كانت -آنذاك- في أوج ارتفاعها، مُثقلَةً بكيزان لا حصرَ لها.

وعلى مدى البصر لا تَرى العينُ شيئًا سوى مساحاتٍ واسعةٍ من الاخضرارِ الرَّاهي، وسنابل الدُّرة لا تَهترُ؛ ذلك أن النهار كان صَنِيبًا بالنَّسيم، وبخيلاً به.

قليلون هم الذين يهلكون الشجاعة للمرور أمام وابلور مالطي في هذا الوقت من الصَّباح المُبكر، وحتى أيامَ كانت الدُّنيا أمانًا، فإن أحدًا لم يكن يملكُ جسارَةَ الدَّهاب بمفرده إلى هناك؛ فالوابلور يقع وسط خمسمائة فدَّان من الدُّرة، يُحيط به من كل النَّواحي.

وفي هذا الوقت من أغسطس (آب) تتمدّد عيدانُ الدُّرة، ويَصعُبُ أن تَرى العينُ وسطَ كثافتِها المُظلمة شَيْئًا، ومن السهل دائمًا أن تختفي ماسورةُ البُنْدقيّة بين أعوادها الطويلة: تنطلقُ فجأة؛ فتسلُبُ الإنسانَ الحياةَ، أو المالَ، ورُبَّما كليهما.

وابلور مالطي أحد معالم قرية «جحدم» (واحدة من قرى مركز منفلوط)، تقبّع في استرخاءٍ على حافة الصحراء بالوادي؛ فهو يَقَعُ في زمامها، ولا يستغرق الوصولُ إليه أكثر من عَشْرَ دقائقٍ على الحمار، يَقطَعُها الرَّاكِبُ وسطَ «البحر الأخضر»، حيث يحيط الظلامُ كُلَّ شيءٍ، حتّى والشمسُ تَمَلَأُ السَّماء...

و«البحر الأخضر» تعبيرٌ صَعِيدِيٌّ، يَصِفُ تلكَ المسلّحاتِ الكثيفة من الدُّرة التي تخرج عن مدى البصر، تُساعدُ كثافتُها قُطاعَ الطرق، وأولاد الليل على اتّخاذها ملجأً أمينًا؛ فهي سائرٌ طبيعيٌّ يُخفي بين أعواده الخطرَ والخوفَ.

كان «الوابور» مبنى قديمًا من الطوب الأحمر، يقع وسط البحر الأخضر تمامًا، وهو مكوّن من دورين، بأبه الصّخم يقود إلى صالّة واسعة توزّعت فيها آلاته، «القرّان»^[2] الكبير الذي يمتلئ بالماء يغلي لإوفرة الوقود المشتعل تحته، فيدير البخار المتصاعد منه عجلة صخمة مثبتة بأحد جانبيه، ويدير «السّير» المحيط بها عجلة أخرى تستخرج المياه من باطن الأرض، في شلال قويّ، يخرج إلى قناة يتسلّل منها بقوة الاندفاع إلى الزرع العطشان.

في الزاوية اليمنى من الباب سلّم حلزونيّ يقود إلى الدور العلوي؛ مُجرّد صالّة واسعة تنائرت فيها الأدوات اللازمة لإدارة الوابور: حبال، سيّر قديم، ومفاتيح مُختلفة الأحجام، وبعض صفائح وبراميل الوقود. وفي ركن آخر: منضدة ريفيّة، وموقدٌ كبيروسين، ثمّ سرير «سّقري» صغير، وبعض المتعلقات الشخصية لخفيّره «مدبولي»، الذي كان يقيم بمبنى الوابور للحراسة، وتُشارِكه الإقامة زوجته «حميدة».

وحتى أيام كانت الدّنيا أمانًا، كان واپور مالطي يُثير الخوف دائمًا، لا يطمئنُ المارُّ أمامه على نفسه؛ فهو يبدو من الخارج قلعةً مُحصّنة، بها نوافذٌ مُستديرة، على شكل عُيون تُتيح لمن خلفها أن يتحصّن بالجدار السّميك، فيرى بوضوح كلّ ما أمامه، ويكشف أكبر مساحة من البحر الأخضر، كما تُتيح له أن يتحكم تمامًا في الباحة المواجهة للوابور، فيقتل مائة قبل أن يناله أيُّ مهاجم. بيّد أن الدنيا لم تعد أمانًا؛ ذلك أن «الخط» كان قد استقرّ في واپور مالطي، واتّخذ مَقَرًّا ثابتًا له، وهكذا تحوّل الوابور إلى منطقة حرام. إنّ مارد الصعيد محمد محمود منصور، الشهير بـ «الخط» يُقيم الآن في الدور العلوي من الوابور. ينام على السرير «السّقري» الصغير، حيث تُشارِكه الفراش -أحيانًا- حميدة زوجة الخفيّر مدبولي، وفي كلّ الأحوال -حتى وهو في أحضان حميدة- فإنّ «الخط» لا يغفل لحظة عن مدفعه الرّشاش، ولا عن منظاره المُكبّر الذي يستطيع أن يكتشف به ما حوله، فيتنبّه لأيّ هجوم، ويبادر إلى الفرار، ويزدوب في البحر الأخضر الكبير.

وخلال الشُّهور الثلاثة التي قضاها «الخط» في الوابور كان الذين يسعون خلفه يُفكرون في ألف وسيلة، ويرسمون ألف حُطةٍ لاصطياده، لكنهم كانوا يُمرّقونها، ويعجزون عن تنفيذها؛ فالمجنون وحده هو الذي يفكر في اقتناص رَجُلٍ يُقيم في قلعةٍ مُحصّنة كهذه، وبرغم أنه كان مُطارّدًا ومطلوبًا، فإنه كان أمنيًا أكثر من مُطارديه، حتّى أنه كان في بعض الليالي يترك الوابور، ويترك حميدة، آخر عشيقاته، ويغيب في البحر الأخضر، ومعه تابعه وكشافه «أبو الصالحين»، آخر من بقي من عصابته، وبعد رحلة طويلة في متاهات البحر التي يعرفها جيّدًا، يظهّر «الخط» فوق جبل «الشيخ بخيت»، يقف لحظة ليقرا الفاتحة لمقام وليّ الله إلقايع فوق قِمّة الجبل، ثم يستكشف الطريق بمنظاره المُكبّر؛ كان «تلسكوبًا» قويًا، اشتراه من مسروقات الجيش

الإنجليزي يتسعة جنيهاً، ولأنه كان في الأصل منظار ميدان ممّا يُستخدَم في ميادين القتال؛ فقد كان يُتيح للخط -وهو فوق جبل «الشيخ بخيت»- رؤية منزله بقرية «دُرْنِكة»: فنائه وسطحه وبابه، فإذا تأكد أن «الدار أمان» نزل إلى درنكة، وتسلل إلى منزله، فسحب زوجته «رشيدة» إلى حجرة النوم، بينما تقف أمّه «خالتي فضّة» على باب البيت، ويدها مدفع «تومي جَن»، تحرس الطريق. ودون كلمة، تخلع رشيدة ملايسها، وتستسلم لرجل قلق، متوتر، لا يرغب فيها بقدر ما ينزع للتخلص من قلقه، أو تجديد مُتغيته، أو أداء واجبه؛ رجل وحيد في قلعة تائهة في البحر الأخضر، تطارده الحكومة بجيشها وشرطتها وعيونها.

كان الخط يعلم أن وراءه قوات الشرطة في مديرية محافظة بأكملها، هي مديرية أسيوط، بل إن فرق الجيش المصري التي كانت تُعسكر بـ «منقباد» على مقربة من أسيوط كانت دائماً على استعداد للاشتراك في المطاردة، بقواتها ومدافعها وطائراتها. بالإضافة إلى كل هذا فقد كانت هناك فرقة متخصصة في مطاردته، شُكلت في سبتمبر (أيلول) 1946، تحمل اسم «فرقة المطاردة»، وتضمّ ستين من أشرس رجال الشرطة وأكثرهم قوّة، اختيروا بعناية، على الرغم من عيوبهم المهنية كرجال شرطة، بل ربّما كان اختيارهم بسبب هذه العيوب تحديداً؛ لكي يواجهوا -بلا رحمة- ابن الليل، الذي «دوّخ» ثلاث حكومات لسنوات مُتصلة! وطوال عام كامل شنت «فرقة المطاردة» عشرات الهجمات على أوكار، ظنّت أن «الخط» بها، ورحل «قلم مخابراتها» الخاص من القاهرة إلى الاسكندرية، إلى بورسعيد، وجاب ضباطها وجنودها كل شبر في مديرية أسيوط بحثاً عنه، لكنها في كل مرة كانت تعود خالية الوفاض، وخلال ذلك العام تمكّنت الفرقة من اصطياد مائة من الأشقياء الهاربين، ورجال العصابات، قُتلوا جميعاً في حملات الفرقة، التي كانت تهدف أصلاً إلى العثور على اللص أزرق العيّن، فضيّ الشارب: محمد محمود منصور، الشهير بـ «الخط». الغريب أنها عثرت على كل هؤلاء، ولكنها لم تعثر على الهدف الذي شُكلت لتصل إليه، وقُتل كل هؤلاء دون أن تصيبه برصاصة، واستحقت -لكثرة ما قتلت من أشقياء- اللقب الذي أطلقه عليها الناس: «فرقة الموت»، لكنّ موتها لم يكن قد طال بعد هدقها!

في ذلك الصباح من رمضان، كان كل شيء مُعدّاً حسب خطة مُحكمة: لا بدّ من أن يقع «الخط» قبل العيد؛ فالمسألة أصبحت لا تُطاق!

في السادسة صباحاً سيأتي الخط لكي يتقاضى مائة وخمسين جنيهاً؛ فدية الطفل الذي خطفه قبل ثلاثة أيام، وأخفاه في وابلور مالطي؛ سيخرج وفي ظنّه أنه سيلقى «لمعي عوض» (شقيق الطفل المخطوف) ويستلم منه الفدية، سيُغادر مقرّه الحصين في «قلعة مالطي»، إلى هذه النقطة من البحر الأخضر، ولكنه لن يلتقي بلمعي عوض، ولكن بمديافع وبنادق «فرقة الموت».

في الثانية من الصباح، والظلمة تُحيط بكلّ شيء، تسَلّل أفراد «فرقة الموت» من الصحراء، دخلوا البحر الأخضر، أبحروا عَبْرَ عيدانه في ظلام دَامِسٍ، قَسَمُوا أنفسهم إلى ثلاث فِرَق، بين كل واحدة والأخرى خمسة عشر مترًا.

بعد قليل كانت هناك ستون فُوهة لِسْتَيْنَ بندقية تحيط دائرة المكان الذي سيظهر فيه «الخط» -طبقًا للموعد المُحدّد سَلَفًا- في تمام السادسة من الصباح.

على رأس المجموعة الأولى كان الملازم محمد السعيد هلال، قائد فرقة الموت، يَقِيعُ بمدفعه الرشاش.

قام لِيُلْقِي تعليماته الأخيرة لرجاله، فأعاد شرح الخطّة، بصوتٍ هادئٍ، حرص على ألا يرتفع، وركّز كثيرًا على الصمت واليقظة، وأدركَ رِجاله أنّ قائِدَهُم -مِثْلَهُم- قَلِيقٌ، وبرغم الثّقّة التي كان يتحدّث بها، فقد كان الجميع يذكرون مُحالوتٍ كثيرةً فشَلَّت قبل ذلك لاصطياد الخطّ، مع أنها كانت مُحْكَمَة التخطيط، وكان ذلك يشغل محمد هلال ذاته، الذي ختم تعليماته فجأة، بعد أن أدرك أنه يُكرّر نفسه، فقال بصوتٍ فشل في إخفاء توتُّره:

- باختصار.. كل واحد منكم يبقى صاحي ومَيّت في وقت واحد...

فَهُمَ الجميعُ تمامًا ما يَعْنِيهِ: على كُلِّ منهم أن يَقِيعَ صامِتًا تمامًا، لا يتكلّم، ولا يتحرّك، ولا يَصُدُر عنه أيُّ صَوْتٍ؛ لكي لا يَلْحَظَ أَحَدٌ أنّ هناك كَمِينًا في البحر الأخضر. وفي نفس الوقت كان على كُلِّ منهم أن يكون «حيًّا» جدًّا؛ يرى كُلُّ شيءٍن ويسمع أي صوت؛ لكي لا يأخذهم «الخط» -وهو ابن الليل المُدْرَب- على غِرّة، ويفرّ منهم، كما قرّر قبل ذلك عَشْرَاتِ المَرَّات، أو يقودهم لِكَمِينٍ يَقْتُلون فيه أبرياء لم يَرْتَكِبُوا جَرِيْمَة، أو يصطادون هَدَقًا لا يَنْشُدونه.

وَتَمُرُّ اللحظات بطيئة ومملة:

كان حمدي خليفة -عُمدَة^[3] «جُحْدُمٍ»- أكثر الرّجال هدوءًا وثِقَةً بالنَّفْس؛ فهو مُرْشِدُ الشَّرْطَة، وطُعْمُهَا الذي حَظَّط لاستدراج «الخط». ولأنه صديقُه وخَلِيفُه؛ فقد كان واثقًا أنّ «الخط» قد بلغ الطعم، وأنه سوف يأتي في الميعاد، ولم يتطرق إلى ذهنه -لَحْظَة- احتمال أن يَشْكُ فيه الخطّ، أو أن يَعدِلَ عَمَّا اتَّفَقَا عَلَيْهِ، لكنَّ التَّوتُّرَ كان يسود كُلَّ مَنْ هُم حَوْلُه، حيث بدأ الرجال ينزعون أعواد الدّرة المحيطة بهم ليتحرّكوا ببعض الحرية، وعارض محمد هلال في ذلك، ولكن حمدي خليفة لم يَرِ داعِيًا لِكُلِّ هذا الحَدَر؛ فالخط لن يَصِلَ قبل ثلاث ساعات، وهو الآن في الوابور، على بُعْدٍ لا يسمح له بأن يسمع شيئًا ممّا يَفْعَلون.

لكن لا شيء عند محمد هلال يبدو مُوَكَّدًا...

ماذا لو كانت الخُطة كُلُّها مَصِيدَةً له لا للخُطّاء؟ إن حمدي خليفة رَجُلٌ لا يمكن الاطمئنان إليه؛ فقبل أسبوع واحدٍ كان شَرِيكَاً للخُطّاء، وحليفاً قوياً له؛ فهو الذي استدعاه لِيُقيمَ في زمام بلدته، وهو الذي اختار له «قلعة مالطي» الحصينة، العَصِيَّةَ على الاقتحام. وما أكثر الكمائن التي أَعَدَّتْها فرقة الموت للخُطّاء، وفشلت بسبب خيانة حمدي خليفة لوظيفته كأحد رجال «الضبط والرَّبط»؛ إذ كان ولاؤه للخُطّاء أكثر من إخلاصه للحكومة التي منحتَه وظيفته ومكانته.

هل يكفي أن يكون حمدي خليفة وأبناؤه ضمن أفراد الكمين لِيَتَّقَ في أنه لم يستدرجه وفرَّقته بكامل مُعَدَّاتهم؛ لِيُقَدِّمَهُمَ طعاماً شَهِيّاً للخُطّاء، يلتهمهم، أو يُطْعِمُهُمَ للكلاب كما تَوَعَّدَهُمَ أكثر من مرّة؟

هل يَتَّقُ بالقَسَمِ المُغلَّظِ الذي أقسمه حمدي خليفة على المصحف بأن يُسَلِّمَهُ الخُطّاء؟! إن ذلك يبدو مُضْجِكا لا شَكَّ؛ فَرَجُلٌ مثل عمدة «جحدم»، لا يمكن الاطمئنان لكلامه، أو الثقة بِقَسَمِهِ، وهو -شأنه في ذلك شأن كلِّ الفلاحين- يَتَّقِي كَيْفَ يُكَلِّمُ الحكومة بأسلوب ناعم مَعسول، يدفع للثقة، في حين أنه ينوي شيئاً مختلفاً تماماً عما يقول أو يَعِدُّ وهو يُقسِمُ على المصحف، كاذباً، وَيَقْنَعُ نَفْسَهُ بأنه أجبر على ذلك، وأنه أقسم لِيُدْفَعَ عن نفسه مَضَرَّةً، فإذا لم يطمئن ضميرُه لهذا التبرير صام ثلاثة أيَّام، وأَبْعَدَ عن نَفْسِهِ مَخَافَ الحساب يومَ الحِساب، إذا كان تَمَّ من الذُّنُوبِ بَوَاقٍ لم يُكْفِرْ عنها بالصَّيام!

وحتى لو كان حمدي خليفة -لحساباتٍ لا يَعْرِفُها- هو، ليس من بينهما قَسَمُهُ على المصحف- قد تَوَيَّ أن يخون الخُطّاء، قَيَّسَلَمَهُ لِمُطَارِدِهِ، فذلك ليس سبباً كافياً للاطمئنان؛ فما أكثر الكمائن التي رُسيِمَت للخُطّاء وقُشِلَت؛ فهو مُجرِمٌ مُدَرَّبٌ، يعتمد على المفاجأة، وهو صاحب صِلَاتٍ واسِعَةٍ بأعيان المديرية، وهو قائِدُ عصابة، لها إدارة مُخَابِرَاتٍ خاصَّة بها، فهل يَعْرِضُ عليه أن يعرف الخُطّة؟ لماذا لا يكون قد جَنَّدَ أَحَدَ أعضاء الفرقة للتجسس عليها؟ إن ذلك يبدو منطقياً تماماً، وإلا لَمَا قُشِلَت عَشْرَاتُ الخُطَطِ التي وُضِعَت من قبل ذلك لاقتناصه...

عند الفجر جاء العُمدة لِيُنْقِذَ هلال أفندي من خواطره المُجهدة، اتَّخَذَ مكاناً بجواره، كسر عوداً من الدُّرَّة؛ فازداد الصَّابِطُ تَوَثُّراً، وَقَبَلَ أن يُعْتَقَهُ على ذلك عاد الهدوء إلى المكان، وَمَرَّتِ الدقائق بطيئةً، والعقارب الفوسيفورية للسَّاعة الوحيدة لدى الفرقة تشير إلى السادسة، والوَحْمُ قد حَطَّ على الجميع، هَدَّ السَّهْرُ وَالْقَلَقُ وَالْتَرَبُّصُ أعصابَهُم، حتى بدا كأنهم سينامون في انتظار الخُطّاء...

فجأة شَقَّ سكونَ البحر الأخضر صوتٌ طلقات نارية!

كان واضحًا أن الصَّوت قد جاء من نفس الطريق الذي ينتظرون أن تدبَّ فوقه أقدامُ الحُطِّ، تنبَّه الكلُّ، همس أحدهم يُعَدِّد ما سَمِعَهُ من طلاقات:

- أحد عشر عيارًا...

لم يَقُلْ أحدٌ إن الرصاصات استقرَّت في هدف قريب، فقد قَهَمُوا جميعًا ذلك عندما لم يسمِعُوا لها أزيزًا. برغم حالة اليقظة التي شَمِلَتْ الكلَّ؛ لم يتحرَّك في الرجال إلا أصابعهم التي تسَلَّت تلقائيًا إلى أزرده البنادق.

لم تَكُن الرصاصات الإحدى عشرة ضمن الخطة، كان المُتَّفِق عليه أن يَمُرَّ الحُطُّ أمامهم في طريقه للقاء إخوة الطفل المخطوف ليحصل على الفدية، وقبل أن يصل إليهم تكون رصاصات فرقة الموت قد وصلَتْ قلبه!

فكر هلال أفندي أنها قد تكون مُظَاهَرَة نارِيَّة أراد منها الحُطُّ أن يُرْهِبَ مَنْ يَنْتَظِرُونَهُ من أهل الطفل؛ لِكَيْلَا يطلبوا تخفيضَ الفِدْيَةِ، أو يُطِيلُوا أَمَدَ المُفَاوَضَات.

لكن، لماذا لا تكون إعلانًا من الحُطِّ بأنه يعرف أن هناك كمينًا ينتظره؟ فهل يَعْقُبُهَا بهجوم، أم يَقِرُّ تَارِكًا سُخْرِيَّتَهُ بالدَّولة، بِكُلِّ هَيْبَتِهَا وَهَيْلَمَانِهَا... كما فعل قبل ذلك كثيرًا؟

تَابَعَ عَقْرَبُ الثَّوَانِي انتقالاته البطيئة، انتبهت حواسُّ الرجال الخاملين، شَجِدَتْ تمامًا، تَحَرَّكَتْ الأصابعُ دون إِرَادَةٍ على أزرده البنادق، على الممشى -بين حقلين من حقول الذرة- سَمِعُوا صوتَ أقدام، ارتفع الصَّوتُ تَدْرِيجِيًّا؛ فَحَدَّدَ اتِّجَاهَ السَّائِرِينَ، كَتَمَ الجَمِيعُ أنفاسَهُمْ، بدأت أصابعُ الرِّجَالِ تَحَسُّسَ الأزرده بعصبِيَّةٍ، استطاع أقربُ الرجال إلى الممشى أن يَلْمَحُوا أَرْبَعَ أَقْدَامٍ مُنْتَعِلَةٍ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لِشَخْصَيْنِ.

رفع هلال أفندي رأسه، وَتَسَلَّلَ بعَيْنِهِ عبر عيدان الذرة، رَأَى وَجْهَيْهِمَا، لم يَعْنِ ذَلِكَ شَيْئًا لَهُ، صَحِيحٌ أَنَّهُ يُطَارِدُ الحُطَّ منذ عام كامل، لكنه لم يَلْتَقِ بِهِ قبل المِطَارَدَةِ، أو أَثْنَاءَهَا، وهو لم يَرِ لَهُ صُورَةً، أو يَعْرِفَ لَهُ مَلامِح. وظلَّت عَيْنَاه مُعْلَقَتَيْنِ بِالرَّجُلَيْنِ، حتى أَنَّهُ لَمْ يَنْتَبِهْ حِينَ رَعَدَهُ الشَّيْخُ حَمْدِي خَلِيفَةُ عُمْدَةِ «حُجْدُم»، ولم يسمع همسته السريعة:

- هَوَّا الحُطَّ.. الحُطَّ...

كَرَّرَ العُمْدَةُ الهَمْسَةَ، واقترب ابنُه من الضابط مُؤَكَّدًا تنبيهَ أبيه، وتلملم بعض أفراد الفرقة مَمَّنْ كَانُوا حول الرجلين، وقد وجدوا قائدهم جامدًا كالتمثال، لا يُكذِّبُ ما يَقُولُهُ العُمْدَةُ، ولا يبدأ بإطلاق الرِّصاص، فيتبعوه، والرجلان يواصلان السَّيْرَ، حتى كادا يقتربان من نهاية مرمى الرصاص، والعمدة يواصلُ هَمْسَهُ بِغَيْظٍ يُحَاوِلُ كِتْمَانَهُ:

- الخُطّ يا هلال أفندي... الخُطّ...

شيء غريب ذلك الذي انتاب قائدَ فرقة الموت...

على حَدِّ قَوْلِهِ فِي مُذَكِّرَاتِهِ، فَإِنَّهُ تَلَقَّى الهمسة بهدوء، انتابته أحاسيسُ
شخص قادر في ثانية واحدة أن يصرع هذين الشخصين على الطريق، ولكن
هذه القُدرة بَدَلًا من أن تَدْفَعَهُ إلى المبادرة بإطلاق النار أَدَّتْ لَهُ «لخبطة»؛
ففي تلك اللحظة تراكَمت في ذهن هلال أفندي مَشَاهِدُ القَسَلِ الذي حاقَ بِهِ
فِي أَكْمِيَّةٍ مُمَاتِلَةٍ، انتهت بقتل أبرياء؛ لذلكِ فَكَّلَ مَا كَانَ يَشْعَلُهُ هُوَ سَوَالٌ،
نَصُّهُ: «أهذا هو؟». وَرُبَّمَا كَانَتْ لَحْظَةُ الشُّكِّ نَفْسَهَا الَّتِي قَادَتْهُ إِلَى الْمَوْقِفِ
المُغَايِرِ تَمَامًا؛ فَتَصَرَّفَ بِشَكْلِ غَرِيزِيٍّ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِنَفْسِهِ وَهُوَ يَضْغُطُ عَلَى
«تِيكَ» مَدْفَعِهِ الرَّشَاشِ، وَقَدْ تَشَبَّحَتْ أَصَابِعُهُ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ يَطْرُدُ تَرَدُّدَهُ فِي
لَحْظَةٍ يَأْسِي مِنَ الْحَقِيقَةِ وَمِنَ الشُّكِّ! وَلَمُدَّةَ رُبْعِ السَّاعَةِ التَّالِيَةِ أَصْبَحَ الْمَكَانُ
مِيدَانًا حَرْبٍ حَقِيقِيٍّ؛ غَابَ مِنَ الطَّلَاقَاتِ السَّرِيعَةِ الْمُتَتَالِيَةِ، أَصْبَحَ الْبَحْرُ
الْأَخْضَرُ بَحْرًا مِنَ الطَّلَاقَاتِ النَّارِيَةِ، تَنْطَلِقُ مِنْ سِتْنَيْنِ بَنْدَقِيَّةٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَنْوَاعِ،
أَصْبَحَتِ الْبَنْدَقِيَّةُ هِيَ سَيِّدَةُ الْمَوْقِفِ، وَهِيَ الْقَائِدُ الْحَقِيقِيُّ لِفِرْقَةِ الْمَوْتِ،
حَاوَلَ الْمُؤَلَّازِمُ مُحَمَّدٌ هَلَالَ أَنْ يُوقِفَ الثَّيْرَانَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتِمَّكِنْ، لَمْ يَسْتَمِعْ إِلَيْهِ
أَحَدٌ وَسَطَ أَزْرِ الرِّصَاصِ الْمُتَدَفِّقِ بِلا حُدُودٍ وَلَا قُيُودٍ، وَرُبَّمَا خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَصْدَرَ
أَمْرًا بِإِقْفَافِ إِطْلَاقِ النَّارِ وَهُوَ لَمْ يُصِذِرْهُ فَعَلًا!



لم يَكُنْ هناك عَقْلٌ يفكِّر، ولكن كان هناك خوفٌ لِحِظَةٍ، وَقَلَقٌ لَيْلَةٍ: فَشَلُّ عام كامل. كان الرجال في الواقع يطلقون النار ليتخلصوا ممَّا بداخلهم؛ أكثر ممَّا كانوا يُطلقونه وهم واثقون أنه يصيب جسد الخُطِّ، وكان كُلُّ منهم قد فَقَدَ السَّيْطَرَةَ على أصابعه؛ فهو يواصل تحريكها كأنما أصابته رِعْشَةُ عَصِيَّةٍ، ولا يرفعها عن البندقية إلا ليَضَعَ مشطًا جديدًا من الرِّصاص!

وكما اشتعلت النيرانُ فجأةً خَمَدَت فجأة: تَعَبَت البنادق، أو تَعَبَ الرِّجال، أو تَفَدَّت الذخيرة؛ أو رُبَّمَا كُلُّ هذا... المُهمُّ أنَّ السكون الشامل قد لَفَّ كُلَّ شيءٍ، عاد الرجال إلى حُمُولِهِم، ولم يُفَكِّر أَحَدٌ أن يقوم ليرى نتيجة المعركة، كانوا ما يزالون خائفين، وفي دفعة واحدة خرج الجميعُ إلى الطريق...

التَقَطَت العُيُونُ التي أَجْهَدَها السَّهْرُ والتَّعَبُ وارتداداتُ «دَباشِك» البنادق على عَظْمَةِ الكَتِفِ - جُثَّتَيْنِ ساقِطَتَيْنِ على الأرض؛ تَحَوَّلَتَا إلى مزرعة رصاصٍ، اخترق الرصاص كُلَّ مَسَاحَةٍ فيها، وتناثَر على امتدادِ الجِسم، وبين كُلِّ رصاصَةٍ: رصاصَةٌ!

قال عُمدَةُ «جُحْدُم» قَرِحًا:

- الخُطُّ.. الخط وأبو الصالحين.. الخط مات يا ولاد.

بَدَت علامات عدم التصديق على هلال أفندي... انتفضَ كيائه. سأل:

- أنت متأكَّد يا شيخ حمدي؟!

لم يملك العُمدَةُ نفسَه، تناسى أنه يُحَدِّث حضرة الضابط، هَزَّه بعصِيَّةٍ قَائِلًا:

- إِلَّا مُتَأَكَّد.. هُوَا الخُطُّ.. الخُطُّ انتهى يا حضرة الطَّابِط...

ما كاد ينتهي من كلامه (الذي صَدَّقَ عليه وَلَدَاهُ) حتى انطلقت مِثَالُ الأَعِيرَةِ النَّارِيَّةِ من بندق فرقة الموت؛ تُدَشِّنُ انتصارَها العظيم، وتَحَوَّلَت سماءُ البحر الأخضر إلى لَوْنٍ بَيْنَ الزُّرْقَةِ والحُمْرَةِ...

... وانقَلَبَت الدُّنْيَا.

جاء المأمور، وجاء حكمدار الشرطة، وتداقَعَت سِيَّاراتُ رجال التِّيَابَةِ ترحم الطريق إلى «جُحْدُم»، وازدحم مَسْرُحُ العمليَّاتِ بِآلَافٍ من أهالي القرية والقرى المجاورة.

واجتمع هلال أفندي في رُكنٍ بِمأمورٍ منفلوط، الذي تتبعه قرية «جحدم»، وتَنَاقَشَا في وسائل إبلاغ الحادث إلى المسؤولين في العاصمة... إن خبر مصرع الخُطِّ ليس خَبَرًا عَادِيًّا، وهو لا يَهْمُ فقط مأمورَ المركز، أو مدير الأمن، أو حتى مدير المديرية، ووزير الداخلية محمود فهمي النقراشي، الذي كان

أيضًا رئيسًا للوزراء؛ ولكن يهملهم أيضًا جلالة الملك فاروق شخصيًا، وهو كذلك يهمل الصحافة والإذاعة، ويهمل الأحزاب، ويهمل كل الناس في الصعيد.

اقترح مأمور منفلوط عبد الحق الرفاعي أن تُرسل إشارة هاتفية مطوّلة، تتضمن كل التفاصيل: الخطة التي تُقَدَّت، والقوات التي اشتركت، والمعركة التي جرت، ثمَّ تبا الانتصار المجيد على الشقي الذي هزَّ مكانة الحكومة، وسخر من هيبتها...

اعترض محمد هلال على الفكرة، قال إن الإشارة المطوّلة ستُشيع الجميع، سيكتفي بها الصحفيون، وسيأمن الأعيان، ويطمئن الأغنياء، ولا يهتم أحد بعد هذا بمعرفة الأخبار، واقترح أن تكون الإشارة الهاتفية موجزة جدًا، تُثير فضول الجميع؛ فيلهثون ويبحثون إلى هنا، إلى البحر الأخضر؛ ليعرفوا الأنباء، ويلمسوا بأنفسهم كيف تعب هو وفرقه حتى وقع الخط وأمن الناس شره.

وانتهت المناقشة بإرسال إشارة قصيرة نصّها:

- «قتلنا الخط.. نحن في مكان الحادث...».

في مسرح المعركة نفسه كانت هناك مُشادات كثيرة بين أعضاء «فرقة الموت» وبين الأهالي، كان كثيرون منهم قد جاؤوا ولديهم رغبة في التمثيل بجثة الخط. كثيرون لهم دم في عنقه، وآخرون استدلهم وقَرَضَ عليهم الإتاوات، وقَلَع مَزروعَاتهم، أو حَرَمَهم من أبنائهم.

وَقُرِضَتْ حراسه قوَّية على الجثة التي عُطِّيت ببطانية...

ولم تُرَفَع البطانية عن الجثة إلا عندما جاءت «خالتي فضة»...

و«خالتي فضة» هي أم الخط؛ امرأة جهنمية، وحشيّة القسّمات، خشيّة الطبع، حادّة الأخلاق، سليطة اللسان، وصفها صحفي مُعاصِر فقال إنها «حديديّة النّظر، لا تعرف الحياء، تكاد تلتهم من تنظر إليه».

وجاءت معها رشيدة -زوجة الخط، وأم ابنه الوحيد: هاشم-، استقبلها هلال أفندي باهتمام. أخذ «خالتي فضة» من يدها، اخترق دائرة الحراسة حول الجثة، كشف البطانية عن وجه القتل، فعل ذلك في شيء من الزهو والثقة؛ فها هي آخر صفحة في حياة الخط تُغلق؛ ستتعرّف عليه أمه، وتُسجّل شهادتها في محضر النيابة، اعتراف رسمي، لا مفرّ منه لكي يُعَبَّر الخط ميتًا بالفعل.

نظرت إليه العجوز القاسية وقالت بجمود:

- مين ده؟

- مين ده؟!

هَوَى قَلْبُ الصَّابِطِ إِلَى قَدَمِيهِ، دَارَ رَأْسُهُ، كَادَ يَهْوِي مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، لَقَدْ
شَرَبَ أَكْبَرَ مَقْلَبٍ فِي حَيَاتِهِ. تَمَسَّكَ بِآخِرِ أَمَلٍ.
- يَا خَالَه فَصَّةٌ.. إِنْتِي مَشْ عَارِفَةٌ مِينْ دَه؟
- أَبَدًا.. أَعْرِفُهُ مَنِين!!



«الخالة فضة»

آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

جَنَّ الصَّابِطُ تَمَامًا. وَاقْتَرَبَ مَأْمُورَ الْمَرْكَزِ قَائِلًا:
- مَفِيشْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَيُّ مَعْرِفَةٍ؟
- وَلَا عَمْرِي شُفُّهُ...
أَمْسَكَ الصَّابِطُ مَوْخِرَةَ رَأْسِهَا بِقَبْضَتَيْ يَدَيْهِ، دَفَعَ وَجْهَهَا تَجَاهَ الْجَنَّةِ فِي
غِلْظَةٍ وَعَصَبِيَّةٍ، وَقَالَ:
- شُوفِي كَوَيْس...
- يَا عَيْبَ الشُّومِ.. هُوَا أَنَا عَامِيَّةٌ يَا ابْنِي؟

وَصَحَّكَتِ الْعَجُوزُ الْحِزْبُونَ ضَحْكَةً قَاسِيَةً زَلَزَلَتْ كِيَانَ الْجَمِيعِ، وَمَصَّتْ
مِنَ الزَّحَامِ، وَاقْتَرَبَ مِنْهَا الْمَأْمُورُ فَقَالَتْ لَهُ فِي لَهْجَةٍ قَاطِعَةٍ:

- إِذَا كَانَ دَهَ اللَّيِّ قَتْلُوهُ.. فَدَهَ مَشِ ابْنِي.. شِيلُوا يَا أَخُويا شِيل...

ثُمَّ ضَرَبَتْ كَفًّا يَكْفٌ قَائِلَةً:

- هُوَا كُلُّ قَتِيلٍ تَجِيبُونِي أَشَوْفَهُ؟! هِيَ الْحِكَايَةُ رَمِي جِتَتْ وَاللَّا إِلَهَ. أَمَّا

مَصَايِبُ.

وَجَمَّ الْجَمِيعُ... كَأَنَّ الْخُطُّ لَمْ يَسْخَرْ مِنْ فِرْقَةِ الْمَوْتِ وَقَائِدِهَا وَهَرَبَ
فَحَسَبَ، وَلَكِنَّهُ اسْتَدْرَجَهُمْ إِلَى مَعْرَكَةٍ ضِدَّ اثْنَيْنِ مِنَ الْأَبْرِيَاءِ، قَتَلُوهُمَا بَوَحْشِيَّةٍ
غَيْرِ مُبَرَّرَةٍ، وَحَوَّلُوا جَسَدَيْهِمَا إِلَى مَزْرَعَةِ رِصَاصٍ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِهَذَا، بَلْ
أَسْرَعُوا يُبْرِقُونَ لِلْجِهَاتِ الْعُلْيَا لِلْعَاصِمَةِ بِأَنْبَاءِ خَبِيئَتِهِمْ، وَيَسْشُرُونَهَا بِوَقَائِعِ
مَجْزَرَتِهِمْ!

وَمَصَّتْ «خَالَتِي فَضَّة» بَعْدَ أَنْ أَلْقَتْ قَنَبِلَتَهَا، تَحَرَّكَتْ بِهَيْبَةٍ وَثِقَةٍ، وَهِيَ
تَوَزَّعَ نَظَرَاتِ شِمَائَةٍ وَاحْتِقَارٍ عَلَى الْجَمِيعِ.

وَتَحَوَّلَ الْقَرْخُ إِلَى كَارِثَةٍ...

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْمَشْحُونَةِ بِالْقَلْقِ وَالتَّوْثُرِ وَالْإِحْسَاسِ الْمَرِيرِ بِالْخَبِيَّةِ،
بَدَأَ الصَّابِطُ مُحَمَّدٌ هَلَالَ يَسْتَعْرِضُ فِي ذَهْنِهِ شَرِيطًا طَوِيلًا لِقِصَّةِ الْخُطِّ، ابْنِ
الْليْلِ، الَّذِي دَوَّخَ ثَلَاثَ حُكُومَاتٍ...

الفصل الثاني

موجة عنف

كيف بدأت قصة الخُطِّ؟

ما هي بالضبط اللحظة التي تحوّل أثناءها من إنسان سويٍّ تمامًا، وعاديٍّ، يَأْمَنُ له النَّاسُ، ويبادلونه تلك المشاعر العادية بين الإنسان والإنسان- إلى كائن يُبادِلُه الآخرون مَشَاعِرَ غَرِيبَةٍ، مشاعر لا تكون إلا بين الإنسان والوحش؟

والمشاعر العادية ليست دائمًا «حَبًّا»، إنها قد تكون كراهيةً، أو حِقْدًا، أو لا مبالاة؛ لكنها تَظَلُّ في إطار العلاقة بين الإنسان والإنسان، بمعنى أن طَرَفَيْهَا يتبادلان علاقاتٍ «بشرية» بين اثنين ينتميان لِنَفْسِ النَّوعِ، لكنَّ الخُطَّ خَلَقَ بينه وبين الآخرين نوعًا غريبًا من العلاقة، طرفاها: التَّجَبُّرُ كَوَحْشٍ من ناحيته، والخَوْفُ الغريب من ناحية الناس. وهكذا تَعَامَلِ النَّاسُ معه كما لو كانوا يتعاملون مع «كائن»، لا ينتمي لدنيا البشر، يخافونه أَبْلَغَ ألوانِ الخَوْفِ، ويَرْهَبُون مُجَرَّدَ ذِكْرِ اسْمِهِ، ويتعاملون معه كظَاهِرَةٍ مُرْعَبَةٍ من ظواهر الطبيعة؛ لا يستطيعون لها صَدًّا، ولا يقدرّون علي مواجهتها.

في لحظةٍ من لحظات إجرامه تحوّل الخُطُّ إلى كائن رهيب، وَطَدَّ إرهابه في الصَّعِيدِ، وَبَتَّ الْقَزَعُ في كُلِّ قَلْبٍ بلا استثناء، لدرجة أن أفراد إحدى نُقْطِ البوليس -في بعض القرى التي اتَّخَذَهَا مَقَرًّا له- كانت تخافه وتخشاه، بل وَتَرْتَجِفُ منه رُعْبًا، حتى أن الخُطَّ أباح لنفسه أن يتجوّل في القرية أمام أفراد قُوتِهَا، فيهربون هم منه، وليس العكس!

حدث في أحد «الموالد» التي أُقيمت في دائرة تلك النقطة أن نزل الخُطُّ ورفيقه أبو الصالحين يتفرّجان، في أثناء تجوالهما صَادِقَهُمَا ضَابِطُ نُقْطَةِ الشُّرْطَةِ وجهاً لوجه، فما أن وقع نظر الضابط على الخُطِّ حتّى أرتجّ عليه، وارتجفت أوصاله، واصفرَّ وَجْهُهُ، ثم سقط مَغْشِيًّا عليه... وَلَمَّا أَسْعَفَ تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَصِيبَ بِسَلْلٍ نِصْفِيٍّ!

وبصرف النَّظَرَ عن الدَّلالات المُتعدّدة لهذه الحادثة (وبعضها يتعلّق بِفِكْرَةِ هَيْبَةِ السُّلْطَةِ، ومدى قُدْرَتِهَا الحقيقية، وليست المُتَوَهَّمة) - فهي تكشف عن طابع العلاقة اللا إنسانية التي أصبحت بين الخُطِّ وبين غيره من البشر، والتي نبحت عن اللحظة التي حَدَّثَتْ فيها.

والعثور في حياة إنسان على لحظة كالتى تتساءل عنها أمرٌ يكاد أن يكون مُستحيلًا؛ فَعَمَلِيَّاتِ التَّحَوُّلِ من هذا النوع عَمَلِيَّاتٌ طَوِيلَةٌ وَمُعَقَّدَةٌ؛ لهذا أن نضبط هذه اللحظة في تاريخ مُعَيَّنٍ، أو أن نُؤرِّخَهَا بِحَادِثٍ مُحَدَّدٍ، وحتى لو كان هذا الحادث موجودًا فالذي لا شَكَّ فيه أن رَدَّ فَعِلِهِ لا يكون انفعاليًا لحظيًا، بل تراكُمَ عُمُرٍ!

فكيف تحوّل محمد محمود منصور، صيَّاد السمك الفقير في قرية درنكة، الشابَّ الصَّعِيدِيَّ الوَسِيمَ، أَرْزَقِيَّ الْعَيْتِينَ، فَصَّيُّ الشَّارِبِ - إلى سَفَّاحٍ يَحْمِلُ اسْمَ «الْخُطَّ»، وَيُرْعِبُ مجرَّدَ ذِكْرِ اسمِهِ كثيرين؛ ابتداءً من أصغر مُوَاطِنٍ في درنكة -بَلَدَتِهِ- وانتهاءً بثلاثة من وزراء الداخلية ورؤساء الوزراء، هم: أحمد ماهر باشا، ومحمود النقراشي باشا، وإسماعيل صدقي باشا.

بل ووصل الأمر إلى أن صاحِبَ الجلالة الملك فاروق قد اهتمَّ بِالْخُطَّ، وتابعَ أخبارَه بِشَغَفٍ حَيِّنًا، وبقلقٍ أحيانًا!

وإذا كان من الصَّعْبِ العُثُورُ على لَحْظَةِ التَّحَوُّلِ الغريبَةِ في حياة الصَّيَّادِ الفقير ضمن تفاصيلِ هذه الحياة؛ لأنه لم يكتب مُذَكِّراتٍ، ولأن حياته العاصفة لم تترك زُؤاءَةً يُرْتَكَنُ إليهم، فليس من الصعب إدراك المناخ الذي أثر فيه؛ ذلك أنه خلال سنوات الحرب العالمية الثانية -وما بعدها- شَهِدَتِ مصرُ مَوْجَةً من العُنفِ لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخها كله، موجة لم تقتصر فحسب على الجرائم الجنائية؛ كالخطف والسرقة والقتل وانتهاك الأعراض، بل تَعَدَّتْ ذلك إلى «العنف السياسي» البالغ، بحيث أَصْبَحَتْ حَوَادِثُ تَسْفِيفِ المباني ودُورِ السينما والمؤسسات الاقتصادية العسكرية التابعة لجيش الاحتلال -مسائلَ عَادِيَّةً، وما أكثر المحاولات التي بُذِلَتْ أياَمَها لِإِزْهَاقِ أرواح السَّاسَةِ المصريين، نجح كثيرٌ منها، وفشل الكثير، وكانت الصُّخْفُ لا تكاد تخلو يومياً من نبأ انفجار قنبلةٍ لم يُمكن العُثُورُ عليها قبل أن تنفجر، في كُلِّ الأماكن، التي تخطر على البال، والتي لا تَخْطُرُ عليه.

كانت تفاهة الحياة في ظلِّ احتلالِ امْتَهَنَ كرامة الإنسان المصري طويلاً، وقد تركّزت في وجدان الناس؛ فزادَ الْإِحْسَاسُ بِمِهَاقَةِ الإنسان وَرِخْصِ تَمَنِيهِ، وكانت السُّلْطَةُ في يَدِ أَقْلِيَّاتٍ سياسيَّةٍ مكروهة، وتفتقد تماماً لأي رصيد من الحُبِّ الشَّعْبِيِّ... سُلْطَةُ مُتَبَلِّدَةِ الْإِحْسَاسِ تجاه مشاعر الناس الجماعية: الأوبئة تنتشر، الملاريا، والحُمَّى، وبعض حالات الطاعون. والنَّاسُ تموت من الجوع -موتًا حَقِيقِيًّا لا مَجازِيًّا-، وفي مقابل ارتفاع الاسعار واختفاء السلع، أُنْزِلَ الْمُضَارِبُونَ وَالْأَقَاقُونَ وَالْمُهَرَّجُونَ، وعرفت الشرائخُ العُليا من الطبقات المالكة جُنُونًا في الإنفاق لم تعرفه طول عمرها، وتَزَتْ شَبَقًا للاستمتاع، والتبديد بسفاهةٍ تاريخية.

وبينما انزلت بنات الأسر «المستورة» إلى هوة البغاء -وكان رسميًا- فتَجَرَّنَ بأجسادهنَّ في أسواق الحرب لياكلن، فمَرَّت فوقها جيوشُ الخلفاء، مُحَقِّقَةُ النَّصَرِ، في حربٍ لم يكن لمصر ناقةٌ فيها ولا جمل. كانت فضائحُ أميرات البيت الملكي تُزَكِّمُ الأنوفَ، وكانت أنباء استيرادهنَّ لفحولٍ بشريةٍ من كلِّ دُولِ العالمِ لإرضاء جنونهنَّ الجنسيِّ تملأ الشَّارعَ المصريَّ.

كلُّ هذا طرح نماذجَ عنيفةً من البَشَرِ، هانتَ لديها حياتها، وهانتَ عليها -بالتالي- حياةُ الآخرين، وطَرَحَ العَذَابُ المصريُّ نفسه خلال عُنْفٍ مُكْتَفٍ ورهيب، وصل إلى درجةٍ من اللُّتُوخُّشِ الفرديِّ، يستوي في ذلك «المقاتل السياسي»، و«اللصُّ»، و«ابن الليل».

ولقد اضطرَّبت ممارسُهُ تلك النِّماذجَ للعُنْفِ اضطرابًا شديدًا؛ فعَبَّرَ هذا العُنْفُ عن نفسه عبر مُنْعَرَجَاتٍ شديدة التعقيد؛ فطاشت أهدافُه كثيرًا، وأصابَتْ كثيرًا. تَوَجَّهَتْ ضِدَّ «الذَّاتِ»، كما تَوَجَّهَتْ ضِدَّ «العدو». ووَجَّهَتْ ضِدَّ المُجرمين، بنفس الدَّرَجَةِ التي وَجَّهَتْ ضِدَّ «الضحايا»، أصبح لصوصُ «الكامبات» (أو المعسكرات) -مثلًا- ظاهرة، انتشروا انتشارًا مُرْعِبًا، يَهَيِّطُونَ على معسكرات الجيش الإنجليزي، فيسرقون السِّلَاحَ والأغذية والأدوات، ويقتلون ويدمِّرون، وكَثُرَتْ محاولاتُ الاعتداء على حياة جنود جيش الاحتلال.

ولم يكن الذين يفعلون هذا كُلُّهم «مُجاهدين»، كان الوطنيُّون من أعداء الاستعمار يَنْشَطُونَ في هذا الاتجاه، لكن اللصوص العاديين كانوا يفعلونه، وكثيرًا ما كانوا يترَبَّصون بجنود جيش الاحتلال فيُفَقِدُونهم حياتهم، ويسلبونهم ما يملكون، وقد يكتفون بالسَّرِقَةِ، دون التفكير في أي جهاد، ويتخصَّصون فحسبُ في سَرِقَةِ «الكامبات»، ونَشُلِ الجنود البريطانيين.

الكِفاحِ كُلِّهَا إِلَى السَّرْقَةِ وَحدها، وَلَا شَيْءَ أَكْثَرَ مِنْهَا، مُكْتَفِينَ مِنَ النَّضَالِ ضِدَّ
الاستعمارِ بِسَلِيهِ مَا يَمْلِكُ.

فِي تِلْكَ السَّنَوَاتِ الْغَرِيبَةِ أَصْبَحَ «اللَّعِبُ بِالسَّلَاحِ» مَوْضِعَ الْعَصْرِ، وَكَانَ
الْخُطُّ مُجَرَّدَ وَاحِدٍ مِنْ آلَافٍ لَعِبُوا بِالْقَنَائِلِ وَالْمُسَدَّسَاتِ، كَمَا لَوْ كَانُوا يَلْعَبُونَ
الْكُرَةَ!

وَمِنْ مَعْسَكَرَاتِ الْحُلَفَاءِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرَضِهَا تَسَرَّبَتْ
الْأَسْلِحَةُ وَالذَّخَائِرُ بِكَمِّيَّاتٍ هَائِلَةٍ إِلَى أَيْدِي الْمَصْرِيِّينَ، جَاءَتْ أحيانًا عَنْ طَرِيقِ
الْأَلْصُوقِ الَّذِينَ كَثُرَ سَطْوُهُمْ عَلَى الْمَعْسَكَرَاتِ، وَأحيانًا عَنْ طَرِيقِ الْجُنُودِ
وَالضُّبَّاطِ الْإِنْجِلِيزِ أَنْفُسَهُمْ، الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ أَسْلِحَتَهُمْ بِأَيِّ ثَمَنٍ، وَكَثِيرًا مَا
كَانُوا يَنْفَقُونَ عَلَى تَهْرِيبِهَا بِالْجُمْلَةِ وَالْقِطَاعِي مَعَ عَصَابَاتِ السَّلَاحِ الَّتِي كَانَتْ
تَضُمُّ خَلِيطًا، مِنَ الْمُجَاهِدِينَ ضِدَّ الاستعمارِ، وَالْأَلْصُوقِ الْعَادِيِّينَ، وَالرَّاعِبِينَ
فِي الْاِسْتِثْمَارِ وَالْكَسْبِ دُونَ مَجْهُودٍ.

وَبَهْزِيمَةِ الْأَلْمَانِ فِي الْمَعْرَكَةِ «الْعَلَمِينَ» وَانْسِحَابِهِمْ أَمَامَ الْجَيْشِ الثَّامِنِ
الْإِنْجِلِيزِيِّ، تَرَكَوا خَلْفَهُمْ تِلَالًا مِنَ الْبِنَادِقِ وَالْمَدَافِعِ الرَّشَاشَةِ وَالطَّلُوقَاتِ النَّارِيَةِ
مُكَدَّسَةً فِي الصَّحَرَاءِ، وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يَحْتَرِفَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ عَمَلِيَّةَ تَهْرِيبِ
الْأَسْلِحَةِ، وَتَكُونَتْ مِنْهُمْ عَصَابَاتُ ثَلَاثِيَّةٍ تَعْمَلُ بِتَنْسِيقِ مُتَكَاوِلٍ؛ الْأُولَى تَحْمِلُ
الْأَسْلِحَةَ إِلَى الْحُدُودِ، وَالثَّانِيَةُ تَعْبُرُ بِهَا مَجَرَى النِّيلِ، ثُمَّ تُسَلِّمُهَا إِلَى مَجْمُوعَةٍ
ثَالِثَةٍ تَضُمُّ غَالِبًا أَفْرَادًا مِنْ «عَرَبِ الْمِشَارِقَةِ»، الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ بَيْعَ السَّلَاحِ
دَاخِلَ الْبِلَادِ.

وَزَادَ الطَّيْنَ بَلَّةً -بَعْدَ الْحَرْبِ- أَنْ شَرَعَتْ قَوَّاتُ الْاِحْتِلَالِ وَحُلَفَاؤُهَا فِي
تَقْصِيرِ خُطُوطِ اِنتِشَارِهَا، وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنْ جَلَّتْ عَنِ الْقَاهِرَةِ وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ
وَالدَّلْتَا، فَرَاخَتْ هَذِهِ الْقَوَّاتُ تَتَخَفَّفُ مِنَ الْأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي تَمْلَأُ مَخَازِنَهَا وَلَمْ
تَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا، فَبَدَأَتْ تَبِيعُهَا فِي الْمَزَادِ الْعَلَنِيِّ، وَعَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ،
وَبَيْنَهَا كَمِّيَّةٌ لَا تُحْصَى مِنَ الْمَدَافِعِ وَالْبِنَادِقِ وَالْمُسَدَّسَاتِ وَالطَّلُوقَاتِ مِنْ
مُخْتَلَفِ الْأَحْجَامِ وَالْأَنْوَاعِ، وَتَنْتِجُ عَنْ هَذَا كُلِّهِ أَنْ أَصْبَحَ السَّلَاحُ أَرْخَصَ السِّلَعِ فِي
مِصْرَ.

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ أَسْعارُ الطَّعَامِ تَرْتَفِعُ إِلَى دَرَجَةٍ اخْتَفَى فِيهَا الْخَبْزُ
يَوْمًا مِنْ أَسْوَاقِ الْقَاهِرَةِ؛ كَانَتْ الْأَسْوَاقُ تَعُجُّ بِالْأَسْلِحَةِ، وَكَانَتْ الطَّلُوقَاتُ
النَّارِيَّةُ تُبَاعُ بِالْكُومِ، بِسَعْرِ خَمْسَةِ قُرُوشٍ لِلْكُومِ الْوَاحِدِ (تَلْ صَغِيرٍ)، وَوَصَلَ
ثَمَنُ الْبَنْدُوقِيَّةِ إِلَى مِائَةِ وَثَمَانِينَ قُرْشًا، فَإِذَا كَانَتْ مِنْ نَوْعٍ جَيِّدٍ ارْتَفَعَ ثَمَنُهَا إِلَى
جُنَيْهَيْنِ. أَيَّامَهَا كَانَتْ الْقَنْبِلَةُ الْيَدَوِيَّةُ تُبَاعُ بِمَلِيمٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ الْمُسَدَّسُ الْكَبِيرُ
بَعِيدَ الْمَدَى بِثَلَاثِينَ قُرْشًا، وَكَانَتْ الْمَوَادُّ النَّاسِيقَةُ الْمُتَفَجِّرَةُ -كَأَصَابِعِ الدِّينَامِيْتِ
مَثَلًا- تُبَاعُ فِي صِنَادِيقٍ، لَا يُكَلِّفُ الصُّنْدُوقُ الْوَاحِدُ مَنْ يَشْتَرِيهِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ

قرشًا، وكانت الصحراء الغربية -فوق هذا- مليئة بكل هذه الأنواع، يعثر عليها المرء فوق الرمال، تنتظر من يجمعها ويستولي عليها.

وكان طبيعيًا أن يجد «العنف» أدواته بعد أن خلق تعقيد الحياة دوافعه: من الفقر والجوع والإحساس بمهانة الحياة وجدَّ العنف دوافعه، وفي رخص السلاح -مع غلاء الطعام- وجد أدواته.

والشيء الغريب والمضحك أيضًا أنه في الوجه المقابل فإن السلطة كانت مُنهارًا انهيارًا غريبًا، فقد تحوّلت عصابات الأثقياء إلى حكوماتٍ فعليّةٍ في بعض المناطق؛ تفرض الإتاوات على الأغنياء وتجبئها منهم، وتُصدّر الأحكام على المُمْتَنِعِينَ عن الأداء، ثم تُنفذ هذه الأحكام في وَضَح النَّهَارِ، وبلّغت قُوَّتها الدّرجة التي جعلت الأعيان وأصحاب النفوذ وأعضاء البرلمان يتحالفون معها ويحمونها، وتحميهم!

وكانت أسلحة البوليس -كما وصفتها صحيفة مُعاصِرَةٌ لهذا التاريخ- لا تصلح إلا للزينة؛ كانت من طُرُزٍ عتيقة، يرجع تاريخ أحدث أنواعها إلى أوائل القرن، فالتبادق من النوع القديم تُعبأ بطلقةٍ بطلقة، وإذا فُرِضَ وانطلقت الرّصاصة ولم تنحسر في الماسورة، فإنها لا تبعد أكثر من أمتار معدودة، وقد أدّى هذا -مع عواجلٍ أخرى- إلى زيادة إحساس أولاد الليل بتفوقهم على رجال البوليس باستمرار؛ فالأثقياء مُزودون بالـ«تومي جن» والـ«لي أنفيلد»، وغيرها من الأنواع التي تُصيب على بُعد ألف متر.

انتشرت حوادث القتل والسلب حتى وصلت إلى حدود القاهرة نفسها، ولا سيّما في الجزء بين «مُسْطَرِد» و«شبين القناطر»، على طول طريق المعاهدة (كان طريقًا حربيًا أيامها)، فقد بلغ مُتوسّط هذه الحوادث ثلاثين حادثةً شهريًا، أي جريمة كل يوم، في ضواحي العاصمة، التي تضم الحكومة، والبوليس، وكل هيلمان الدولة. وتعددت العصابات التي تتشكل من أولاد الليل، وزاد عددها في الصعيد بالذات؛ نتيجة لِفقر الحياة وجديها هناك، فضلًا عن طبيعتها التي كانت تُسهّل عمَل تلك العصابات؛ فهو بعيد عن الحكومة المركزية، وهو مُحاط بالجبل والصحراء، وهناك زراعات الذرة أو «البحر الأخضر»، ثم «الحوض» -أو فترة الفيضان- التي تُحوّل الصعيد إلى جُرُرٍ مُنفصلة يتم الانتقال بينهما بالمراكب الشراعية.

وكان لكل عصابة رئيس يُحيطه أعوانه، ويكنون له الاحترام، وهو الذي يتولى رسم الخطط، ويتولى توزيع الغنائم، وكثيرًا ما كان يحتجز الأكبر منها، وهو ينفق من سبعة، فتتعدد روجائه، ويُقيم الولائم لأعوانه، ويُوزع الطعام على فقراء الأقارب الذين ينقلون إليه ما يهّمه من أبناء البوليس، ويلفتون نظره إلى ما يملكه الأعيان والتجار من ثقود وأمالك. كان عالم أولاد الليل قد أصبح دولة لها كل تقاليد الدول: رسوم، وتقاليد، وتسلسل رئاسي، واحتفالات، حتى

أن «أبو هاشم» -المجرم الجرجاوي الشهير- كان يَنْحَرُ خَرُوقًا كُلَّ يَوْمٍ كضحيّة، وكانت مُعْظَمُ العَصَابَات تُنْسَبُ إلى أسماء شُهَرَةٍ تُطْلَقُ على رُعَمَائِهَا، وهي أسماء يُرَاعَى فيها التّفخيمُ والتّعظيم، ومنها: «البيه» و«الرئيس» و«المدير» و«الشيخ» و«الزعيم» و«العُمدة».

ومعظم أولاد الليل بدأوا بجرائم ثار، تنتهي بأن يُعْتَبَرُ الآخِذُ بِثَارِهِ «طريدَ الحكومة»، وطريدَ مَنْ يطلبون الثَّارَ منه؛ فينتقل إلى الجبل، أو إلى زراعات الدَّرة، ثمَّ يَنْضُمُ إليه الأعوان، وَيَعْقِدُ التَّحَالِفَاتِ، وَيُتَحَوَّلُ بعد هذا إلى النّشاطِ الإجراميِّ البَحْتِ.

والعصابات دَرَجَاتٌ؛ هُنَاكَ قُطَاعُ الطُّرُق، أو «القَشَّاطون»، وهم يَتَرَصَّدون في الطريق الزراعي في انتظار عودَةِ التُّجَّارِ من الأسواق، ومعهم ما يَبْقَى من البضائع (ويُفَضِّلون تُّجَّارَ الأقمشة على غيرهم)، فيَضْعون في الطريق أَحْجَارًا صَخْمَةً، أو قِطْعَ أَخْشَابٍ كَبِيرَةٍ، أو يَشْدُون حَبَلًا غَلِيظًا، فإذا أَقْبَلَ الصَّيْدُ رَاكِبًا على حماره، أو في سَيَّارَتِهِ استقبلوه بالسَّلاح، فهَدَّدوه، وَخَبَرُوهُ بين تسليم النُّقُودِ أو تسليم الرُّوحِ.

وتترقَّى بعض العصابات فتتحوَّل إلى «الخطف»، والإفراج مقابل «دِيّة»، وكانت هذه الجَرَائِمُ تُرْتَكَبُ في موسم «الحيض»، أي موسم القيط، عند ظهور الدَّرة «العويجة»، التي يصل ارتفاعها إلى ثلاثة أمتار، وتَمْتَدُّ مَسَاحَةً زراعتها إلى آلاف الأفدنة، تَصِلُ أحيانًا بين زمام مُدِيرَتَيْنِ أو ثلاث مَدِيرَاتٍ، وفيها يَخْتَفُونَ، وَيَأْسِرُونَ صَحَايَاهُمْ، وفي وَسْطِهَا يَنْصَبُونَ خِيَامًا من الخَيْشِ، وَيُعَدُّون الطَّعَامَ والقهوة والشاي.

وفي الدَّرَجَةِ الأخيرة تنقِلُ العِصَابَةُ إلى الجبال، فتختار عددًا من المغارات تُقيم فيها، وتَعْهَدُ إلى بعض أفرادها بِمَهْمَةِ المُرَاقَبَةِ عند نقاطٍ مُتَبَاعِدَةٍ من الطريق، وإبلاغها عند دُثُوءِ الخطر. ويستتهر بعضُ الرُّعَمَاءِ فيزورون القرى، وقد يُقيمون بها وهم آمنون؛ لأن الأهالي يَتَسَوَّرون عليهم ويخشون الإبلاغَ عنهم، وإذا ما أراد أَحَدُ رُعَمَاءِ العِصَابَاتِ -أو أفرادها- الزَّوْاجَ دَهَبَ إلى دارِ المَآذُونِ، وَعَقَدَ قِرائته عَلَنًا في القرية، وأمام نُقْطَةِ بوليسِها.

والرُّوَايَاتُ عن أصلِ الخُطِّ وكيفية احترافه للإجرام مُتَعَدِّدَةٌ، لكنَّها ليست مُتَنَاقِضَةً؛ فهي جميعًا تدور في إطارٍ واحدٍ ومُتقاربٍ...

وُلِدَ على مشارف العشرينات، وخلال سنوات ثورة 1919 اللاهبة، كان جَدُّهُ قَقيهاً، ومعلِّمَ قُرآن، كان اسمه «سِرَّ الحَتْمَةِ»، و«الحَتْمَةُ» هي القرآن، أي أنه كان «الأمين» على القرآن، وبمضيِّ الأعوام حَذَفَ المُنادون كلمة «سِرَّ»؛ فأصبح اسمُ العائلة «الحَتْمَةُ»، وطَارَتِ التَّاءُ، فأصبحت «الحَتَّ»، وَقُلِبَتِ التَّاءُ إلى طاءٍ لِسَبَبٍ بسيطٍ يَعْرِفُهُ الصَّعَايِدَةُ، ذلك أن «الحَتَّ» (بفتح الخاء) يعني لدى أهل الصَّعِيدِ: فضلات الإنسان والحيوان.

وكان أبرز ما فيه أن عَيْنَيْهِ زرقاوان، وشَعْرُهُ أصفر، وهو نَوْعٌ نادر من الجَمالِ الصَّعِيدِي، وفي طفولته كان أجملَ أخوته وأقواهم، كان رابعَ أخوته الخمسة، وهم: رمضان، والروبحي، وعبد الحكم، والخُط، وأخيرًا توفيق. وقد انتظموا جميعًا في عصابته، وماتوا في صفوفها خلال عامٍ واحد.

وكانت أسرته فقيرةً، فقد كان يشتغلُ مع أخوته في صيدِ الأسماك، وتربية المواشي، واستئجار الأراضي، وتعلم -كمُعظمِ شبابِ الصَّعيد- إطلاقَ الرِّصاص، وبرَّعَ في إصابة الهدف وهو على مَشَارِفِ مُراهقَتِهِ، وهناك شُبُه إجماع على أن الخُط قد بدأ نشاطَه الإجراميَّ بِمَعْرَكَةٍ بينه وبين شَيْخِ خُفراء درنكة (إحدى قرى محافظة أسيوط) -عبد الله محمدين- انقلبت إلى ثار.

وأصلُ الحكاية في بعض الروايات أنه عندما انتهت فترة طفولة الخُط^٤ وبدأ يعمل كُلفَ يرعى أغنام العائلة، وخرَجَ وراءَ الغنم يومًا، فَمَنَعَهُ شَيْخُ الخُفراء من الرِّعي في مكانٍ بَعِيْنِهِ، ولم يَكْتَفِ بِمَنَعِهِ، بل أضافَ إلى المَنعِ صَفْعَةً زَلَزَلَتْ عَقْلَ الغُلامِ الذي كان على مَشَارِفِ الرُّجولة.

في اليوم التالي رَدَّ الخُطُّ الصَّفْعَةَ بِرِصاصةٍ استقرَّت في قلب ابن شَيْخِ الخُفراء، وبرغم أن الشَيْخَ مُوظَّفٌ رَسْمِيٌّ في الحكومة، ووظيفته حِفْظُ الأمن، فإنَّه لم يُبلَغِ البوليسَ بِحادثِ مَقْتَلِ ابنه، ولكنَّه رَدَّ الرِصاصةَ للخُط، فاستقرَّت في قَلْبِ محمود، عم الخُط، وأكْبَرُ أفرادِ عَائِلَتِهِ، وفي خلال أسبوعٍ واحدٍ كان الخُط قد قَتَلَ تِسْعَةً من عَائِلَةِ شَيْخِ الخُفراء؛ كل ثلاثة في ليلة، وخرج مع أخوته إلى الجبل، ووُلِدَ ابنٌ جديدٌ من «أولاد الليل»...

بعضُ الرُّوَاةِ يُدْخِلون على هذه الحادِثَةِ تَعْدِيلًا بسيطًا؛ إنهم يقولون إن الخُط بدأ حياته الإجرامية في أوائل الحرب العالمية الثانية، إذ كان يرعى المواشي في الجبل مع بعض أصدقائه، فشاهدوا عددًا من المُجَنَّدات الأمريكيات، فاعتدوا عليهنَّ، وسرقوا ما مَعَهُنَّ، فَأَبْلَغَ عنهم شَيْخُ الخُفراء، وأرسلهم إلى مُعْتَقَلِ الطور إلى أن يُحْكَمَ عليهم، ولجأ أهلُ الخُط إلى نائِبِ وفديٍّ -في عهد الوزارة الوفديَّة- فنَجَّحَ في إعادته إلى بلدته درنكة، مَوْضوعًا تحت المُرَاقَبَةِ العسكريَّة، وتذهب هذه الراوية إلى أن شيخ خُفراء درنكة كان دقيقًا -إلى درجة التَعَنُّت- في تنفيذ الرقابة العسكرية على الخُط، وأن هذا قد دَفَعَهُ إلى الحقد عليه؛ فقامت بينهما مُناوِشاتٌ انتهت بهروب الخُط من المُرَاقَبَةِ، ومحاوَلَتِهِ قَتْلِ أحد الأهلِي من أقارب شيخ الخُفراء؛ فَأَخَذَ البوليسُ يُطارِدُهُ، وطالبت أسرُهُ شيخ الخُفراء بثأرها، واشتدَّت المعارك الدَّامِيَّة، فقتل الخُط خلال عامَيْن تسعة أشخاص، من بينهم أقارب لشيخ الخُفراء، وقُتِلَ خلالها من أقارب وأنصار الخُط سَبْعَةُ أشخاصٍ، من بينهم شقيقاه: رمضان وعبد الحكيم.

وهناك رواية ثالثة لا تختلف في مضمونها عن الرواية الأولى، وهي تقول إنَّ الخُطَّ بدأ حياته فلاحًا أجيرًا في بلده درنكة، من أعمال مركز أسيوط، وأَنَّهُ اقْتَصَدَ من أجره بضعة قروش، وتَوَجَّه إلى السُّوق ليشتري رَطَلًا من اللحم، فاختلَفَ مع الجَزَّار «أبو هاشم» على الميزان؛ فطَرَدَه الجَزَّار قائلاً:

- روح شوف لك كلب ادبحه وكلِّ لَحْمُهُ أحسن.

ورأى الخُطَّ أن هذه إهانة لا يمكن عَسْلُهَا إلا بدم الجَزَّار سَلِيطِ اللِّسان، وببساطةٍ اختطفَ نَفْسَ السَّكِينِ التي كان الجزار يستخدمها، وبَقَرَ بها بَطْنَهُ، وشَهَرَهَا في وجه الجالسين، مُحَدِّثًا مَن تُسَوِّلُ له نفسه بالتَّدخُّل، ثم انطلق إلى الجبل، ليصبح واحدًا من أولاد الليل.

والرواية الأولى هي المُعْتَمَدَة، غير أن هناك تعديلًا بسيطًا على بدايتها، فالأرجح -على حَدِّ روايةٍ رشيدة زوجة الخُطَّ- أنه بدأ حياته بدايةً عاديةً تمامًا، واحدًا من ملايين الناس الذين يعيشون في حالهم، وجرى على رزقه من خَيْرِ التِّل، كصَيَّادٍ سَمَكٍ فقيرٍ، ربما لأن الأرض ضاقت به؛ لأن الكبار كانوا قد أكلوا كُلَّ خَيْرِهَا.

ويومًا وهو يصطادُ من بِرَكَةٍ في درنكة تَسْلِلُ أحدُ أطفال شيخ الخُفراء، وأخذَ يَعْثُثُ بما اصطاده من سَمَكٍ، فَتَهَرَّه الخُطَّ، وَمَنَعَهُ، فَذَهَبَ الطِّفْلُ بِأَكْيَا لَأبيه، وعَزَّ على شَيْخِ الخُفراء الجَبَّار المُتَكَبِّرُ أن يَنْهَرَ كَائِنٌ لا مَعْنَى له مثل محمد محمود منصور- ابنه العزيز، وبِعَصِيَّةٍ شديدةٍ هَوَتْ على وَجْهِهِ بِالصَّفْعَةِ التي حَوَّلَتْهُ من صَيَّادٍ سَمَكٍ إلى صَائِدٍ بَشَرٍ، والتي دَفَعَ الصَّعِيدُ كُلَّهُ تَمَنَّاها لِفِتْرَةٍ تَصِلُ إلى سَبْعِ سنوات...

وفي الفترة الأولى من احترافه للإجرام، طَلَّتْ جرائمه تدور في إطار واحد؛ هو الثَّار من شيخ الخُفراء وأسرته، ويومًا عَلِمَ (من عُيُونِهِ وَجَوَاسِيْسِهِ الذين بَنَتهُمْ حَوْلَ أَسْرَةِ الشَّيْخِ) أن ثلاثةً منهم ذهبوا إلى «أبنوب» لاستئجار أعرابيٍّ لِقَتْلِهِ، فليُنْتَظَرَهُم في الطريق بين أسيوط ودرنكة، وبمَجَرَّدِ أَنْ لَمَحَ السَّيَّارَةَ التي تُقْلَهُم استوقفها، وأنزَلَ أَقَارِبَ شَيْخِ الخُفراءِ الثلاثة، وأطلق عليهم الرِّصَاصَ فَقَتَلَهُم، ثُمَّ سَمَحَ لِلسَّيَّارَةِ بِاسْتِنَافِ سَيْرِهَا.

وانقلبت حياته تمامًا...

وسواءً صَحَّتْ روايَةُ «الجَزَّار» أم «رواية الصَّفْعَةِ»، فإنَّ نشاط الخُطَّ الإجرامي كان نَوْعًا من «العُنْفِ المُرْتَدِّ»، وكانت مصرُ أيامها تَفِيضُ بهذا العُنْفِ المُرْتَدِّ؛ ذلك أن الحياة كانت قَاسِيَةً أَبْلَغَ القَسْوَةِ، وتكاد تكون بلا تَمَنٍّ، وكان لا بُدَّ من مُوَاجَهَتِهَا (تلك الحياة) بهذا اللون من الاستهانة، ولعلها كانت رَغْبَةً دَفِينَةً في القَضَاءِ على حياةٍ بلا قِيَمَةٍ. بَعْضُ العُنْفِ ارتدَّ إلى الذَّاتِ، قَدَّمَ كَثِيرُونَ أَنْفُسَهُمْ في الخمر والمُخَدَّرَاتِ والجِنْسِ، وبعضه ارتدَّ إلى نفس

العناصر والشرائح المَطْحُونَة، التي تُعاني من القَهَرِ والفَقْرِ والضَّيَاعِ، وَوَجَّهَ آخرون عُنفَهُم إلى المُحْتَلِّ وعساكِره وعُمَلائِهِ، من سياسِيِّين ومُهِزَّجِينَ.

ولأنَّه مُطَارَدٌ ومَطْلُوبٌ في ثأر فهو لا يستطيع أن يعيش كَكُلِّ الناس؛ إنه لم يَعدْ قادِرًا على الذَّهابِ إلى النيل للصيد، ولا إلى السوق للبيع، وإِذَا فلا بُدَّ من مَوْرِدٍ لِلرِّزْقِ؛ مَوْرِدٍ يُمَكِّنُه من الحياة ومن الصُّمُودِ في معركة النَّارِ، ومن اصطناع الأَعوانِ، وتسريح الجواسيس.

وكان اسمه قد اقترن بالجرأة والشَّجَاعَةِ والإقدامِ، وأكَّدَتْ انتصاراتُهُ الحاسِمَةُ على عبد الله محمدين، وأسرته، أَنَّهُ إذا قال فعل، وأن رصافته تحمي كَلِمَتَهُ، وتُجْبِرُ الكُلَّ على احترامها..

وذات يوم أَقْتَعَه شَقِيقُهُ رمضان بأن يكون ابن ليل... صحيح؛ لماذا لا يكون ابنَ ليل؟

الفصل الثالث

أبناء لِكُلِّ شَيْءٍ

صحيح... لماذا لا يكون ابن ليل؟

كانت مصر -أيامها- مليئةً بأبناء لكلِّ شيء، كان هناك «أولاد الأغنياء»، و«أولاد الفقراء»، و«أولاد جميعاً ألفت مسرحيات ومثّلت أفلام... أمّا «أولاد الكلب» فإن أحداً لم يجسُر على أن يؤلف عنهم شيئاً... ولا حتى أغنية؛ لأنهم كانوا سببَ المأساة وأصلَ الكارثة، وربما كان مُحتمّاً مع هذه الأنواع من الأبناء أن يكون هناك أيضاً «أولاد الليل».

وأكثر من أي مكان آخر، فإن الصعيد كان أرض هؤلاء؛ فهو مُوهَّلٌ لذلك أكثر من أي بقعة أخرى في مصر؛ فقد كان مليئاً برجال يملكون قُرَى بأكملها، وملايين لا يملكون «بوصة» من الأرض، حتى ولا قبراً يُدفنون فيه إذا حُمَّ القضاء- وطبيعة غريبة: قحط، وفقْر، وقِيْطُ، ومياهُ تَغْمُرُ الزَّرْعَ والبيوت في موسم «الحوض» أو الفيضان، ووابورات للرّي، وجُرُرٌ في مَجَرَى النيل تبدو كالقلاع الصّامدة، وأوبئة مُعظّمها من الجُوع؛ الجوع الحقيقي، وليس المجازي، حيث تَفْرُغُ المَعِدَةُ تماماً من أي شيء، وتتحرك الأمعاء حركتها اللولبية، ولا يسدُّ جوعها لعابُ سائل...

من الفقر والغَيْظِ تولدت قسوة المالكين في الصعيد، تولدت بالتالي نوع خاص من الغُنفِ المُرتدِّ، كان الصّعيديُّ (وهو ابن «الشّقاء الطبيعي») شديد الاعتزاز بذاته، شديد التّحمُّل للجهد، إنه جنسٌ وصفه الأستاذ يحيى حقي يوماً بأنه «يُحِيلُ العَمَلَ من قوره إلى وقْدَةِ الحُمَى، يُشْبِهُ التَّمَلَّ في دأبه وتَبَعُثِرِ أفرادِه وانتظامِ مجموعته معاً، إذا كان لا مَفَرَّ من «الحَرْقِ» فَعَيْبٌ أَنْ يَصْدُرَ من حلوقهم إلا مُتَسَتِّراً في تَرْجِيعِ جَماعِيٍّ لمقطع في أغنية يُنشدُها واحدٌ منهم... لقد طَوَّفْتُ في بِقاع الأرض قَلَمٌ أَجِدُ للصّعيديِّ نِدَاً في تَحْمُلِهِ للجهد». ورُبّما كان هذا «الاعتزاز بالذات» ضرورةً يلجأ إليها الصّعيديُّ لحماية نفسه من الانهيار الذي لا بُدَّ حادِثٌ له لو استسلمَ لظروفِ حَيَاتِهِ القاسية. إن الصّعيديَّ الذي يَعْتَبِرُ «التَّأَوُّة» (عند الألم) عَيْباً، و«الحَرْقَ» عند بَدَلِ الجهدِ مَسَبَّةً- لا يُمكنُ أَنْ يَقْبَلَ صَفْعَةً على الوجه من عبد الله محمدين، حتى ولو كان شيخَ الحُفراء وابنَ ناس.

وفي مُواجهَةِ أبناء النَّاسِ وأبناء الدَّوَاتِ كان أولادُ اللَّيْلِ...

والليل في الصعيد كائنٌ مُتَوَحِّشٌ؛ فهو -كما وصفه يحيى حقي أيضاً- «سَجَانٌ، له يَدٌ سَوْدَاءُ تُغْلِقُ الأبوابَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، على الإنسان

والحيوان». وهناك الجبال التي تُحيط الوادي، مَلِيَّةٌ بالمَغَارَاتِ الْمُتَعَدَّةِ؛ كهوفٌ تَجْعَلُ مَنْ يَتَحَصَّنُ بِهَا فِي أَمَانٍ بِاسْتِمْرَارٍ...

ومن عَمَلِيَّاتِ الْأَخْذِ بِالنَّارِ تَشَأُّ أبنَاءُ اللَّيْلِ، وَتَكُونُ عَصَابَاتُ مُتَعَدَّةٍ مِنْهُمْ؛ تَسْرِقُ وَتَخْطِفُ وَتَقْتُلُ، وَتُطَالِبُ بِالنَّارِ، وَتُطَارِدُ بِهِ؛ يُسَمُّونَهُمْ «المطاريد» أو «أولاد الليل»؛ فَقَدْ كَانُوا يَقِيمُونَ نَهَارَهُمْ فِي الْجَبَلِ، وَيَهْبِطُونَ مَعَ اللَّيْلِ إِلَى الْقُرَى وَالْمُدُنِ، يَقْتُلُونَ، أَوْ يَخْطِفُونَ، أَوْ يَشْتَرُونَ زَجَاجَاتِ «العَرَقِي» وَكَمِّيَّاتِ الْأَفْيُونِ، أَوْ يَنَالُونَ مُتَعَةً سَرِيعَةً فِي أَحْيَاءِ الْبِغَاءِ، وَكَانَتْ مُنْتَشِرَةً آنَ ذَاكَ رَسْمِيًّا فِي كُلِّ مُدُنِ الصَّعِيدِ الْكَبْرَى.

وَأَصْبَحَ أَوْلَادُ اللَّيْلِ ظَاهِرَةً؛ أَصْبَحَ لَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَنْعَةِ وَاحْتِرَامِ الْكَلِمَةِ مَا لَمْ يَكُنْ لِحُكُومَاتٍ تَفْتَقِدُ لِلْاحْتِرَامِ، وَكُونُوا -عَلَى مَدَى الزَّمَنِ- تَقَالِيدَهُمْ وَعَادَاتِهِمْ، فَقَدْ كَانَ مُعْظَمُهُمْ يَكْفُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْفُقَرَاءِ وَالصَّعْفَاءِ، كَانَ صَغَطُهُمُ الْأَسَاسِيُّ عَلَى الْمَالِكِينَ، وَالَّذِينَ لَدَيْهِمُ الْمَالُ أَوْ الْقُوَّةُ.

وَالشَّيْءُ الْغَرِيبُ فِي ظَاهِرَةِ أَوْلَادِ اللَّيْلِ هُوَ هَذِهِ الْعِلَاقَةُ الْوَثِيقَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْيَانِ الصَّعِيدِ وَأَثْرِيَائِهِ، وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ يَعْشُونَ فِي حِمَايَةِ الْأَعْيَانِ وَالْأَثْرِيَاءِ، أَوْ يَنْتَمُونَ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ يَعَادُونَهُمْ، فَالْمُهْمُ أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ عِلَاقَةٌ مَا تَرْتَبُطُ بَيْنَ «أَوْلَادِ اللَّيْلِ» وَ«أَوْلَادِ الْاَغْنِيَاءِ». أَحْيَانًا يَسْتَعِينُ أَحَدُ الْأَثْرِيَاءِ بِشَقِيٍّ أَوْ «ابْنِ لَيْلٍ» فِي الْهَجُومِ عَلَى مُنَافِسٍ لَهُ؛ يَقْتُلُ زَرَاعَتَهُ، أَوْ يَسْمُمُ مَا شَبَّهَتْهُ، أَوْ يَقْتُلُهُ هُوَ أَوْ قَرِيبًا لَهُ، أَوْ أَحَدَ أَعْوَانِهِ، وَمُقَابِلُ هَذَا فَإِنَّ الثَّرِيَّ يَحْمِي ابْنَ اللَّيْلِ، وَيَأْوِيهِ، وَيُبْلِغُهُ تَحَرُّكَاتِ الْبُولِيسِ، وَيُرَوِّدُهُ بِالْأَفْيُونِ، وَرُبَّمَا بِالنِّسَاءِ.

وَفِي مُعْظَمِ التَّقَارِيرِ الرَّسْمِيَّةِ الَّتِي كُتِبَتْ عَنْ أبنَاءِ اللَّيْلِ شَكَى الْبُولِيسُ مِنْ أَنَّ الْأَعْيَانَ يُعْرِقِلُونَ مَجْهُودَهُ فِي الْقَبْضِ عَلَى الْأَشْقِيَاءِ، بِإِخْفَاءِ هَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءِ فِي مَزَارِعِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ.

وَنَظَرًا لِأَنَّ الْهَجُومَ (هَجُومَ الْبُولِيسِ) عَلَى بِيُوتِ «أبنَاءِ الْبِيُوتَاتِ» كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنْ حَرَجٍ؛ فَإِنَّ الْأَشْقِيَاءَ كَانُوا يَجِدُونَ دَائِمًا فُرْصَةً لِلْفِرَارِ، لَيْسَ هَذَا فَقَطْ، بَلْ إِنْ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْأَعْيَانِ كَانَ عُضْوًا فِي الْبَرْلَمَانِ، وَمُتَمَتِّعًا -تَبَعًا لِهَذَا- بِالْخِصَاةِ الْبَرْلَمَانِيَّةِ، وَلَا يَجُوزُ الْهَجُومُ عَلَى مَنْزِلِهِ دُونَ إِذْنِ سَابِقٍ مِنْ مَجْلِسِ النُّوَابِ.

لَقَدْ كَانَ «أَبُو هَاشِمٍ» -مَثَلًا- وَاحِدًا مِنْ أَعْتَى أَوْلَادِ اللَّيْلِ فِي الصَّعِيدِ، كَانَ نَشَاطُهُ الْإِجْرَامِيَّ يَتَمَرَّكُزُ فِي مَدِيرِيَّةِ جَرَجَا، وَكَانَ كُلُّ مُدِيرٍ جَدِيدٍ يَتَوَلَّى شُؤُونَهَا يَعْتَبِرُ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبَاتِهِ هُوَ الْقَضَاءُ عَلَى «أَبُو هَاشِمٍ»، وَلَكِنَّ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَمْ يُحَقِّقْ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةَ، كَانَ بَعْضُهُمْ يَظْفِرُ بِهَذَا أَوْ ذَاكَ مِنْ أَعْوَانِهِ، أَمَّا الرَّأْسُ الْكَبِيرُ نَفْسُهَا فَظَلَّتْ عَزِيزَةً عَلَى السَّادَةِ الْمُدِيرِينَ. وَمَرَّةً دُعِيَ سَعَادَةُ الْمَدِيرِ الْجَدِيدِ لَجَرَجَا إِلَى مَادْبَةِ أَقَامِهَا لَهُ أَحَدُ أَعْيَانِ الْمَنْطِقَةِ فِي قَرِيَّتِهِ، وَدُهِشَ الْمَدِيرُ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتِي لَا مَنَاسِبَةَ لَهَا، وَلَكِنَّهُ أَجَابَهَا؛ مِنْ بَابِ الْحِرْصِ عَلَى

الودّ بينه وبين الأهالي مسموعي الكلمة، واسعي النفوذ في مديريّته، وقُدّم الطعامُ الشهيّ؛ فأكلَ المديرُ حتى شَبِعَ، ثم قُدّمت القهوة، وأصبح الجوُّ مُهيئاً للتَّبَسُّط في الحديث، وباعِثًا على السَّمر، وقال المدير لمن استضافوه:

- أنا لا أَصدّق أن «أبو هاشم» هذا شخصيّة حقيقيّة، ولن أَصدّق إلا إذا رأيته.

وضحك المضيفون بطريقةٍ دَقَعَت الباشا المديرَ لِسؤالِهِم -دَهْشًا- عَمَّا يدفعهم للصَّحك، وألَحَّ في ذلك عندما تَكَرَّر الصَّحكُ مَصحوبًا بِعَمَزاتٍ خَفِيّةٍ بين أفراد الأسرة الكبيرة لداعيه، وأخيرًا قال أحدهم:

- إن «أبو هاشم» هو الذي طلب أن يرى سعادتك؛ ولهذا أقمنا هذه المأدبة، وهو بعينه الرَّجُلُ الذي قَدّم لك القهوة منذ دقائق...

إلى هذا الحدّ كان التواطؤ والتَّحالف، ولهذا لم يكن غريبًا أن يَعْتَبِرَ «أبو هاشم» نفسه من المُشتَغِلين بالسياسة؛ فقد دخل بحرّها الواسع، وكان هناك اثنان من شيوخ المنطقة يتنافسان على عضويّة مجلس الشيوخ، هما: عبد الله فواز وأحمد أبو رحاب، وقد استعان الثاني به في جمع الأصوات، وتهديد أهل القرى المؤيَّدة لمُنافِسيه، لدرجة أنه زار يومًا إحدى القرى التي كانت معروفةً بِتَحِيّزِها للشيخ فوّاز، فَهَدَّاهُمْ إذا لم يَعْدِلُوا عن مَوْقِفِهِم ويؤيِّدوا «أبو رحاب»، وقال لهم:

- لقد جِئْتُ زائرًا، وسَتَقَابِلُ بعد قَتَحِ صناديق الانتخاب...

على أن التَّحالف بين أولاد الليل وأولاد البيوتات كان يدور في إطار الصراع بين أولاد البيوتات؛ ولهذا فإنَّ الصِّراعَ ضدَّ أولاد الليل كان صِراعًا مُعَقَّدًا؛ فمن ناحيةٍ فإنَّ الجُموعَ الغَفيرة من الفقراء، الذين لا ظَهَرَ لَهُم، قد وَقَّعت على الجِياذ في هذا الصِّراع، ولم تُقدِّم مَعَوَّتَها للبوليس؛ خَوْفًا من أبناء الليل؛ من بَطْشِهِم من ناحية، وأملًا في عطاياهم من ناحيةٍ أخرى، وعَدَمِ استشعارٍ للعَداءِ تَجاهَهُم في كُلِّ الأحوال.

وقد حدث مرّةً خلال شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1947 أن كان البوليس يُطارِدُ عِصابةَ «الأعمى»؛ أخطر أبناء الليل في مركز أخميم، وكان مُتَحَصِّنًا في زراعة دُرّة، في زمام بَلَدِهِ «الصوامعة»، وحاصَرَ البوليسُ أَمَاكِنَ الجُنَاةِ فَلَمْ يَعُثِرْ عليهم، إلا أنه وَجَدَ داخلَ حقول الدُرّةِ «طِشْت» من النُّجاس، وسَلَتَيْنِ بهما ملايسُ وأدواتٌ منزليّة، وخَبُرُ، وأوراق، وشَهادَةُ ميلادٍ تَدُلُّ على أن هذه الأشياء لزعيم عصابة «الأعمى»، كما وجد بالمكان آثارَ أقدام غير ظاهرة، وعُيِّنَت قوَّة من الصُّباط والعساكر والخبراء لحراسة هذه الآثار والمُحَاقَظَةِ عليها، واستُدْعِيَ الكلب البوليسي «رهيب» ليشمّها؛ تَمهيدًا لمُطارَدَةِ العصابة، وكانت المفاجأة في اليوم التالي عند إحضار الكلب

البوليسي أَنَّ الآثارَ قد مُجِيتَ تَمَامًا... لقد أغرق أهالي الصوامعة زراعة الدَّرة،
ومساحاتٍ واسعةٍ حولها من الأراضي من أُمَكِيَّةٍ حَفِيَّةٍ بعيدَةٍ عن أعين
الحُرَّاسِ، وهَرَبَ «الأعمى»!

كان ذلك هو عالم أولاد الليل الذي انضمَّ إليه الخُطُّ.

لقد صعد الخُطُّ إلى الجبل، وتَبِعَهُ أخُوُّهُ الأربعة، وتَبِعَهُ كثيرون: طُلابُ ثَأر،
وطُلابُ مَنَفَعَةٍ، وهاربون من أحكام، وفارُّون من شَقَاءِ الحياة، وباحثون عن
المُغامَرَةِ لِمُجَرَّدِ المُغامَرَةِ... كان مَنَهم أَحْمَدُ جَابِر؛ وَاحِدٌ من أخطر رجاله،
وأبو الصالحين؛ «كلبه الأمين»، وكَشَّافُهُ الذي لم يكن يَشْتَرِكُ في العَمَلِيَّاتِ،
وإنما يَتَجَسَّسُ على البوليس، ويُعَايِنُ مَسَرَّحَ العَمَلِيَّاتِ، ويجبي الإتاوات فقط.

كان البَحْرُ في مَمْلَكَةِ اللَّيْلِ مَلِيًّا بِالأسماك الكبيرة، والحيتان الضَّخْمَةِ،
هائج الأمواج نتيجةً للصَّراعِ الحَادِّ والمُسْتَمِرِّ بين أولاد الليل على السيطرة
والنفوذ والرَّعَاة...

صراعٌ يَنشَأُ عَادَةً بين مَنْ يَمْتَهِنون نفسَ المهنة، حتى ولو كانت «القتل»،
ويَتَرَكُزُ ويزداد حِدَّةً بطبيعة حياة المطاريد وما بين أصدقائهم الأعيان من
مُنَاقَسَاتٍ ومُشَاجَرَاتٍ على أغراض الدُّنيا الباقية، والزَّائِلَةِ...

وكان من أشهر الأسماء في عالم الإجرام الصَّعِيدِيَّ (وخاصَّةً في أسيوط)
اسمان: الشيخ عَوَّاد صالح، وأحمد عبد الغفار.

فيما بعد، أصبح الشيخ عَوَّاد هو عقل الخُطِّ المفكِّر، ورَاسِمُ خُطَطِهِ
العَبْقَرِيَّةِ، ولو لم يتحالف الخُطُّ مع عَوَّاد فلزُبَّما كانت حياته أقصرَ عُمُرًا، وأكثرَ
عُنْفًا؛ فعندما امتزجت حياتهما وتوحد مصيرُهما، أضفى عِيَادُ شَيْئًا أساسيًا على
نشاط الخُطِّ الإجرامي.

قبل عَوَّاد كان الخُطُّ عُنْفًا هَائِجًا، وجرأةً طَائِشَةً، وانقضاءً لا يَعْرِفُ
التَّراجُعَ.

ومعنى هذا أنه كان مُجَرِّمًا «انفعاليًّا»، تَتَحَكَّمُ فيه عواطفُهُ، وكانت مَيَازِينُهُ
الفَائِئِقَةُ هي شجاعته وقُدْرَتُهُ على المُبَاعَثَةِ، لكنَّ عَوَّاد جاء فَتَنَظَّمُ هذا العُنْفَ،
وَحَطَّطَ لَهُ؛ فَمَنَعَ الخُطُّ من المُغامرات التي قد تقضي على العصاة، أو
تستدرجها إلى العَمَلِيَّاتِ الانتحارية.

كان قد بدأ حياته قَلَّاحًا عَادِيًّا في إحدى القرى التابعة لمركز «أبو تيج»، بقرية اسمها «بني سميع»، وَلَدَ قبل الحُطِّ بحوالي سبع سنوات، وعاش حياةً عَادِيَّةً في أَوَّلِ صباه ومَطْلَعِ شبابه، إلى الدَّرَجَةِ التي جعلته يَتَّجِهْ إلى الأزهر، حيث درس فيه عِدَّةَ سنواتٍ، ولو استمَرَّ لأصبح «صاحب الفضيلة»، يتبرَّك النَّاسُ بِتَقْبِيلِ يَدِهِ، ويهتدون بفتاواه، ويأتمُّون به في الصلاة، لكنه فشل في الدِّراسة وعَادَ من القاهرة إلى «بني سميع»، يحمل في رأسه قشورًا من العِلْمِ، يستخدمها في تبرير الإِجرام... وكعادة أمثاله، تزوَّج وعاد للعمل في

الزراعة، ثم نشب خلافٌ ماليٌّ بينه وبين أصهاره، وانتهى هذا الخلاف بأن رفع عَوَّادٌ بُندقيَّته وقتل واحدًا منهم، وبدأت دائرةُ النَّارِ المُتَّصِلَةِ في تَصَاعُدِهَا اللُّوْلَبِيِّ وَالْحَتْمِيِّ.

ومنذ أوَّل لحظة تَمَيَّزَ عَيَّاد بنوع من القسوةِ البَالِغَةِ، والتَّصميمِ العقليِّ البارد؛ وهو ما جعله مُخْتَلِفًا عن الخُطِّ؛ الأهوج، الانفعالي، الذي يرفع المُسَدَّسَ ويضغط على الزناد، ثم يَعْدِلُ عن القتل بسبب تَظَرُّفٍ دَلِيلَةٍ في عين ضَحِيَّتِهِ، والذي يغلي الدَّمُ في رأسِهِ؛ فتتحرَّك أصابعه على الزناد دون تفكير، لكن عَوَّاد لم يكن كذلك؛ كان عَقْلًا باردًا في قسوته، يُخَطِّطُ في بُطْءٍ وأتأةٍ، ثُمَّ يُنْفِذُ بهدوءٍ وكأنَّه يَتَنَزَّهُ أو يأكل، وقد وصلت قسوته إلى درجة لا يُمكنُ تَصَدِيقُهَا؛ ففي حُمَّى معارك النَّارِ التي تَشَبَّثَ بينه وبين أصهاره قَتَلَ خَمْسَةَ منهم خمسَ لَيَالٍ مُتَّصِلَةٍ؛ كان يَطْرُقُ البابَ لَيْلًا، وبمَجَرَّدِ أن يفتحه له أحدُهم يُطْلِقُ عليه بُندقيَّته، وليس مُهمًّا مَن الذي تَلْقَى الرَّصاصةُ: طفلٌ أو امرأةٌ أو رجلٌ أو عجوز- فعل هذا أكثرَ من مرَّةٍ، فأطلق بُندقيَّته على أطفال ونساء ورجال، المفروض أنهم جميعًا من أصهاره وذوي رَحِمِهِ.

وفيما بعد، وعندما غادر عَوَّاد عالمَ الإِجرام، كان في عُنُقِهِ أربعون جَنَايَةً قَتَلَ، أدين في بَعْضِهَا غِيَابِيًّا، وَصَدَرَتْ ضِدَّهُ أَحْكَامٌ بالأشغال الشاقَّة، مَجْمُوعُهَا نِصْفُ قَرْنٍ، فقط لا غير!

وَتَبِعَهُ أيضًا ابن أخ لَهُ اسمُهُ محمد تَمَّام، وكان في العشرين من عُمرِهِ؛ تَبَتُّهُ عَصَّةُ في عالمِ الإِجرامِ جَرِيءٌ، مُنْدَفِعٌ، قاسي القلب، حاز إعجابَ عَمِّهِ، واعتبرته العِصَابَةُ فتَاها المُدَلِّلَ، وَوَلِيَّ عَهْدٍ رَعِيمَهَا، الموهوب.

وانتشرت «عصابة عواد»، وفرضت إرهابها على الصعيد كله. كانت عصابةٌ شُمُولِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ النَّشَاطِ، تَرْتَكِبُ كُلَّ أنواعِ الجرائم: تَقَطُّعُ الطَّرِيقِ، وَتَقْتُلُ وَتَسْرِقُ المَوَاشِي، وَتُسْتَأْجِرُ لِلْقَتْلِ. وَصَعَتِ العِصَابَةُ تسعيرةً خَاصَّةً للإِطَاةِ بالرُّؤُوسِ. كانت على استعدادٍ دَائِمًا لكي تَأْخُذَ بِثَارٍ مَن تُعَوِّزُهُ ظُرُوفُهُ، أو تُخَلِّصُ أَحَدَ الأَثْرِيَاءِ من مُنَافِسٍ لَهُ، أو عَدُوٍّ يَخْشَى بَاسَهُ، أو مُتَمَرِّدٍ يَسْعَى لِنَاقِيَتِهِ؛ كانت التسعيرةُ مُتَهَاوِدَةً، فَاسْتِئْصَالُ رَأْسِ الإنسانِ عَمَلِيَّةٌ تقومُ بِهَا العِصَابَةُ بما لا يزيد عن خَمْسِينَ جَنِيَّةً، لَكِنَّهَا لم تَكُنْ تَقِلُّ عن عَشْرِينَ على أية حال، وما يُحَدِّدُ الثَّمَنَ قِيَمَةُ الصَّحِيَّةِ، وقِيَمَةُ المُسْتَأْجِرِ.

واشتهر عَوَّاد -شأن كُلِّ زملائه- برجال الأمن بالإدارة، وبالناس جميعًا، كان يَفْرِضُ إِتَاوَاتِهِ على الناس، فإذا عجزوا عن دَفْعِهَا تَقَدَّا حَجَرَ على جزءٍ مَحَاصِلِهِم الزراعيَّة، بما يُعَادِلُ قِيَمَةَ الإِتَاوَةِ، فيتركون له المَحْصُولَ في الأرض دون أن يَجْزَوْا واحدٌ منهم على أن يُنْقِصَ منه شيئًا، حتى يجِثِرَ عَوَّادُ نفسه، أو يرسل بعضَ أعوانه فيأخذوا المَحْصُولَ ويبيعوه عِلْنًا، وَيُسَلِّمُوهُ ثَمَنَهُ.

وكانت جرأته من النوع الوقح، ووصل به الأمر إلى أنه كان يهبط إلى بندر أسيوط، ويغشى دار السِّينما الوحيدة، أو يتردد على الملاهي والأفراح في المدينة، دون أن يجزؤ أحد على الوشاية به أو الإشارة إليه، ليس هذا فقط، بل إنه كان قد استهان تمامًا بالبوليس، فدخل مرة دار السينما، وجلس في «بنوار» وحوله بعض أعوانه، وفي البنوار المجاور له كان سعادة حكمدار المدينة يجلس هو وأسرته، وتجاهل الحكمدار تمامًا أن الجالس في البنوار القريب منه واحد من أشهر «المطاريد»، مطلوب القبض عليه، وصار ضدّه أحكامٌ جُمِلَتْها نصفُ قرنٍ فقط من الزمان، طبقًا لقانون أصدرته السُّلطة التشريعية، وقصّت بنصوصه السُّلطة القضائية، وطالبت بتنفيذه السُّلطة التنفيذية.

وهكذا كان جلوس عوّاد، طالب الأزهر الفاسد، وابن الليل المُطارِد، في البنوار المجاور لسعادة الحكمدار في أسيوط، وأمام كلِّ الناس - بُرْهَانًا واضحًا على أن الدَّولة شاخَت، أو بمعنى آخر: قد ماتت، ولكنها لم تُدَقَّنْ بعدُ!

وفي فترة من الفترات بدأ الزمنُّ يُدير ظَهْرَه لعوّاد، فعلى الرَّغم من قُوَّته وقَسْوَتِهِ وطابَعِهِ الدَّمَوِيِّ، فقد كان مَعِيًّا كَرَجُلٍ لَيْلٍ؛ لأنه كان بخيلًا. وَتَفَجَّرَتِ المَشَاكِلُ في العِصَابَةِ، واعترضَ كثيرونَ لأنَّه كان يستأثِّرُ دون الآخرين بأكثر الغنائم، وَهَجَرَ كثيرونَ العِصَابَةَ، وسقط آخرون في يَدِ البوليس، وكان مَفْرُوضًا -حَسَبَ شَرِيعَةِ أولادِ الليل- أن تَرعى العِصَابَةُ أَهْلًا مَن سقطوا في يَدِ البوليس، وتُوَكَّلَ لهم مُحامين، وتحتفظ بولائهم بِمُخْتَلَفِ السُّبُل، ولكن عوّاد -لِبُخْلِهِ وقَسْوَتِهِ- لم يَفْعَلْ، وانفضَّ كثيرون عن العِصَابَةِ، وانضمُّوا لِلْخَطِّ، وَدَهَبَ آخرون إلى أحمد عبد الغفار.

كَمُعْظَمِ المُجْرِمِينَ وأبناء الليل، نشأ أحمد عبد الغفار: قُرْصَانُ النَّيْلِ. وكَمُعْظَمِهِمْ، فإنه عندما غادر عالمَ الإجرام قَتِيلًا بِيَدِ البوليس كان مجموع ما حُكِمَ عليه غِيَابِيًّا خَمْسِيًّا وثلاثين سنة، أَشْغَالًا شاقَّة، غير عشرات الجرائم التي كان التحقيق في كلِّ منها ينتهي بأنَّ الفاعِلَ مجهول.

وكان قُرْصَانُ النَّيْلِ كَكُلِّ أولادِ الليل؛ يَرْتَكِبُ الجرائم في وَصَحِ النهارِ أحيانًا، أو مُخْتَفِيًا بِحُلْكَةِ ظَلَامِ الليل، وفي كُلِّ الأحوال فإنه لم يكن «فاعِلًا مجهولًا»، لكنَّ الناس كانوا دائمًا عاجزين عن توجيه الاتهام، لا يمتلكون الشجاعة أو الرغبة في إبلاغ البوليس، ولا يثقون في أنه قادرٌ على حمايتهم، وكان أحمد عبد الغفار قد حدَّدَ عقوبةً بسيطةً على كُلِّ من يشهد على أحد رجاله الذين يقعون في يد البوليس، أو يبلغ عنهم، والعقوبة هي: رأسُ المُبْلَغِ، وماله: وَكُلُّ ما يَمْلِكُ!

كان في الخامسة والثلاثين فقط، بدأ نشاطه قبل ذلك بسنواتٍ طويلة، وسرعان ما اكتشف أنه موهوب في القتل؛ فتخصّص فيه، ووضع تسعيرة للرؤوس، ولجأ إليه كلُّ عاجزٍ عن الثأر لنفسه، وكلُّ مُتأَمِّرٍ على حياة الآخرين، وانهال المالُ عليه، وكثُرَ القتلى، وروّت الدماءُ البحرَ الأخضر.

وبسبب خطأ منه نشأت بينه وبين زعيم أعيان ديروط: أحمد قرشي باشا- مُناوشاتٍ، سُرعان ما تحوّلت إلى عداٍ حادٍّ، وأثبتت معركته مع قرشي باشا أن الأعيان قادرون -لو أرادوا- على أن يُلْزِمُوا أولاد الليل جانبَ الدِّفاع، أو على الأقل يُكَبِّدُونَهُمْ خسائرَ بالغةً. لقد دخل رجالُ قرشي باشا المعركة ضدَّ أحمد عبد الغفار، وتكاثرت المعاركُ بين الطرفين، وأعلنَ الباشا عن مُكافأةٍ قدرها ثلاثة آلاف جنيه لمن يُرشِدَ البوليس إلى القبض عليه، ومع ذلك لم يتقدّم أحد. وتصاعَدَ الخلافُ بينه وبين الباشا، إلى درجةٍ جعلت زعيمَ أعيان ديروط يُصمِّمُ مَنْزِلَهُ بحيث يُصْبِحُ قلعةً حربيةً كاملة؛ وهو ما يُمكنه من الصُّمود أمام أحمد عبد الغفار، وإجباره في النهاية على الهجرة من ديروط إلى المنيا؛ ليستريح من القرشي باشا، ويستريح هو منه.

وفي المنيا انتشر أحمد عبد الغفار، وتَجَبَّرَ، ففَرَضَ إرهابه على قُراها وأعيانها، إلى أن استوطن قرية «المطاهرة»؛ بناءً على دعوةٍ وجَّهها إليه أحد أعيانها لجِراسةِ أملاكه، وتقويته ضدَّ أعدائه.

وأفردَ الرَّجُلُ لابن الليلِ المُهاجر بيتًا في نطاق أملاكه، ولكن أحمد عبد الغفار طلبَ منه أن يبني له بيتين آخرين؛ فبناهما، واستدعى رَؤُوسَهُ، فأقامت في واحدٍ منهما، واستقرَّت عصابته في البيت الآخر. وازدادت أواصِرُ المَوَدَّةِ بين ثريِّ المَطَاهرة «ابن البيوتات» وبين «ابن الليل» أحمد عبد الغفار، وبلغَ من إجلال ابن البيوتات العريقة له أن زوّجه إحدى قريباته، واستدعى المأذونَ، فَعَقَّدَ عليها باسم مُستعارٍ، هو «أحمد إبراهيم مَناع»، ودُشِّنَ التَّحَالُفُ بين أبناء البيوتات وأبناء الطريق، بالمُصَاهَرَةِ ذاتِ الطَّابعِ المَلَكِيِّ، وبين العروش المتنافسة، أو القوى المتكافئة!

واستمَرَّت العصابة تُمارِسُ مَهْمَتَهَا، يَتَنَاوَبُ رجالُها على جِراسةِ أملاك «البيك»، وبأكلون ويشربون تحت أنظار كلِّ مُؤَسَّساتِ الدَّولة.

وعلى امتداد تلك الفترة حرص أحمد عبد الغفار على تأمين نفسه؛ كان يَبِيْتُ كُلِّ لَيْلَةٍ في بيتٍ من البيوت الثلاثة، وَيَسْهَرُ أفرادُ عِصَابَتِهِ على حِرَاسَتِهِ حتى يَسْتَيْقِظَ، ثم أنشأ في كُلِّ بيتٍ سِرايِبَ بِمَنَافِدَ جَفِيَّةٍ لِيَهْرَبَ بِسَهُولَةٍ عندما تنشأ ضَرُورَةٌ تدعو لذلك. إن تَجَارِبَهُ عَلَّمَتْهُ أَنَّ التَّحَالُفاتِ مهما بلغت من مدى بين أولاد الليل وأولاد البيوتات يمكن أن تُقَطَعَ في أيَّة لحظة. وفي حماية «أبناء البيوتات» ارتكب «أولادُ الليل» جرائمَ صُغْرَى ضدَّ أهالي المطاهرة؛

انتهكوا الأعراض، وسرقوا، وقتلوا، واستجابوا بسهولة لما تُمليه عليهم تَرَعاتُ الغُنف.

وأخيرًا سَيِّمَ أحمد عبد الغفار حياة الدَّعة، واشتاق إلى حياة المُغامرات، وقاده التَّفكيرُ إلى ابتكارٍ جديدٍ في عالم أولاد الليل؛ قَرَّرَ أن يَتْرُكَ البَرَّ لِيَنْشَطَ في التَّيْل.

بسرعةٍ أَعَدَّ سفينةً شراعيَّةً، وزوَّدها بالأسلحة، وأقام عليها في وسط النيل هو وعصابته، يستوقفون السُّفُنَ الشَّراعيَّةَ المُحمَّلةَ بالحبوب والبضائع، ويأمرون مَنْ فيها بالتسليم، فلا يكادون يَعْرِفُونَ أن الذي يُكَلِّمُهُم هو أحمد عبد الغفار حتَّى يُسَلِّمُوا... وفي الحال تُسَحَّبُ السَّفِينَةُ المُحمَّلةُ إلى الشاطئ، ويُنْقَلُ ما فيها إلى البَرِّ، ويُباعُ بأَرْحَصِ الأثمان، ثم تُساقُ السَّفِينَةُ الفارِغَةُ إلى وَسَطِ التَّيْلِ، وفيها بقايا ممَّا كانت تَحْمِلُهُ، وهناك تُشْعَلُ فيها النَّارُ.

وسرعان ما أثبتت الأيام إن «ليل البحر» أكثر عطاءً وأوفرَّ غَلَّةً من ليل الجَبَلِ والبَرِّ.

وإذا كان الصياد الفقير محمد مجمود منصور لم يَسْتَطِيعَ أن يحصلَ من التَّيْلِ -الذي يُسمَّيه الصَّعايدة: البحر- إلا على عِدَّةِ سَمَكاتٍ ناجلةٍ من البُلطي، ولُطِمَ على وجهه لأنه حاولَ حمايَتَها؛ فإن أحمد الغفار قد يَمُكِّنُ من الحصولِ على عشرين ألفًا من الجُنيَّهات سنويًّا من نفس البحر، فضلًا عن خمسة آلاف أخرى، كان يَجْمَعُها من الإتاوات على أعيان المنطقة. صفقات مهولة كانت تَسْقُطُ في يَدِهِ بمجرد أن يُشْهَرَ سِلاحه في ظلام الليل، آلاف من أَرادِبِ الفول والقمح، والعدس، وآلاف من أكياس السَّماد، وبالات القُطن.

وانتَرَعَ أحمد عبد الغفار لَقَبَ «قُرْصانِ التَّيْلِ» بين أولاد اللَّيْلِ عن جدارة...

كان هذا هو الجو الذي انضمَّ خلاله الخُطُّ إلى عالمِ اللَّيْلِ، ولم يَكُنْ كُلُّ هؤلاء غُرَباءَ عنه؛ فهم أبناء منطقة واحدة، ثم إن مُعْظَمَهُم قد التَّقَوْا قَبْلَ ذلك في مُعْتَقَلِ الطور؛ ففي بدايات الحرب العالمية الثانية قَرَّرتِ الحُكُومَةُ القائِمةُ وقتَها -وكان يرأسها علي ماهر باشا- أن تجمعَ كُلَّ الأشقياء والخطيرين على الأمن العام، وتُرْسِلَهُم إلى الطور، واقتطعت الحُكُومَةُ جزءًا من الحَجَرِ الصَّحِّيِّ، الذي أَعَدَّ لِيُعْرَلَ فيه الحُجَّاجُ العائِدُونَ من الأراضي المُقدَّسة، وخصَّصَتْه لإقامة أربعة آلافٍ من الأشقياء، جَمَعَهُم من جميع أنحاء البلاد، بناءً على تقارير البوليس والعُمد والمشايع، وذهب كثيرون ظلمًا في هذه الهوجة؛ تحكَّم في عملية إرسالهم إلى الطور ما بيَنَهُم وبينَ العُمد والمشايع من صَغائِرٍ وأحقادٍ، قادتهم ظلمًا إلى مُعْتَقَلٍ رهيب، وخرَجَ بَعْضُهُم بوساطاتٍ أو

صَّماناتٍ، أو موضوعين تحت المراقبة التي يمكن أن تُنفَّذَ بِتَعَنُّتٍ مُتَعَمِّدٍ؛ فالموضوع تحت مُراقَبة البوليس لا بُدَّ أن يبيت كُلَّ ليلةٍ في مَقَرِّ القِسيم (أو النُّقطة في الريف)، ولا بُدَّ أن يُخَطِرَ النُّقطةَ قبل سَفَره أي سَفَرٍ له، وإلا جازَ الحُكْمُ عليه بالسَّجن لهروبه من المُراقَبة، فإذا سُمِحَ له بالمَبيت في منزله؛ كان عليه أن يَلَزِمَهُ من غروب الشَّمس إلى شروقها، ويَمَرَّ الشرطيُّ عليه في أوقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ للتأكد من وجوده في المنزل. على أن وضع هؤلاء كان أرحمَ من وَضْعِ الذين لم تُخْرِجْهم الشِّفاعاتُ والصَّماناتُ من بين أسوار المُعتَقَل؛ حيث ظلُّوا يُعانون النِّفْيَ المُرْعِبَ في صحراءٍ قاحِلَةٍ، وتَعَدَّدَتِ مُحاولاتُ هُروبهم، وتَعَرَّضُوا خلال هذه المحاولات للمَوْتِ المُحَقَّقِ برصاص الحُرَّاس، وَمِنْ نَجَا من الرِّصاص تاه في الصحراء، واختطفته رِمَالُها الواسِعة.

وقد حدث في عام 1946 أن هرب مائتان من هؤلاء المُعتَقَلين، خرجوا من المُعتَقَل إلى الصحراء الواسعة؛ فمات أكثر من ثلاثة أرباعهم، وشوهدت هياكلهم العظمية مُلقاةً في الصَّحراء، وعندما عثرت قُوَّات البوليس التي خَرَجَتْ تُطارِدُهم بالباقيين قَرَحُوا بِها، وجَرَّوا إليها يُسَلِّمون أنفُسَهم لأفرادها، يَسْأَلُونهم شَرِبَ ماءً، ولا يطلبون أكثرَ من عَوْدَتِهم إلى المُعتَقَل، بأيِّ ثَمَنٍ؛ ذلك أن الحياة حلوة... ولو في الطور!

وبرغم ذلك فإن محاولات الهروب من الطُّور لم تتوقَّف منذ فتحه، وقد هرب منه الخُطُّ في عام 1943، وهرب منه عَوَّاد، وهرب آخرون... ولم تَكُن «نجوم» عالم «أولاد الليل» غَرِيبَةً إِذَا على الخُطِّ؛ لذلك بدأ نشاطه وهو يعرف جوانب القوة والضعف فيهم، وكانت المنافسات والصِّراعات بين أولاد الليل جزءًا «طبيعيًّا» من صراعهم الدِّمَوِيِّ ضِدَّ الطبيعة، وضِدَّ الجبل، وضِدَّ الأعيان؛ أصدقائهم وأعدائهم، في نفس اللحظة، ونفس السبب.

وبعد فترةٍ من النشاط بدأ الخُطُّ يُدْرِكُ أنه في حاجةٍ إلى تدعيم، كان كثيرون من عصابته قد وقعوا في أيدي البوليس، وكان عَدَدُ من أخوته -وهم يده اليُمْنَى- قد سقطوا قَتْلَى...

وفي نفس الوقت كان عَوَّاد يُعاني هو الآخر من نفس الظاهرة، ولكن لأسبابٍ مُخْتَلِفَةٍ، بعد أن انفصَّ عنه أعوانه لِسلوكه المَعِيبِ كَرَجُلٍ لَيْلٍ، وتقرَّر أن تندمِجَ العصابتان، وجَرَّتِ المفاوضات، وساهم في تنفيذها أن عَوَّاد كان قد أعجَبَ بنفيسة جابر، شقيقة أحمد جابر، أحد كبار أعوان الخُطِّ، واندَمَجَتِ العصابتان ودُشِّنَتِ الوحْدَةُ بزواج عَوَّاد من نفيسة، وأطلق أولادُ الليل مِئاتِ الأَعيرةِ الناريةِ في ظلام الجبل؛ احتفالاً بهذه الوحدة العظيمة.

ولعلَّ ذلك كله كان طبيعيًّا؛ ففي وَطَنٍ يَعِيشُ فيه أولاد الفقراء بلا أَمَلٍ، ولا مُستقبلٍ، ولا حتى كرامة، بينما يلهو «أولاد الذوات»، ويتَجَبَّرُ «أبناء البيوتات»، ويضطرُّ «أبناء المدارس» إلى اللعب بالقنابلِ دفاعًا عن وطنهم

المُحتَلّ، والمُسْتَدَلّ، وتُؤَلَّف المسرحيّات والأفلام والأغاني عن كل هؤلاء،
بينما لا يَجسُرُ أحدٌ على قَوْلِ كَلِمَةٍ في حَقِّ «أولاد الكلاب»، الذين يسومون
الشَّعبَ العَذَابَ؛ في مُجتمعٍ مثل هذا كان لا بُدَّ أن يكونَ هناك «أولاد الليل»!

الفصل الرابع

رصاصات في الجبّانة

اندَمَجَت العصابتان... وأثار اندماجهما قَلَقَ كثيرين؛ أثار قَلَقَ رجال البوليس، الذين شِعِروا بأنَّهم سيواجهون أخطبوطًا شَرِّيرًا له أَلْفُ ذراع، كانوا يعلمون أن الخُطَّ -بُعْنِفِه، واندفاعه- يمكن أن يقود نفسه وعصابته إلى مُغامرة انتحارية تقضي عليه وتريحهم منه.

وجاء انضمام عَوَّاد للعصابة ليؤكد أن عمر الخُطَّ سيطول؛ ذلك أن عَوَّاد كان مجرمًا عاقلًا، قاسي القلب -من وجهة النظر البوليسية- يملك قُدرة مُذهلة على التفكير والتخطيط، تُمكن العصابة من ارتكاب أضعاف ما ترتكبه دون أن تتعرَّض إلا لأقل الأخطار.

لقد كان هذا الاندماج -من وجهة نظر المسؤولين عن الأمن- تَوَحُّدٌ بين القدرة على المباغطة والجرأة العنيفة، وهو ما كان يتملُّ في الخُطَّ، وبين التصميم البارد والتخطيط الذكي، وهو ما يُميِّز عواد عن غيره من أبناء الليل. وأثار هذا الاندماجُ قَلَقَ الأعيان وخوفهم؛ ذلك أن التناقُصَ بين أبناء الليل كان لهم دائمًا فُرصةً للمساومة وتهديد هذا بذاك، والاستعانة بواحد منهم ضد الآخر، ومشروعات الاندماج والتوحيد بين أبناء الليل لا تخدم هذا الهدف. أثار أيضًا قَلَقَ رجال الليل الآخرين، ممَّن كانوا ينافسون الخُطَّ أو عواد، أو ينافسونهما معًا، وعلى رأسهم: أحمد عبد الغفار، قُرْصان النيل، الذي رأى في هذا الاندماج مُحاولَةً لِقوية عَدُوِّهِ وتكوينًا لِحِبةٍ لن تَسْلَمَ من العداء ضِدَّه...

لكنَّ الاندماجَ تَمَّ، وما كان قد كان؛ أصبح الخُطُّ وعواد اسمين يُشيران الفَزَع والخَوْفَ في قلوب أغنياء أسيوط وأعيانها، وأولاد الليل الآخرين، والبوليس. ودُشِّنَ التَّحَالُفُ الجديدُ بزواج الشيخ عَوَّاد من نفيسة جابر، وكان عَوَّاد يتردَّد على قريبتها «موشا» لزيارة شَيوخها، وكان واحدًا من عيونه وأعوانه، فأعجبتَه، وعندما بدأت مُفاوِضات الاندماج طَلَبها من شقيقها أحمد، اليَدِ اليُمْنَى للخُطَّ، كانت في حوالي السادسة عشرة، جمالها أقل من المتوسِّط، لكن الهدف السياسي كان هو المهم؛ لقد أصبح لأولاد الليل تقاليدُ أشَبَّه بتقاليد الأسر المالكة الكبيرة، التي كانت تتصاهَرُ لِدُشِّنِ تحالفاتها، وتَتَوَقَّفَ ما بينها من حروب ومنافسات، وتَتَقَوَّى كُلُّ منها بنفوذ الأخريات.

وعندما فوتِحت نفيسة بالمسألة اعترَصَتْ، ورقَصَتْ، ثم انخرطت في بكاءٍ حادٍّ؛ لِعِلمها أنها -بهذا الزواج- سيرتبط مَصيرُها برجلٍ مَحْكوم عليه بالإعدام، طَالَ الزَّمَنُ أم قَصُرَ، رجلٍ يعيش كالخفافيش، يختفي نهائيًا في

مُتَاهَاتِ الْجَبَلِ، وَتَتَنَمَّرُ عَيُونُهُ لَيْلًا، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَنْتَظِرُهُ قَضَاؤُهُ، مُمْتَلًا فِي رِصَاصِ الْبُولِيسِ، أَوْ الْمُتَنَافِسِينَ، أَوْ حَتَّى الْأَعْوَانِ.

وَأَرْغَمَهَا جَابِرٌ عَلَى الزَّوْاجِ، بَلْ وَقِيلَ إِنَّهُ سَلَّمَهَا إِلَى عَوَّادِ الَّذِي دَخَلَ عَلَيْهَا، وَبَدُونَ أَنْ تَتِمَّ إِجْرَاءُ الزَّوْاجِ الشَّرْعِيِّ، وَظَلَّتْ تُقِيمُ مَعَهُ فِي الْجَبَلِ إِلَى أَنْ نَقَلَهَا إِلَى «مَوْشَا» فِي سَيَّارَةٍ يَحْرُسُهَا أَفْرَادُ الْعَصَابَةِ. وَكَانَ عَوَّادٌ قَدْ احْتَلَّ مَنْزِلَ فِلْتَاوُوسِ عَوْضٍ، أَحَدِ الْمَلَائِكَةِ الْمُتَوَسِّطِينَ فِي «مَوْشَا»، احْتَلَّهُ قَسْرًا، وَبَدُونَ أَنْ يَجْرُؤَ صَاحِبُهُ عَلَى الْمُعَارَضَةِ، وَاتَّخَذَهُ وَكْرًا لِعِغْرَامِهِ بِنَفِيسَةٍ؛ يَهْبِطُ إِلَيْهَا مِنَ الْجَبَلِ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي، فَيَبِيتُ، أَوْ يُمَضِي سَاعَةً وَبَعْضَ سَاعَةٍ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ إِلَى حَيَاتِهِ الْغَرِيبَةِ، وَكَانَ الْمَنْزِلُ وَكْرًا مِثَالِيًّا؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ فِي نَهَايَةِ دَرَجٍ ضَيِّقٍ، وَلِدَوْرِهِ الْأَعْلَى شُرْفُهُ يَكْشِفُ مَنْ يَقِفُ فِيهَا الْقَادِمِينَ مِنْ أَوَّلِ الدَّرَجِ، فَيَحْصُدُهُمْ بِرِصَاصِهِ إِذَا أَرَادَ؛ وَلِهَذَا اخْتَارَ عَوَّادُ هَذِهِ الشَّرْفَةَ لِنَامٍ فِيهَا وَإِلَى جَوَارِهِ بِنَدَقِيَّتِهِ.

فِي هَذَا الْمَنْزِلِ كَانَ عَوَّادٌ -إِذَا هَبَطَ- يُقِيمُ آمِنًا تَمَامًا، وَائْتِقًا مِنْ أَنْ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنَالَهُ، لَيْسَ لِأَنَّهُ يَتَحَصَّنُ فِي شُرْفَتِهِ الْمِثَالِيَّةِ فَحَسَبَ، وَلَكِنْ أَيْضًا لِأَنَّ شَيْخَ خَفْرَاءَ «مَوْشَا» كَانَ حَلِيقًا لَهُ وَمُعَاوِنًا، وَعَيْنًا لَهُ عَلَى الْبُولِيسِ!

وَكَانَتْ تِلْكَ ظَاهِرَةً أُخْرَى مِنْ ظَوَاهِرِ مَوْجَةِ الْغُفِّ الَّتِي شَهِدَهَا الصَّعِيدُ، إِذْ كَانَ لِمَعْظَمِ أَوْلَادِ اللَّيْلِ حُمَاءٌ وَخُلَفَاءٌ فِي جِهَازِ الدَّوْلَةِ نَفْسِهِ، فِي قَلْبِ قَوَّاتِ الْبُولِيسِ: عُقْمَدٌ، وَمُشَايِخٌ، وَشِيُوخٌ حُفْرَاءٌ، وَمُخْبِرُونَ، وَعَسَاكِرُ؛ كَانَ النَّظَامُ يَأْكُلُ نَفْسَهُ، وَكَانَ قَدْ تَفَسَّخَ تَمَامًا.

وَقَدْ سَجَّلَ تَقْرِيرٌ رَسْمِيٌّ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ أَنَّهُ «مِمَّا يَسْتَدْعِي الْإِهْتِمَامَ أَنْ أَخْبَارَ تَنَقُّلاتِ الْبُولِيسِ وَقُوَّاتِهِ كَانَتْ تَصِلُ إِلَى الْأَشْقِيَاءِ فِي مَكَانِهِمْ وَأَوْكَارِهِمْ قَبْلَ مُدَاهَمَتِهِمْ؛ فَيَأْخُذُوا الْحَيْطَةَ لِأَنْفُسِهِمْ حَتَّى لَا يُؤْخَذُوا عَلَى غِرَّةٍ، وَهُوَ أَمْرٌ خَطِيرٌ، تَجِبُ مُعَالَجَتُهُ فَوْرًا، بِمَا يَكْفُلُ عَدَمَ تَسَرُّبِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ إِلَى الْأَشْقِيَاءِ».

لَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يُعَالَجَ فَوْرًا، وَأَثْبَتَ أَبْنَاءُ اللَّيْلِ أَنَّهُمْ مَرَضٌ مُتَوَطَّنٌ أَصَابَ قَلْبَ النَّظَامِ، وَزَادَ أَعْوَانَهُمْ فِي أَجْهَرَةِ الْأَمْنِ؛ وَلِذَلِكَ صَغَّطَتْ عَصَابَةُ الْخَطِّ وَعَوَّادٌ بِكُلِّ نَقْلٍ عَلَيْهَا عَلَى أَعْصَابِ أَعْيَانِ الصَّعِيدِ، وَارْتَعَبَ أَعْيَانُ أَسْيُوطَ وَأَثْرِبَاؤُهَا، إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّهُمْ امْتَنَعُوا عَنِ السَّقَرِ بَيْنَ الْبِلَادِ وَالْقُرَى لَيْلًا، وَأَحْجَمَ سَائِقُو السَّيَّارَاتِ عَنِ ثَقْلِ الرُّكَّابِ لَيْلًا إِلَى الْمَنَاطِقِ الْبَعِيدَةِ...

وَاتَّبَعَتِ الْعَصَابَةُ طَرِيقَةً ثَابِتَةً فِي الْحَصُولِ عَلَى «رِزْقِهَا»، كَانَتْ تُرْسِلُ مَنَدُوبًا عَنْهَا إِلَى صَاحِبِ الْأَرْضِ، أَوْ صَاحِبِ وَابُورِ الرِّيِّ لِمَطَالَبَتِهِ بِأَجْرِ حِرَاسَةِ مُمْتَلِكَاتِهِ، فَإِنْ قَبِلَ اسْتَمَرَّتْ فِي جِمَاعِيَّتِهَا لَهُ، وَإِذَا رَفَضَ فَإِنْ زَرَعَتْهُ ثُقُلَعٌ، وَمَوَاشِيَهُ تُسْرِقُ، وَأَجْزَاءُ وَابُورِهِ تُسْتَلَبُ، وَيَتَعَرَّضُ هُوَ وَأَهْلُهُ لِلْقَتْلِ وَالْإِعْتِدَاءِ.

وكانت العصابة -يُحْكَم تَخْطِيط عَوَّاد الْمُتَشَدِّد- حَرِيصَةً عَلَى احْتِرَام كَلِمَتِهَا وَتَنْفِيز تَهْدِيدَاتِهَا. كَانَتْ فِكْرَتُهَا الثَّابِتَةُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْمَحَافَظَةِ عَلَى «هَيْبَةِ» أَوْلَادِ اللَّيْلِ؛ لَكِي لَا يُفَكَّر أَحَدٌ فِي مُقَاوَمَتِهِمْ أَوْ الْاسْتِثْنَاءِ بِمَا يَقُولُونَ. كَانَ التَّنْفِيزُ يَتِمُّ بِسُرْعَةٍ وَحَسْمٍ. حَدَّثَ مَرَّةً أَنَّ رَقَصَ أَحَدُ الْمُلَّاكِ مَا قُرِضَ عَلَى أَرْضِهِ مِنْ إِنَاوَةٍ؛ فَاقْتَحَمَ الْخُطَّ دَارَهُ وَقَتَّ الْعِشَاءَ، وَأَطْلَقَ رِصَاصَاتِهِ عَلَى الْأَسْرَةِ بِأَكْمَلِهَا، وَكَانَتْ تَتَنَاوَلُ طَعَامَهَا، فَقَتَلَ الرَّجُلَ، وَزَوَّجَتْهُ، وَأَوْلَادَهُ الْخَمْسَةَ، وَانْصَرَفَ فِي هَدْوٍ.

وَسَرَّعَانَ مَا اقْتَنَعَ الْجَمِيعُ أَنَّ الْخُطَّ إِذَا مَا قَالَ فَعَلَ، وَأَصْبَحَتْ شُهْرَةٌ الْعِصَابَةِ -كَمَا يَقُولُ الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ حَسَنِينِ هَيْكَلٍ، الصَّحْفِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي حَقَّقَ مَقْتَلَ الْخُطَّ- تَسْبِيقُ بِنَادِقِهَا؛ وَأَصْبَحَ الْخُطَّ حَاكِمًا بِأَمْرِهِ، وَبَلَغَ الْحَالُ إِلَى حَدٍّ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَرْضِ وَكِبَارَ الْمُلَّاكِ لَمْ يَجِدُوا مَفَرًّا مِنْ أَنْ يَعْهَدُوا إِلَيْهِ بِحِرَاسَةِ حَقُولِهِمْ وَحِمَايَةِ مُحَاصِيلِهِمْ، فَبَدَأَ يُعَيِّنُ الْخُرَاسِيَّ مِنْ عِصَابَتِهِ، وَيَجْنِي الصَّرَائِبَ -كَمَا تَفْعَلُ الْحُكُومَةُ-. الْفَرْقُ الْوَحِيدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أَنَّهُ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْرُسَ وَأَنْ يَحْمِيَ فَعَلًا، أَمَّا الْحُكُومَةُ فَقَدْ كَانَتْ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَحْمِيهَا مِنْهُ.

وَأَصْبَحَ هُنَاكَ نِظَامًا ثَابِتًا لِلْحِمَايَةِ وَلِلْإِنَاوَةِ، فَرَضَتِ الْعِصَابَةُ أَسْعَارًا لِمَجْهُودِهَا كَمَا تَفْعَلُ أَيُّ حُكُومَةٍ مُنَظَّمَةٍ؛ حِرَاسَةُ الْقَدَّانِ بِنِصْفِ جُنْيِهِ فِي السَّنَةِ، وَفِي السَّنَةِ الْأُولَى كَانَ فِي حِرَاسَتِهَا سِتَّةُ آلَافِ فِدَّانٍ، ثُمَّ تَضَاعَفَتْ حَتَّى بَلَغَ إِبْرَادُهَا مِنْ «الْحِرَاسَةِ الْمَشْرُوعَةِ» -أَيِ الْعَلَنِيَّةِ، وَالتِّي كَانَ الْبُولِيسُ يَعْلَمُ بِهَا- خَمْسَةَ آلَافِ جُنْيٍ فِي عَامٍ وَاحِدٍ، هَذَا غَيْرَ الدَّخْلِ الْآخَرَ غَيْرَ الْمَشْرُوعِ مِنَ السُّطُو وَالسَّلْبِ وَالتَّهْبِ. وَاتَّخَذَتِ الْعِصَابَةُ مَغَارَاتِ الْجِبَالِ وَكُهُوفَهَا الْمُجَاوِرَةَ لِدَرْنِكَةِ مَعْقِلًا تَحْتَمِي فِيهِ مِنَ الْبُولِيسِ وَطَالِبِي الثَّارِ، وَجَاوَلَ الْبُولِيسُ عَشْرَاتِ الْمَرَّاتِ أَنْ يَحْصُرَ الْعِصَابَةَ فِي الْجَبَلِ وَيَمْنَعَهَا مِنَ النَّزُولِ إِلَى الْقَرْيِ، وَيَمْنَعُ عَنْهَا الْغِذَاءَ وَالْمُؤْنَ الَّتِي كَانَتْ تُحْمَلُ إِلَيْهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُفْلِحْ؛ لِأَنَّ الطَّرِيقَ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَى الْجَبَلِ كَانَتْ مُتَعَدِّدَةً، وَبَلَا حَصْرٍ، وَكَانَ أَهَالِي الصَّعِيدِ عَمُومًا -وَرِجَالُ اللَّيْلِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ- يَعْرِفُونَ كُلَّ خَبَايَاهَا، وَهُوَ مَا كَانَ يَفْتَقِدُ إِلَيْهِ رِجَالُ الْبُولِيسِ، وَبَدَأَتِ الْعِصَابَةُ تَتَصَرَّفُ بِوَقَاحَةِ الْقَادِرِينَ، وَالَّذِينَ لَا يَهْمُهُمْ أَحَدٌ.

دَخَلَ الْخُطُّ يَوْمًا مَنَزَلَ رُوبَرْتِ خَيَّاطِ بَكٍّ، أَحَدِ أَعْيَانِ أَسْيُوطَ، وَمِنْ أُسْرَةِ «خَيَّاطِ» الشَّهِيرَةِ، وَأَرْسَلَ خَادِمًا إِلَى صَاحِبِ الْمَنْزِلِ يَقُولُ لَهُ إِنَّ الْخُطَّ يَطْلُبُ سِجَارَةً، إِذَا كَانَ مَعَ «الْبَكِّ» سَجَائِرُ؛ لِأَنَّ غُلْبَةَ الْخُطِّ قَدْ تَفَدَّتْ، وَكَانَتْ -كَمَا هُوَ وَاضِحٌ- رِسَالَةً رَمْزِيَّةً، وَقَهَمَ «الْبَكُّ» الرَّمْزَ، فَعَادَ الْخَادِمُ بَعْدَ قَلِيلٍ إِلَى الْخُطِّ وَمَعَهُ وَرَقٌ بَعْشَرَةُ جَنِيهَاتٍ، وَتَأَمَّلَ الْخُطُّ الْوَرَقَ قَلِيلًا، ثُمَّ مَرَّقَهَا نِصْفَيْنِ، وَأَعَادَهَا لِلْخَادِمِ، وَرَدًّا عَلَى تَصَرُّفِ الْخُطِّ نَزَلَ «الْبَكُّ» بِنَفْسِهِ، فَاسْتَرْضَى الْخُطَّ، وَمُنَحَهُ مَا يَرِيدُ ثَمَنًا لِلْسَجَائِرِ!

وعندما زاد الأمر عن حدِّ الاحتمال أجرت وزارة الداخلية تغييراتٍ في مناصب رجال البوليس في أسيوط، وأسندت منصبَ مأمور مدينة أسيوط -عاصمة المحافظة- إلى اللواء إسماعيل أبو السعود، وكان أحد رجال الشرطة الذين يفهمون مهنتهم بوضوح. وعلى الفور، بدأ اللواء أبو السعود يَشْنُ حَمَلَاتٍ مُكثِّفَةً لإلزام أولاد الليل جانبَ الدِّفاع، فتصدَّى للنشاط العَلَنِيَّ لهم، وخاصَّةً عمليات الحراسة، وجمَعَ الإتاوات التي كانت تَتَمُّ تحت ظروف الإرهاب، وعَيَّنَ عَدَدًا من رجال البوليس لحراسة الجُقول التي تعرَّض أصحابها لِقَرَضِ الإتاوات، وأكثرَ من عدد دوريات رجال الشرطة في الشوارع. وقاد بنفسه حَمَلَاتٍ يَوْمِيَّةً؛ يَهْدَفُ إعادة الاحترام لهيبة الحكومة في المدينة.

في هذا الوقت تفجَّرت مُشكِلةٌ حسن كدواني، أحد المُلَّاك في زمام أسيوط، وكان الخُطُّ قد فرض عليه إتاوةً، عارضَ فيها حسن كدواني؛ إذ وَجَدَهَا لا تَنَاسِبُ مع عِلَّةِ الأرض، وظلَّ يُؤَجِّلُ دَفْعَ أَجْزَاءِ منها عامًا بعد عام، حتَّى تَرَاكَمَتْ عليه؛ فأنذرتَه العصابةُ إنذارًا أخيرًا في موسم القطن، وعندما لم يدفَع كدواني ما عليه أصدر عَوَاد قرارًا بالاستيلاء على الأرض، حتى تجبي العصابةُ ما عليها على الأرض من محصول القُطن، وتبيعه سدادًا لِمَا تَأَخَّرَ على حسن كدواني من إتاوات، وهكذا تَرَلَّ عَدُوٌّ من أولاد الليل إلى حقل حسن كدواني فاحتلوه، وأنشأوا كوخًا من البوص أقاموا فيه بأسلِحَتِهِم.

وقتَهَا كان اللواء أبو السعود يُصعِّد حَمَلَتَهُ ضدَّ أولاد الليل في أسيوط...

عَقَّدَ أبو السعود عِدَّةَ اجتماعاتٍ للأعيان، حاول خلالها أن يُوَكِّدَ أن جهاز البوليس قادرٌ على مُوَاجَهَةِ الأشقياء، وأنه لا يَقِفُ أمامه سوى خوفِ الأعيان منهم، وإذعانهم لشروطهم، وطالبهم المأمور بأن يُدْلُوا إليه بأي معلوماتٍ تساعد على إقبض على عَوَّادٍ والخُطِّ، لكنَّ الأعيان أنكروا -بهدوء- أن هناك ما يخافونه، وأكدوا أنه لا الخُطُّ، ولا عَوَّاد، ولا أحدٌ من أعوانهما قَرَضَ عليهم أيَّ شروط أو إتاوات، أو حتَّى هَدَّدَهُم بذلك.

وعندمَا عَلِمَ المأمور بحكاية حسن كدواني استدعاه إليه، وسأله عَمَّا إذا كان الخُطُّ قد استولى على أرضه، فأنكر حسن هذا بشدَّة، وأكد أن هذا لم يحدث، وضاقت المأمورُ بالأمر كُلُّه، فصرف حسن كدواني، ثم أصدر أمرَه لبعض جنود البوليس بحراسة زراعة القطن التي يملكها كدواني، وقَرَّرَ أن يَعْتَصِمَ البوليس بها، وأن يمنع الخُطُّ من الحصول على قُطْنِهَا، فإمَّا أن يترك المَحْصُولَ فَتَهْتَرَّ هَبِيئَتُهُ، أو يخاطر بمِعرَكَةٍ مع البوليس فتكن قُرْصَةً لاقتناصه.

وانسحب رجالُ العصابة من فوق حقل كدواني، وجنَّ الخُطُّ من تَصَرُّفِ المأمور، وزاد الطينَ بِلَّةً أَنَّ القُطنَ ظلَّ في الأرض إلى أن بدأ موسم الفيضان؛ فَخَشِيَ المأمور على المحصول من الغرق؛ فأمر بجنيِّه، وباعه، وأرسل إلى حسن كدواني لِيُسَلِّمَهُ الثمن، فقال الرَّجُلُ -ببساطة- إن الأرض

مُؤَجَّرَةً لِلْخُطِّ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْمَالِ، وَوَضَعَ الْمَأْمُورُ الْمَبْلَغَ فِي خَزِينَةِ الْمَدْيُونِيَّةِ إِلَى أَنْ يَطْمَئِنَّ كِدَوَانِي لِحَضَرِ لاسْتِلامِهِ.

وَفِي نَفْسِ الْفَتْرَةِ عَيْنَ الْمَأْمُورِ دَوْرِيَّاتٍ مُسَلَّحَةً لِلطَّوَافِ عَلَى وَابوراتِ الْمِيَاهِ وَالْأَرَاظِي الْمَفْرُوضِ عَلَيْهَا ضَرَائِبُ مِنَ الْعَصَابَةِ؛ فَلَمْ يَتِمَّكَ مَنَدُوبُوهَا مِنْ تَحْصِيلِ الضَّرَائِبِ، وَغَمَرَتْ مِيَاهُ الْقِيْضَانِ الْمَحْصُولَ، وَخَنَقَ عَوَّادٌ وَالْخُطُّ عَلَى الْمَأْمُورِ، الَّذِي أَصَابَ هَيْبَةً الْعَصَابَةِ فِي الصَّمِيمِ، وَتَدَارَسَ الْاِثْنَانِ الْمَوْقِفَ، وَكَانَ مِنْ رَأْيِ عَوَّادٍ أَنَّ الصَّرْبَةَ لَا بُدَّ وَأَنْ تُوجَّهَ لِأَحَدِ الذِّينِ لَمْ يُسَدِّدُوا الْإِتَاوَةَ، صَحِيحٌ أَنَّ هَذَا تَمَّ عَلَى الرِّغْمِ مِنْهُمْ، لَكِنَّ الْمُهْمَّ هُوَ تَأْكِيدُ الْمَبْدَأِ تَفْسِيهِ؛ مَبْدَأُ أَنَّ الْعَصَابَةَ لَا يَهْمُهَا إِلَّا أَنْ تُحْصَلَ إِتَاوَاتُهَا، وَالْإِعْتِدَاءُ عَلَى هَؤُلَاءِ سَيُشْعِرُ الْبُولِيْسَ بِأَنَّهُ يَضُرُّ مَنْ يَنْصَدِّي لِحِمَايَتِهِمْ؛ فَيَكْفُ الْمَأْمُورُ عَنْ أَسْلُوبِهِ فِي حِصَارِ «رَزَقِ الْعَصَابَةِ».

وَرَأَى الْخُطُّ أَنَّ يُوجَّهَ ضَرْبَتَهُ لِلْمَأْمُورِ نَفْسِهِ؛ كَانَ قَدْ اسْتُفِزَّ تَمَامًا مِنْهُ، وَأَصَرَ عَلَى أَنْ يَحْضُدَ رَأْسَهُ مُقَابِلَ قُطْنِهِ الَّذِي جَمَعَهُ، وَكَانَ عَوَّادٌ يَخْشَى خُطُوَةً كَتَلِكْ؛ فَالْعَصَابَةُ قَدْ قَرَضَتْ نَفْسَهَا، وَأَكَّدَتْ إِرْهَابَهَا، وَهِيَ لَمْ تَعُدْ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْقَتْلِ، إِلَّا لِلضَّرُورَةِ الْقُصْوَى، لَقَدْ ارْتَكَبَتْ مِنْ جَرَائِمِ الْقَتْلِ مَا قَرَضَ كَلِمَتَهَا، وَأَكَّدَ هَيْمَتَهَا، وَجَعَلَهَا مَرَهُوبَةً الْجَانِبِ؛ فَأُطَاعَ الْكُلُّ أَوَامِرَهَا، وَهَذَا هُوَ مَا تَفْعَلُهُ أَيُّ حُكُومَةٍ تُرِيدُ تَثْبِيْتَ نَفْسِهَا- وَالْمَزِيدُ مِنْ جَرَائِمِ الْقَتْلِ سَيُحَوَّلُ مَطَارِدَةُ الْبُولِيْسِ لَهَا إِلَى عَمَلِيَّةٍ ثَّارٍ، فَمَا بِالْكُ إِذَا كَانَ الْقَتِيلُ وَاحِدًا مِنْ رِجَالِهِ مَرَهُوبِي الْجَانِبِ؛ ضَابِطٌ عَظِيمٌ، وَمَأْمُورٌ بِنَدْرِ أَسْيُوطَ، عَاصِمَةُ الْمَحَافِظَةِ.

وَأَصَرَ الْخُطُّ عَلَى مَوْقِفِهِ، وَمَنْعًا لِمَزِيدٍ مِنَ الشَّقَاقِ هَبَطَ عَوَّادٌ مِنَ الْجَبَلِ إِلَى «مُوشَا» لِيَدْفِنَ هَمَّهُ فِي أَحْضَانِ نَفِيسَةٍ...

الأحد 15 سبتمبر 1946

قرية الزاوية بأسويوط.

كَانَ مَأْمُورُ أَسْيُوطَ، اللَّوَاءُ إِسْمَاعِيلُ أَبُو السَّعُودِ، قَدْ حَدَّدَ مَصِيرَهُ بِنَفْسِهِ حِينَ هَاجَمَ رِجَالَهُ اِثْنَيْنِ مِنْ أَفْرَادِ الْعَصَابَةِ، هُمَا: تَوْفِيقُ حَسِينِ، وَمَحْرُوسُ سَيِّدِ أَحْمَدِ، فَقَبِضَ عَلَيْهِمَا فِي حَمَلَةٍ مِنْ حَمَلَاتِهِ، وَكَانَ الْأَوَّلُ هَارِبًا مِنْ حُكْمِ غِيَابِيٍّ بِخَمْسِ سَنَوَاتٍ، أَمَّا الثَّانِي فَكَانَ هَارِبًا مِنْ حُكْمٍ بِخَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا.

وَبَدَأَ الْخُطُّ بِرِسْمِ خُطَّتِهِ، وَأَطْلَقَ الْعِيُونَ وَرَاءَ الْمَأْمُورِ الْمُشَاغِبِ، وَخَدَمَهُ الْحَطُّ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، فَفِي صَبَاحِ يَوْمِ الْأَحَدِ 15 سبتمبر 1946 وَرَدَتْ إِشَارَةٌ إِلَى مَرْكَزِ أَسْيُوطَ، تَقُولُ بِأَنَّ الْمَدْعُوَّ مُحَمَّدَ مُحَمَّدَ الزَّنَاتِي، مِنْ بَلَدَةِ الزَّائِيَةِ قَدْ اعْتَدَى بِالضَّرْبِ عَلَى طِفْلٍ صَغِيرٍ مِنْ عَائِلَتِهِ، فَنَهَرَهُ جَدُّهُ عَلَى

فَعَلَيْهِ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ ثَارَ عَلَيْهِ، وَفِي سَوْرَةِ الْغَضَبِ سَجَبٌ بِنَدَقِيَّتِهِ وَأَطْلَقَهَا عَلَى جَدِّهِ، وَلَكِنِهَا أَخْطَأَتِ الْعُجُوزَ وَأَصَابَتْ امْرَأَةً مِنْ أَسْرَتِهِ كَانَتْ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْمَكَانِ؛ فَمَاتَتْ فِي الْحَالِ.

وَتَقَرَّرَ أَنْ يَنْتَقِلَ مَأْمُورُ الْمَرْكَزِ، وَوَكِيلُ النِّيَابَةِ، وَعَدَدٌ مِنَ الْجُنُودِ إِلَى الزَاوِيَةِ لِتَحْقِيقِ الْحَادِثِ، وَنَظَرًا لِأَنَّ سَيَارَةَ الْبُولِيْسِ «الْبُوكْس» لَمْ تَكُفْ؛ فَقَدْ اسْتَأْجَرَ الْمَأْمُورُ سَيَّارَةَ أُجْرَةٍ، وَمَضَتْ السَّيَّارَتَانِ إِلَى الزَاوِيَةِ، وَاسْتَمَرَّ التَّحْقِيقُ طَوَالَ الْيَوْمِ، وَانْتَهَى عِنْدَ الْغُرُوبِ بِالْقَبْضِ عَلَى الزَّنَاتِي، وَعَادَتْ بَعَثُهُ الْمَرْكَزَ فِي سَيَّارَتَيْهَا؛ كَانَتْ «الْبُوكْسُ فُورْد» فِي الْمُقَدِّمَةِ، فِي مَقْعَدِهَا الْخَلْفِيِّ مَصْطَفَى بَشِيرٍ، وَكَيْلُ نِيَابَةِ أَسْيُوطَ وَقَتَّهَا، وَإِلَى يَمِينِهِ إِمَامُ أَفْنَدِي الشَّحَاتِ، كَاتِبُ النِّيَابَةِ، ثُمَّ الْمَأْمُورُ، وَبِجَوَارِ السَّائِقِ جَلَسَ أَوْمَبَاشِي الْمُبَاحِثُ بِالْمَرْكَزِ.

وَخَلْفَهَا كَانَتْ السَّيَّارَةُ الْأُجْرَةُ، بِجَوَارِ سَائِقِهَا جَلَسَ ضَاطِبُ نَقْطَةِ بُولِيْسِ دَرْنَكَةِ، الْمَلَاذِمُ ثَانِي عَلِي عَبْدِ السَّمِيعِ، ثُمَّ اثْنَانِ مِنَ الْأَوْمَبَاشِيَّةِ، بَيْنَهُمَا مُحَمَّدُ مُحَمَّدِ الزَّنَاتِي، مُجْرِمُ الزَاوِيَةِ الَّذِي عَادَ الْبُولِيْسُ بِهِ مَقْبُوضًا عَلَيْهِ، وَعَلَى رِفْرِفِ السَّيَّارَةِ جَلَسَ صَبِيُّهَا السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ.

وَمَا أَنْ ابْتَعَدَ الرَّكْبُ مِنْ بَلَدَةِ الزَاوِيَةِ حَتَّى تَعَطَّلَ «الْبُوكْسُ فُورْد»، وَاسْتَغْرَقَ إِصْلَاحُهُ حَوَالِي ثَلَاثِ سَاعَةٍ، وَاسْتَأْنَقَتِ الْقَافِلَةُ سَبِيلَهَا، وَكَانَ اللَّيْلُ قَدْ أَرَخَى سُدُولَهُ، وَصَارَ الظَّلَامُ دَامِسًا.

كَانَ خَبَرُ وُجُودِ الْمَأْمُورِ وَوَكِيلِ النِّيَابَةِ فِي الزَاوِيَةِ قَدْ وَصَلَ إِلَى الْخُطِّ مِنْذُ أَنْ تَحَرَّكُوا مِنْ أَسْيُوطَ، فَرَسَمَ خُطَّتَهُ بِأَحْكَامٍ، كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَأْمُورَ لَا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ بِجَبَّانَةِ بَلَدِهِ «مُوشَا»، وَتَحَصَّنَ فِي الْجَبَّانَةِ، مُخْتَفِيًا وَرَاءَ سُورٍ يُطِلُّ عَلَى الطَّرِيقِ وَيُخْفِيهِ عَنِ الْعَيُونِ، وَمَا أَنْ لَاحَتِ الْقَافِلَةُ حَتَّى فُوجِئَ رُكَّابُهَا بِوَابِلٍ مِنَ الرِّصَاصِ، وَأَصِيبَ جَمِيعٍ مَنِ كَانُوا بِالسَّيَّارَتَيْنِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ، مَا عَدَا ضَاطِبَ نَقْطَةِ دَرْنَكَةِ، الَّذِي احْتَمَى بِقَاعِ السَّيَّارَةِ بِسُرْعَةٍ، وَأَصِيبَ الْمَأْمُورَ بِأَرْبَعَةِ أَعِيرَةٍ نَارِيَةٍ فِي جِدَارِ الْبَطْنِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ سَرِيعَ الْخَاطِرِ؛ فَانْتَزَعَ الْبِنْدَقِيَّةَ مِنَ الْأَوْمَبَاشِي الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ أَمَامَهُ، وَفَتَحَ بَابَ السَّيَّارَةِ، وَأَخَذَ يُطْلِقُ الرِّصَاصَ بِاسْتِمْرَارٍ عَلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي انْطَلَقَتْ مِنْهُ الرِّصَاصَاتُ الَّتِي أَصَابَتْهُ، وَتَوَهَّمُ الْخُطَّ أَنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي تَوَاجَهَهُمْ كَبِيرَةُ الْعَدَدِ، قُوَّةُ السَّلَاحِ؛ فَفَرَّ مَعَ رَجَالِهِ هَارِبِينَ مِنَ الْجَبَّانَةِ إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي خَلْفَهَا، وَلَوْ لَا رِصَاصَاتُ الْمَأْمُورِ الْيَتِيمَةِ لَقُتِلَتِ الْقُوَّةُ عَنْ آخِرِهَا...

وَعِنْدَمَا هَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ أُحْصِيَتِ الْخَسَائِرُ؛ سَقَطَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْقَافِلَةِ قَتَلَى: كَاتِبُ النِّيَابَةِ إِمَامُ أَفْنَدِي الشَّحَاتِ، وَصَبِيُّ السَّائِقِ، وَالْمُتَّهَمُ الْمَسْكِينُ مُحَمَّدُ مُحَمَّدِ زَنَاتِي، الَّذِي أَصْدَرَ الْخُطَّ حُكْمًا بِإِعْدَامِهِ قَبْلَ أَنْ يُحَاكَمَ وَيُدَانَ.

وفيما عدا هذا، فإن المأمور أصيب بأربع رصاصات، وأصيب وكيْلُ النيابة برصاصة في ذراعه، وأخرى في جنبه، وأصيب أومباشي المباحث برصاصة في مؤخرة رأسه، أمّا سائقُ سيارَةِ المركز فقد جاءت الرصاصة في جنبه الأيمن، وكان من نصيب أومباشي الهجّانة، وأومباشي السّواري أربع رصاصاتٍ لكلٍّ منهما، توزّعت بين الفخذ والسّاق والوجه...

وتحمّل المأمور ووكيلُ النيابة على نفسيّتهما، وسارا والدّماء تنزفُ من جروحهما نحو كيلومتريْن حتى وصلّا إلى بلدة «دير ريفا»، ولمّا لم يَكُن بها تليفون فقد عَهِدَا إلى أحد الخُفراء بالذهاب إلى بر درنكة، وهي تبعدُ نحو كيلومتريْن آخرَين، حيث أبلّغ الحادِث من تليفونها إلى المديرية... وانقلبت الدُّنيا...

الفصل الخامس الجيش يُحاربُ الخطَّ

انقلبت الدنيا...

اهتمَّ مدير أسبوط عزيز أباطة باشا بالحادث في الحال، وقَدِمَ على رأس قُوَّةٍ كبيرة -هو والحكمدار وكبار رجال الإدارة- إلى دير ريفا، ومعهم عَرَبَاتُ إسعافٍ، وأطباء، وثِقَلُ القتلى والمصابون على الفور إلى المستشفى، فتبيَّن أن ثلاثة منهم في حالةٍ خَطِرةٍ، وأن الباقي حالتهم متوسّطة.

ووصلت الإشارة التليفونية من درنكة إلى الإسكندرية في نفس الليلة، وكان الوقتُ صيفًا، وكُلُّ المسؤولين في مصر يُصَيِّفون على شاطئ البحر المتوسط في عاصمة المملكة الثانية.

وأخطَرُ النائب العام محمود منصور بك بالحادث بعد ساعاتٍ من وقوعه؛ فانزعج بشدَّة، وخاصَّةً أن أحد الذين أصيبوا فيه كان وكيل نيابة بأسبوط، فاتَّصل على الفور بمدير الأمن العام، والأفوكاتو العمومي، ومدير إدارة التفتيش- وأخطرهم بما حدث، وصرَّح للصحفيين بأنه تأثَّر جدًا لهذا الحادث المُزعج، وأنه اعتزم السَّفر بنفسه للإشراف على التحقيق.

وبعد لحظةٍ كان رئيس الوزراء ووزير الداخلية إسماعيل صدقي باشا يطلب النائب العام للاجتماع، وفي مقرِّ رئاسة الوزارة بـ«بولكلي» عُقِدَ اجتماعٌ رأسه صدقي باشا، وحَصَرَه: بدوي خليفة باشا وكيل وزير الداخلية، ومحمود غزالي بك مدير الأمن العام، فضلًا عن النائب العام محمود منصور. وطرحَ المُجتمِعون المسألةَ للنقاش؛ كان مغزى الحادث واضحًا، فكلُّ ما ارتكبه الخطُّ من جرائم قبل ذلك في ناحية، وهذه الحادثة وحدها في ناحية أخرى؛ فإن هَجَمَةَ العصابة قد وُجِّهَت هذه المرَّة إلى الحكومة نفسها؛ إنها خروجٌ صريح على سُلطانها، وتمرُّدٌ علنيٌّ على قوانينها، ثم إنها دعوةٌ للنزال، وتحدٍّ، وليس أمام الحكومة سوى أن تختار بين أن تتقاعسَ وتتجاهلَ، فتُفَرِّقَ بذلك بِحقِّ الخطِّ في كُلِّ ما يفعله، وتُسَلِّمَ له على طول الخط- وبين قبول التَّحدِّي، ومُواجهَةِ الخطِّ، وليَكُنْ ما يكون...

أمَّا بالنسبة لصدقي باشا فقد أخذت الحادثة بالذات دلالاتٍ أعمق؛ فالرجل كان مشهورًا بأنه «ديكتاتورٌ قويُّ الشَّكيمة»، وقد بنى هيئته وسُمتَّته كُلُّها خلال حُكمه لمصر في أعوام 1930-1933 على أساس هذه القُوَّة، التي

مَكَتَهُ مِنْ أَنْ يَقْهَرُ كُلَّ الْمُعَارِضِينَ لِحُكْمِهِ، مِنْ طَلَبَةِ وُغْمَالٍ وَأَحْزَابٍ وَصُحُفٍ، وَكَانَ قَدْ أَعْلَنَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أَيَّامَهَا أَنَّهُ سَيَصُونُ الْأَمْنَ الْعَامَ أَيَّامًا كَانَتْ التَّضَحِّيَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ يُبَالِي فِي هَذَا بِالرَّصَاصِ؛ يُطْلِقُهُ الْبُولِيسُ عَلَى الْمَظَاهِرَاتِ، فَيَسْقُطُ قَتْلَى وَيَمُوتُ شَبَابٌ، فَضْلًا عَنِ السَّجُونَ وَالْمُعْتَقَلَاتِ، وَإِغْلَاقِ الصُّحُفِ، وَتَوَقُّعِ الْحُجُوزَاتِ عَلَى مُمْتَلَكَاتِ خُصُومِهِ وَبَيْعِهَا جَبْرِيًّا، وَكَانَ صَدَقِي يَحَاوِلُ بِكُلِّ هَذَا أَنْ يُثَبِّتَ لِلإِنْجِلِيزِ أَنَّهُ رَجُلُ الثَّلَاثِينَاتِ الْقَوِيُّ، وَأَنَّهُ كَفِيلٌ بِأَنْ يُوَقَّعَ مَعَهُمْ مُعَاهَدَةً، وَيَضْمَنَ تَنْفِيدَهَا، وَصَحِيحٌ أَنَّهُ لَمْ يَنْجَحْ فِي هَذَا، لَكِنَّهُ كَانَ قَدْ اقْتَنَعَ بِالْفِعْلِ بِأَنَّهُ رَجُلٌ قَوِيٌّ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَقْبَلَ أَنْ يَتَحَدَّى أَحَدُ حُكُومَتِهِ الثَّانِيَةِ بِهَذَا الشَّكْلِ الْمُرْعِبِ، خَاصَّةً وَأَنَّهُ كَانَ يُمَهِّدُ لِمُفَاوَضَاتٍ جَدِيدَةٍ مَعَ الإِنْجِلِيزِ، وَالْجَرَائِمِ السِّيَاسِيَّةِ تُقْلِقُهُ وَتُزْعِجُهُ، وَجَاءَ نَشَاطُ الْخُطِّ وَكُلُّ أَوْلَادِ اللَّيْلِ لِيَزِيدَ الطِّينَ بَلَّةً؛ لِأَنَّهُ كَانَ دَاعِيًّا لِلشُّكِّ فِي قُدْرَةِ رَجُلِ الْأَرْبَعِينَاتِ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ قُوًّا كَمَا كَانَ.

وَانْتَهَى الْاجْتِمَاعُ، وَفِي الْفَجْرِ هَبَّتْ فِي مَطَارِ مَنْقِبَادِ (مَطَارٌ حَرْبِيٌّ قَرِيبٌ مِنْ أَسْيُوطَ) طَائِرَةٌ ثَقُلَ وَفَدًا مِنَ الْكِبَارِ: وَكَيْلُ وَزَارَةِ الدَّخْلِيَّةِ، وَالنَّائِبُ الْعَامِ، وَمَدِيرُ التَّفْتِيشِ، وَرُؤَسَاءُ الْمُبَاحَثِ.

وَانْتَقَلَ الضُّيُوفُ إِلَى مَكْتَبِ مَدِيرِ أَسْيُوطَ الشَّاعِرِ عَزِيزِ أَبَاطَةَ بَاشَا، وَعَقَدُوا اجْتِمَاعًا طَوِيلًا فِي مَكْتَبِ الْمَدِيرِ، حَضَرَهُ مَعَهُ عَدَدٌ مِنَ كِبَارِ الْمَسْئُولِينَ فِي أَسْيُوطَ.

وَكَانَتْ شَبْكَةُ الْخُطُوطِ التَّلِيفُونِيَّةِ لِلْبُولِيسِ قَدْ أَرْدَحَمَتْ بِإِشَارَةٍ تَتَضَمَّنُ أَنْبَاءَ الْحَادِثِ، نَقَلَتْهُ إِلَى كُلِّ نَقْطِ الْبُولِيسِ فِي أَنْحَاءِ الصَّعِيدِ؛ لِلْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ، وَوَصَلَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى قَرْيَةِ «بَنِي قَرَّةَ»، إِحْدَى الْقَرْيَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ أَسْيُوطَ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهَا الْمُؤَلَّزِمُ أَوَّلُ مُحَمَّدٍ السَّعِيدِ هَلَالٌ، ضَابِطُ النَّقْطَةِ، بِاعْتِبَارِهَا إِشَارَةً رَوْتِينِيَّةً؛ مَجَرَّدَ خَبَرٍ لِلْعِلْمِ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ، وَلَمْ يُفَكِّرْ لِلْحَطَّةِ أَنْ هَذِهِ الْإِشَارَةُ سَتَحَرِّمُهُ النَّوْمَ وَالرَّاحَةَ لِمَدَّةٍ عَامٍ كَامِلٍ بَعْدَ هَذَا التَّارِيخِ، وَسَتَنْقِلُهُ مِنْ نُقْطَتِهِ الْهَادِثَةِ نَسْبِيًّا إِلَى أَدْغَالِ أَسْيُوطَ الرَّهْبِيَّةِ، وَعَالَمِ أَوْلَادِ اللَّيْلِ الْغَرِيبِ، وَأَنَّهُ أَصْبَحَ طَرَفًا فِي ظَاهِرَةٍ مُعَقَّدَةٍ، تَنْسِجُهَا عَوَامِلُ قَنَاءٍ فِي نِظَامٍ كَانَ قَدْ أَوْشَكَ عَلَى الْأَفُولِ.

تَرَكَ هَلَالٌ أَفَنْدِيَّ الْإِشَارَةِ وَأَخَذَ يَنْظِفُ مَدْفَعَةَ الرَّشَاشِ، كَانَ قَدْ اشْتَرَاهُ مِنْ أَحَدِ الصُّبَّاطِ الْإِنْجِلِيزِ بَعْدَ جُنَيْهَاتِهِ، وَأَخْفَاهُ لَدَيْهِ. كَانَ السَّلَاحُ الرَّسْمِيُّ يَبْدُو مُضْجِكًا وَلَا فَائِدَةً مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْعَسِيرِ عَلَى الْحُكُومَةِ أَنْ تَزُودَ صُبَّاطَهَا بِسِلَاحٍ يَحْمِيهِمْ فِي غَابَةِ الْوَحُوشِ وَأَوْلَادِ اللَّيْلِ، فَعَلَى مَنْ يَسْتَطِيعُ مِنْهُمْ أَنْ يُدَبِّرَ لِنَفْسِهِ سِلَاحًا أَفْضَلَ فَالْوَاجِبُ يَفْرِضُ أَنْ يُبَلِّغَ الْإِنْسَانَ عَنْ هَذَا السَّلَاحِ، وَأَنْ يَسْتَخْرِجَ تَرْخِيصًا بِهِ، وَلَكِنْ مَنْ يَفْعَلُ الْوَاجِبَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ؟ وَمَا

الصَّرَر في أن يحوز إنسانٌ مَدْفَعًا، إنه يَسْتَخْدِمُهُ في أداء واجِبِهِ، وهذا كُلُّ شَيْءٍ.

في تلك اللحظة كان المجتَمعون في مكتب مدير أسيوط، ما زالوا مُسْتَمِرِّين في بحث الموقف. كانت المسألة مُخْجَلَةً بالفعل، لدرجه أن الصحفيين عندما سألوا صدقي باشا عن الحادث اضطَرَّ أن يَلْتَمِسَ عُذْرًا لفشل البوليس في القبض على الجُناة الذين اعتدوا على رجاله، بِصَرَفِ النَّظَرِ عن أنهم تَعَرَّضُوا لرصاصهم، وهُزِمُوا في معركةٍ أمامهم، وجاء تصريح صدقي باشا لمندوب «المصري» حَجُولًا، قال: «لقد كان لِطُغْيَانِ النَّيْلِ في أسيوط دَخْلٌ كبيرٌ في الحادث؛ إذ اضطَرَّ الْمُعْتَدِي عليهم إلى السَّير بالسيَّارة عن طريق الجَبَل، فوقَّع الحادثُ من الأشقياء المُسلَّحين بِأَسْلِحَةٍ من مُخلفات الحرب، وهي أقوى من أسلحة البوليس... كما أن الفَيْضَانَ سَاعَدَ الجُناة على الهرب».

وقرأ هلال أفندي تصريحَ رئيس الوزراء، وابتسم وهو يَتَحَسَّسُ مَدْفَعَهُ الرَّشَّاش؛ «ها هو رئيس الوزراء يَعْتَرِفُ بأنَّ أسلحة العصابات أَكْثَرُ فاعِلِيَّةً من أسلحة البوليس، لكنه لا يعلم أن لَدَيَّ مَدْفَعًا رَشَّاشًا».

وفي تلك اللحظة دَقَّ جرس التليفون بشدَّة. رفع هلال السَّماعة وَرَدَّ: لم يكن صوتُ المُتَكَلِّم غريبًا عنه، إنه حسن كحيل، مدير مكتب عزيز باشا أباظة:

- سعادة الباشا عايزك دلوقتي حالًا يا هلال أفندي...

نظر هلال أفندي إلى ساعته، وقال:

- الساعة دلوقتي ثلاثة صباحًا.. والمواصلات من بني قرة لأسيوط مقطوعة.

- البوكس فورد جايلك دلوقت.. استعِدّ..

- حاضر فيه إيه؟

- حتعرف أمَّا تيجي.. وعلى فكرة ما تنساش المدفع.. هأته معاك...

وضع حسن كحيل السَّماعة قبل أن يَرُدَّ هلال أفندي؛ إن حكاية المدفع الرَّشَّاش معروفة، وكاد يُنْكِرُ على الفور أن لديه شَيْئًا من هذا، وفكَّر لحظةً في المسألة، ثم قَرَّر أن يأخذ المدفع معه، وليَكُن ما يَكُون.

ووصل «البوكس فورد» إلى مبنى مديرية أسيوط، وصعد هلال أفندي مُسرِّعًا سُلَّامَ المديريَّة إلى مكتب المدير، واستقبله حسن كحيل، واستأذن منه لَحْظَاتٍ دَخَلَ خلالها إلى المدير، ثم عاد ودعاه للدخول.

فوجئ هلال أفندي عندما وَجَدَ نفسه في مُوَاجَهة أكبر رؤوس وزارة الداخلية، وفي كلماتٍ قلائلٍ أخطره عزيز باشا بأنَّ المؤتمَر قد اتَّفَق على تكليفه بمُطاردة الخطِّ وعِصَابَتِهِ.

للوهلة الأولى ذُهِل هلال أفندي، كان الخطُّ اسمًا رهيبًا في دوائر البوليس، والمشكلة ليست فقط في أنَّ مَنْ يَتَصَدَّى لمُطارَدَتِهِ يُعَرِّض نفسه للمَوْتِ بنسبة تسعين في المائة، ولكن أيضًا في أنَّ الخطُّ له هَيْبَةٌ وَرَهَبَةٌ ليست لِقُوَّات البوليس، وأهم شيء أنه سوف يَهْرَأ من مُطارِدِهِ، فإذا لم يقتلهم بالرصاص قَتَلَهُم بِالْمَقَالِبِ وَالسُّخْرِيَةِ.

وأفاق هلال أفندي من خواطره على يد «الباشاوات» وهم يشدُّون على يَدِهِ، مُؤَاوِرِينَ وَمُؤَيِّدِينَ وَمُشَجِّعِينَ. وأضاف «الباشا المدير» أنه مُستَعِدٌّ لتلبية كُلِّ طَلْبَاتِهِ من رجالٍ وأسلحةٍ وَعَتَادٍ، وأنه «تحت أمرِهِ».

وخرج هلال أفندي مُتَعَتِّرًا في خطواته، وَهَرَشَ رأسه مُفَكِّرًا كيف يبدأ؟! وقادته خُطواتُهُ إلى مستشفى المركز، حيث زار المصابين، ولعلها كانت محاولةً منه لوضع نفسه في قلب الهُشِكِلَةِ. كان يريد أن يحصل على مُثيرٍ قَوِيٍّ وَمُسْتَفْزِزٍ ليدفع معركته مع الخطِّ إلى الأمام، وصافح اللواء أبو السعود مأمور المركز، والأومباشية المصابين، ووَكِيل النِيَابَةِ.

ومن المستشفى انتقل إلى مبنى إحدى شركات التأمين، وعلى حَدِّ ما يقول هو نَفْسُهُ في مُذَكَرَاتِهِ، أنَّ هذه الفكرة كانت على رأس الأفكار التي تَوَلَّدَت عن تكليفه بمطاردة الخطِّ: «كنتُ مُوقِنًا تمامًا -وقبل أن تبدأ المعركة- أنني سألقى خَتْفِي فِيهَا؛ فَرَأَيْتُ تَامِينَ مُستقبل زوجتي وطفلينا، ولم يكن هذا الخَاطِرُ يعني أنني سَلَمْتُ بالهزيمة مُقَدِّمًا، على العكس؛ كنتُ مُؤْمِنًا بأنني إذا خسرت حياتي فإن ذلك سيكون لِيَخْسِرَ الخطُّ المَعْرَكَةَ».

قبل الظَّهْر كان هلال أفندي قد انتهى من إجراءات التأمين على حياته، ولم يكن تَوَقُّعُهُ الخَطَرَ تَهْوِيلًا في المسألة؛ ذلك أن حوادث اعتداء أولاد الليل على البوليس كانت شَائِعَةً في ذلك الوقت، وكانت إحدى خصائص مديرية أسيوط، وقد أشار إليها عزيز أباطة باشا مدير أسيوط في مُذَكَّرَةٍ رَسْمِيَّةٍ رَفَعَهَا في شهر مايو 1945، وقبل وقوع حادث الزاوية بأكثر من عام، فقال في هذه المُذَكَّرَةِ:

«من المظاهر التي توجَد بأسيوط ولا توجد -لِحُسْنِ الخَطِّ- بالأقاليم الأخرى- تَعَرُّضُ بعض المجرمين لرجال الحفظ بالاعتداء عليهم.. ولقد وَقَعَت بالمديرية حوادثٌ كثيرةٌ اعتدى فيها المجرمون على رجال البوليس أثناء قيامهم بواجبهم من إجراء تفتيش، أو بَحْثٍ عن مُجرِمٍ، وهذه الحوادث لها خُطُورُهَا على الأمن العام، وتتطلب علاجًا نَاجِعًا، عاجلاً، لتدعيم هَيْبَةِ الحكومة أمام الأهليين، وبِخَاصَّةٍ في نظر أمثال هؤلاء الأشقياء العابثين بالأمن».

وبدأ هلال أفندي بعد ذلك يختار مُعاونيه. اتَّفَقَ مع مدير أسبوط على تكوين أوَّل فرقةٍ من نوعها، سُمِّيت «فرقة المُطاردة» وتقرَّر أن يتفرَّغ أعضاء هذه الفرقة جميعهم لمَهْمَةٍ واحدة هي مُطاردةُ الخُطّ، وانتقى هلال أفندي أفرادها السَّتينَ واحدًا واحدًا، ووَضَعَ شرطًا واحدًا لعضويتها، هو أن يكون العضو من رجال البوليس المشهورين بالعُنف والشراسة، وتجاوز القانون؛ ذلك أن رجال البوليس العاديين لا يصلحون لمُطاردة الخُطّ؛ فمع مُجرم شديد الذكاء بالغِ القسوة والعُنف لا بُدَّ من رجالٍ من طرازٍ خاص؛ فلا يفلُ الحديّد إلا الحديد.

وانتهت مَهَمَّات التَّخطيط والإعداد لاقتناص الخُطّ.

كانت الدَّولة قد قرَّرت أن تُؤكِّدَ كُلَّ هَيْبَتِها، وتَمَثِّلَ ذلك في عَظِيفها على ضحايا الحادث، فعند تشييع جنازة إمام أفندي الشَّخَّات، كاتبِ النيابة القَتيل، اشترك في جنازته -ببلدته الزقازيق- رجالُ القضاء والإدارة، وأرسل وزير العدل نائِبًا عنه لحضور الجنازة، كما أرسل صدقي باشا -بصفته وزيرًا للداخلية- مندوبًا عنه لِنَفْسِ العَرَض، واهتمَّ النَّائِبُ العام بأمر القَتيل؛ فرفع مُذَكَّرَةً إلى وزارة العدل يَطلبُ فيها تقديمَ مَعاشٍ شَهرِيٍّ لوالِدَتِه؛ لأنَّ القَتيلَ كانَ وَحيدَها، ويقوم بالإنفاق عليها، وتَبَرَّع اتِّحادُ المُوظَّفين بِمُرتَبٍ ثلاثة أشهر للأُمِّ المَكْلومة.

وأفرَدَت الصُّخُفُ صَفَحاتِها للحادث، وزارَ مندوبوها المُصابين، كما زارهم مُمَثِّلون للحكومة.

وما كاد صباح يوم الاثنين 17 سبتمبر 1946 يُشرقُ حتى بدأت الحكومة مُظَاهَرتَها الغربية لإثبات القُوَّة؛ استدعى مُدير أسبوط عزيز باشا أباطة قائِدَ المنطقة العسكريَّة في منقباد، وطلَّبَ مَعونَتَه، ووضع قائِدُ المنطقة تحت إِمْرَتِه أَلْفَ جُنْدِيٍّ من الجيش، وعددًا من السِّيارات العسكريَّة وقُوَّات السَّواري، قَصَلًا عن وحدات لاسلكي، ودَبَّاباتٍ صَغيرة، وتقرَّر أن تُطَبَّقَ القُوَّات على موشا؛ وكرَّ عَوَّاد من جميع الجهات...

وانتشرت القُوَّات في الجبال وبواير المياه وزراعات الذرة، واستمَرَّت الحَمَلَةُ لمدَّة يَومَين، وفي يوم الثلاثاء 18 سبتمبر تَشَرَّت كُلُّ الصُّخُفِ الصبَاحِيَّة ما يلي:

«جاءنا من وزارة الداخلية أنها بناءً على طلب حضرة صاحب السعادة مدير أسبوط تدفع مكافأة قدرها ألف جنيه مصريٍّ لكلِّ مَنْ يُمكن البوليس -على أيَّة صورةٍ من الصُّور- من صَبْطِ كُلِّ من الشَّقِيَّين: محمد محمود منصور -الشهير بالخُطّ-، وعَوَّاد علي صالح، ويكفل البوليسُ المُحَافَظَةَ على سِرِّ مَنْ يقوم بالتَّبلغ».

وكان واضحًا من لهجة البلاغ أن الوزارة ليست لديها معلومات كافية عن الخط وعوّاد، وأنها لذلك تُعَلِّق عن إعطاء المكافأة لمن يُقدِّم أيَّ معلومات. ومن ناحية أخرى، فالإعلان يُطمئنُ المُبلِّغين على حياتهم، ويؤكد أنه سيُحافظ على السرِّ، كأنه يردُّ على ما كان مُتواترًا من إشاعات من أن الخط يعلم كلَّ صغيرة وكبيرة في دوائر البوليس.

لكنَّ مُظَاهرة البوليس الصَّخمة جاءت بنتيجةٍ من حيث لا يتوقَّع أحد؛ فقد أثَّرت في قلب شيخ خُفراء موشا، حليف عوّاد، وعَيَّنه على تحرُّكات البوليس. كان عوّاد قد اعتكف «اعتكافًا سياسيًا» عَقِبَ إصرار الخط على تنفيذ عملية الزاوية، وعندما تَمَّت العملية وأحدثت هذه الأصداء الواسعة أدرك الخط خطاه، وشَعَرَ بأن الواجب يَفْرِضُ عليه استرضاء عوّاد، ومناقشة الأمور معه، خاصَّةً وقد أصبحت العصاة في خطر، بعد أن استُفِزَّت الحكومة لِهيَّبتها وكرامتها، استفزازًا يفوق كلَّ تصوُّرٍ، لدرجة أنها حرَّكت قوَّات كبيرة من الجيش لمُحاربة فردٍ واحد، هو الخط.

وهبط الخطُّ من الجبل، وتوجَّه إلى موشا، حيث يعتكف عوّاد بين أحضان نفيسة، واجتمع به اجتماعًا طويلًا، ثم خرج عائدًا إلى الجبل، وترك محمد تَمَّام، على أن يلحق الجميعُ بالجبل في صباح اليوم التالي.

ووصلت أنباء للبوليس بأن عوّاد والخطُ كليهما في موشا، وصلَّت الإخبارية من شيخ الخُفراء حليف الخط وعوّاد، وكانت خيانية واضحة، لكن لها ما يُبرِّرها؛ كانت المُخالقة بين الشيخ وعوّاد تُنصُّ على ألا تتركب العصاة جرائم في دائرة مَشِيخَتِه، مُقابل إبلاغ العصاة بكلَّ تحرُّكات البوليس المُوجَّهة ضدها، وتضمَّنت شروطُ التَّحالف أيضًا بعضَ العطايا الأخرى.

لكن شيخ الخُفراء كان قد بدأ يُدركُ بعد عملية الزاوية أن العصاة تَنكِّبُ السُّبُل، وأنها تحفر قَبْرَها بنفسها، وفي نفس الوقت فإن الجائزة التي رُصِدَت للقبض على الرَّجُلَيْن تُغري بِقُصِّ التَّحالف.

وبمجرَّد وصول الإخبارية إلى المديرية قامت قوَّاتٌ كَثِيفَةٌ من رجال الأمن، وفرقة المُطاردة بكامل أفرادها، كلُّ هذا بالإضافة إلى قوَّات الجيش الصَّخمة، وفي الساعة الثامنة صباحًا كانت القوَّات قد دَخَلت في زمام موشا، وعلى الفور قام شيخ الخُفراء جاريًا، وتوجَّه إلى منزل فلتاؤوس عوض، قلعة عوّاد، وعُشَّ عَرايمه بنفيسة، وَجَدَ البابَ مَفْتُوحًا، نادى:

يا شيخ عوّاد.. يا شيخ عوّاد..

أطلَّ عوّاد من نافذة قلعته، عرف أن طالِبَه هو حليفه وصديقه شَيْخُ الخُفراء:

- أهلاً وسهلاً...

عَايَرَكَ فِي كَلِمَةٍ.

نَزَلَ الشَّيْخُ عَوَّادٌ مِنَ الدَّوَرِ الثَّانِي، دَخَلَ شَيْخَ الْخُفَرَاءِ إِلَى بَاحَةِ الدَّارِ، ظَهَرَ عَوَّادٌ عَلَى رَأْسِ السَّلَامِ وَهُوَ يَقُولُ: «مَرْحَبًا...»، لَمْ يُتِمَّ كَلَامَهُ، عَاجَلَهُ شَيْخُ الْخُفَرَاءِ بِأَعْيَرَةٍ نَارِيَةٍ؛ فَأَزْدَتْهُ قَتِيلًا فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتِي كَانَتْ قَوَّاتِ الْمُطَارِدَةِ تَتَقَدَّمُ فِي مَدْخَلِ الدَّرَبِ إِلَى دَارِ عَوَّادٍ...

وَهَكَذَا قَوَّتْ شَيْخُ الْخُفَرَاءِ الْفُرْصَةَ عَلَى الْبُولِيسِ لِإِحْرَازِ أَوَّلِ نَصْرِ حَقِيقِيٍّ فِي مَعْرَكَتِهِ ضِدَّ الْخُطِّ.

وَقَنَّعَ الْبُولِيسُ بِاسْتِلَامِ جُثَّةِ عَوَّادٍ، وَقَفَّشَ الْمَنْزِلَ الَّذِي كَانَ يَخْتَبِئُ فِيهِ، فَعَثَرَ عَلَى مُحَمَّدٍ تَمَّامٍ، ابْنِ أَخِيهِ، وَوَلِيِّ عَهْدِهِ، وَقَبَضَ عَلَى نَفِيسَةٍ، الَّتِي نَظَرَتْ إِلَى جُثَّةِ عَوَّادٍ وَأَطْلَقَتْ زَغْرُودَةً عَرِيضَةً تُؤَكِّدُ بِهَا فَرَحَهَا لِخَلَاصِهَا مِنْ قَضِيْلَةِ شَيْخِ الْمَنْسَرِ: عَوَّادِ عَوَّادٍ صَالِحٍ.

وَعَثَرَ الْبُولِيسُ عَلَى بَعْضِ الْأَسْلِحَةِ، وَطَلَقَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَطُيِّرَ الْخَبْرُ إِلَى مُدِيرِ الْمَدِيرِيَّةِ، وَكَانَ مَدِيرُ الْأَمْنِ الْعَامِ مَا زَالَ مُقِيمًا بِأَسْيُوطَ، وَانْتَقَلَ إِلَى مَكَانِ الْحَادِثِ وَمَعَهُ الْأَفْوَكَاتُ الْعُمُومِيَّةُ وَرئيسُ النِّيَابَةِ وَوَكِيلُ النِّيَابَةِ الْأَوَّلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَالِحٍ، الَّذِي تَوَلَّى فِيْمَا بَعْدَ مَنْصَبِ الْمُدَّعِي الْعَامِ أَمَامَ مَحْكَمَةِ الثَّوْرَةِ فِي عَامِ 1954، وَاسْتَقْلَلَ الْجَمِيعُ مَرْكَبًا شِرَاعِيًّا قَادَهُمْ إِلَى مَوْشَا؛ لِأَنَّ رِيَّ الْجِيَاظِ كَانَ يُحِيطُ بِالْقَرْيَةِ أَيَّامَهَا.

وَطُيِّرَ الْخَبْرُ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ بَرَقِيًّا، وَعَلِمَ بِهِ صَدِيقِي بَاشَا شَخْصِيًّا، وَأَحْدَثَ خَبْرُ مَصْرِعِ عَوَّادٍ أَصْدَاءً وَاسِعَةً، فَاهْتَمَّتْ بِهِ الصَّحَفُ، وَحَرَصَ الْبُولِيسُ عَلَى أَنْ يُرَوِّجَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي اصْطَادَ عَوَّادًا، كَمَا حَرَصَ عَلَى التَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ رَئِيسَ الْعَصَايَةِ الْحَقِيقِيَّ هُوَ عَوَّادٌ، وَأَنَّ الْخُطَّ هُوَ مَجْرَدُ مُسَاعِدٍ لَهُ، وَكَانَتْ الْفِكْرَةُ فِي هَذَا كُلِّهِ هُوَ طَمَآنَةُ النَّاسِ، وَتَشَرُّ جَوٍّ مِنَ الثَّقَّةِ فِي قُدْرَةِ الْبُولِيسِ...

وَتَشَرَّتِ الصُّخُفُ مَعْلُومَاتٍ تُؤَكِّدُ هَذَا، وَكَانَتْ رَوَايَتُهَا لِلْحَادِثِ مُتَفَاوِتَةً، وَكُلُّهَا مُخَالِفَةٌ لِلْحَقِيقَةِ، قَالَتْ «الْمَصْرِي» مَثَلًا:

«وَفِي يَوْمِ 18 الْحَالِي اتَّصَلَ شَيْخُ خُفَرَاءِ بَلَدَةِ مَوْشَا بِسَعَادَةِ عَزِيزٍ أَبَاطَةَ بَاشَا مَدِيرِ أَسْيُوطَ، وَأَبْلَغَهُ بِوُجُودِ الشَّقِيَّ عَوَّادٍ فِي أَحَدِ مَنَازِلِ الْقَرْيَةِ؛ فَأَسْرَعَ سَعَادَتُهُ إِلَى هُنَاكَ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ حَاصَرَتْ الْبَلَدَةَ، وَمَنْزَلَ الشَّقِيَّ بِالذَّاتِ، حَصَارًا شَدِيدًا، وَكَانَتْ السَّاعَةُ الثَّامِنَةُ عِنْدَمَا فُوجِيَ عَوَّادٌ بِهَذَا الْخَطَرِ الَّذِي حَاقَ بِهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَهَبَّ مِنْ تَوَمِهِ فِي الشَّرْقَةِ، وَأَخَذَ يُطَلِّقُ الرِّصَاصَ مِنْ بَنْدَقِيَّتِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يُطَلِّقْ سِوَى تِسْعِ رِصَاصَاتٍ طَائِشَةٍ، لَمْ تُصِبْ أَحَدًا، حَتَّى عَاجَلَهُ الْجَاوِشُ مُحَمَّدُ سِرَاجٍ، وَشَيْخُ خُفَرَاءِ مَوْشَا بِخَمْسِ رِصَاصَاتٍ اسْتَقَرَّتْ جَمِيعُهَا فِي صَدْرِهِ؛ فَخَرَّ صَرِيحًا فِي الْحَالِ».

وفيما بعدُ كتبَ المُفتِّش القضائي تقريرًا عن حادث مصرع عوّاد، حاوّل فيه أن يُؤكّد أنّ عوّاد كانَ واجِدًا من الذين قادوا هجومَ العصاة على مأمور أسبوط ووكيل نيابَتِها، وأكّد التقريرُ أن القوة طالبت عوّاد بتسليم نفسه، وأنه رفض، وأصرَّ على إطلاق الرصاص عليها؛ الأمر الذي أدّى به إلى مُبادَلَتِه إطلاق الرصاص برصاصةٍ من العُمدة، وأخرى من الجاويش محمود سراج...
وكان لا بُدَّ أن يكون تقرير النيابة بهذه الصورة لكي يتغلّب على عشرات المشاكل القانونية التي يُثيرها مَوْتُ عوّاد بهذا الشكل...
وهكذا أثبت الشيخ عوّاد أنه كان مُشكِلةً قانونيّةً في حياته، وفي مماتِه...

الفصل السادس

تِجَارَةُ رَايَحَةِ اسْمُهَا الْخُطُّ

في الوقت الذي كانت فيه قُوَّاتُ الأمن تنشُرُ الأَمْنَ، وتنتشر في كلِّ مكانٍ بحثًا عن الخُطِّ، كانت بعضُ المشاكل قد بدأت تُطَلُّ برأسها.

كانت هناك المشكلة القانونية التي أثارها مَقْتَلُ عَوَّاد، ثم مشكلة اختفاء الخُطِّ نفسه، والإشاعات التي تواترت بأنه قد هاجر عن الصَّعيد كله إلى القاهرة أو الإسكندرية، وفي رواية ثالثة: مرسى مطروح...

وكانت هناك مشكلة ثالثة تعرَّض لها هلال أفندي شخصيًا، ففقد وَصَلَتَه في صباح اليوم التالي لمقتل عَوَّاد رسالة، وكانت الرسالة من الخُطِّ!

والمشكلة القانونية التي أثارها مقتلُ عَوَّاد تتعلق بالكيفية التي قُتِلَ بها، ومُبَرِّرات هذا القتل، فعلى الرغم من أن «صاحب الفضيلة» الشيخ عَوَّاد كان مُجَرِّمًا يُشار إليه بالبنان، وهارِبًا من أحكام بالأشغال الشاقَّة تصل إلى أكثر من نصف قرن، وهي مُدَّةٌ تقارب نحو عُمُرِهِ مَرَّتَيْنِ، فعندما قُتِلَ كان في الخامسة والثلاثين فقط، وبرغم أنه مات وفي عنقه أحكامٌ وعقوباتٌ عن أربعين جناية قُتِلَ أخرى، غير عشرات الجرائم الصغيرة؛ كالتهديد، والابتزاز، والختف، والسَّرِقات بالإكراه... إلخ- برغم كلِّ هذا فإنَّ قَتْلَهُ كان عَمَلًا غَيْرَ قانونيٍّ بِالْمَرَّةِ.

والمسألة ببساطة أن القانون يُحَرِّم الاعتداء على أحدٍ أو قتله إلا في حالاتٍ حَدَّدَهَا، فليَكُنْ عَوَّاد مَن يكون، بَيِّدَ أن السُّلْطَةَ الوحيدة التي تملك حقَّ سَلْبِهِ حَيَاتِهِ هي السُّلْطَةُ القضائية؛ أي حُكْمٌ من أحكام المحاكم، يُصدرها قاضٍ أو اثنان من المستشارين المفروض أنهم مُحايدون تمامًا، ولا يتحيَّزون لأحدٍ بسبب جنسيته أو لونه أو دينه، أو ما اندسَّ برأسيه من أفكاره. ويقوم وكيل النيابة بتقديم مُبَرِّرات الاتهام، ويأخذ المتهم (أو محاميه) فُرْصَةَ الدِّفَاع عن نفسه، كَامِلَةً، ويُقدِّم شهودَه ومستنداته، ثم يصدُرُ الحُكْمُ، ويصبح من حَقِّ المتهم أن يستأنفه إذا شعر أنه ظالِمٌ له، ومن حقه بعد كلِّ لك أن ينقض حُكْمَ الاستئناف أمام محكمة النقض؛ كلِّ هذا قبل أن يُصَيِّحَ حُكْمُ الإعدام نهائيًا، وتُتَّخَذَ الإجراءات للتنفيذ، ويمكن في حالة ظهور أدلة جديدة لها صِفَةُ الجَدِيدَةِ قبل التنفيذ أن تُعادَ المُحاكَمَةُ من جديد.

وصحيحٌ أن وظيفة رجال البوليس هي القبض على المجرمين ومُطَارَدَتِهِمْ، ولكن مَهْمَّتَهُمْ تَنَحَّصِرُ في شيءٍ واحدٍ: هو اعتقال هؤلاء المجرمين أحياء، ووضعهم في السجن، وجمْعُ الأدلة ضِدَّهُمْ، وتقديمها للنيابة

التي تُقدّمهم -مع الأدلة- للقضاء؛ ليُحاكموا، ويُعاقبوا فقط بما تُبَيِّن عليهم بالدليل: العقوبة التي تُصَدِّرها المَحَكِّمة.

والمفروض أن رجال البوليس لا يستخدمون أسلحتهم في «مقاتل»، أي لا يطلقون النار على أجزاء من الجسم تُسبب القتل الفوري، ولا يطلقون النار عليه -أساسًا- إلا إذا اضطروا لذلك، وأن على الضابط الذي يُطارِد مُجرِمًا فائرًا أن يُطلق عليه النار في قَدَميه لكي يعوقه عن الحركة، ويُعتَبَر رَجُلُ البوليس الذي يطلق النار على إنسان في مقتل (كالرأس والبطن) مخالفًا -ما لم يكن ذلك بسبب دفاعه الشرعي عن حياة رجال الضبط-، وهو مُتَّهم.

لكن المعركة النارية التي كان على البوليس أن يَشُنَّها ضد رجال العصابات كانت تدفع بعض أفرادها إلى تصرُّفات غير قانونية، إذا كانوا يحكمون على المسألة بِحُكْم احتكاكهم بالواقع الرَّهيب نفسه؛ فما أكثر ما يصعب إثبات شيء على مُجرِم محترف، وخاصَّة إذا لم تكن له سوابق، كما أن الشهود قد يُجَبِّرون عن الشَّهادة في حقه، وقد يَعَسُر على البوليس جَمْع أدلَّةٍ ضِدَّ المُتَّهم، ثم أن المطلوب دائِمًا أن تتطهَّر البلادُ بأيِّ وسيلةٍ من هذا الوباء.

كان هذا هو منطق هؤلاء. ويذكر الأستاذ يحيى حقي -الذي عمل فترة بالصَّعيد، في محافظة أسيوط- أنه قد تتبَّع وهو هناك «باهتمام أخبارًا كثيرة عن بعض رجال البوليس والإدارة تُروى كالأساطير، ولا يزال لاسمهم دويٌّ في الصَّعيد؛ إذ وجدتُ شُهَرَتَهُم قد قامت على أنهم لم يَأْبَهُوا بالقانون، وماشوا منطق الفلاح، ودَبَّرُوا هم أنفُسَهُم مَقْتَلَ نَفَرٍ مِنْ عُتَاةِ المُجرِمين، هكذا يُقال عنهم، والله أعلم بالحق، ولكنني وجدتُ الفلاحين يذكرون هذه الأسماء، ويحيطونها باحترام وإعجاب شديد».

وعلى كُلِّ الأحوال، فإن المخالفة التي وَقَعَت في مقتل عَوَّاد لم تَصِل إلى حَدِّ التدبير، وقد سُجِّلَت الحادثة في النيابة على أساس أنها «قتلٌ في معركة مع البوليس»، وأن عَوَّاد قام بإطلاق تسعِ رصاصاتٍ فيها؛ ولهذا دُكِر أن الجاويش محمود سراج قد شارك في قتله مع شيخ خُفراء موشا، الذي قبض المكافأة على بلاغه وعلى مشاركته في اغتيال الوحش؛ إذ ليس من حق شيخ الخُفراء أن يقتله مُنْفَرِدًا طالما لم يُقاومَه.

وانطلقت قوَّات الأمن تبحث عن الخُطَّاء، وشَمِلَت عمليَّات البحث الوابورات والمُنشآت الموجودة في النيل، وكان قد نَمَى إلى علم رجال الإدارة أنه اختبأ في إحداها؛ ولذلك فُرِصَت رقابةٌ شديدة على هذه الوابورات.

وقد انتهى هذا كله إلى لا شيء، فلم تستطع قوات المطاردة أن تُحقِّق النصر السريع الذي يَرُدُّ اللطمة التي وَجَّهها أولاد الليل إلى هيبة الحكومة، وبقي الإحساسُ الشديدُ بالذنب الذي ملأ نفوسَ بعض رجال الأمن الذين كانوا

يحتفظون ببقية نَقاءٍ، وبيع طَهر... فلا أحد يستطيع أن يُنكر أن مَقْتَلَ عَوَّاد كان اغتيالاً، وأن شيخ خفراء موشا هو مُجرِمٌ بمقاييس القانون؛ فهو شريكٌ لعَوَّاد في إجرامه، وقَتَلَه في لحظة عَدْرٍ، ومع ذلك فقد كافأته الحكومة، هو الذي كان يجب أن يُقدَّم للمحاكمة بتهمة التَّسَرُّ على مجرمين، وبتهمة قتل شريكه...

ولم تُكن قَوَّاتُ الأمن قد أفادت بعدُ من كلِّ هذا عندما وجَّه الخُطُّ ضربه الثانية إليها، فيعد ستُّ وثلاثين ساعة فقط من تكليف المُلازم محمد هلال بمطاردة الخُطِّ وصَلَّتْ رسالته منه، كان نَصُّها يقول:

«الضابط هلال

قَرِبت أيامك.. استشهد على نفسك وعلى ولدك وعيلتك... الخُطِّ».

ولم تُؤكِّد الرِّسالة أن الخُطَّ يملكُ فَحَسْبُ قُدْرَةٍ على التَّحدِّي والاستهانة، ولكنها أَكَّدَتْ أيضاً أن له حلفاء أقوياء في دوائر الأمن، فحتى هذه اللحظة لم يكن أحدٌ قد عرف شيئاً عن تكليف محمد هلال بمطاردته سوى دوائر مديرية أسبوط، ومع ذلك فإن كلَّ المعلومات المتوقَّرة عن الضابط قد وَصَلَتْ للخُطِّ: اسمه ورُبَّتْهُ وزَوْجَتُهُ وابْنُهُ.

وكان التهديد بالإضرار بأسرة الضَّابط يَعْكِسُ تَصَوُّرَ الخُطِّ للمعركة بينه وبين البوليس، فحتى هذه اللحظة كان الخُطُّ معروفاً بأنه «لا يَسْتَضْعِفُ»، وأنه ليس جباناً في إجرامه؛ قَرِصاؤه لا يَتَّجِه لصدور الضُّعفاء، ولا للنِّساء، أو الذين لا قُوَّةَ لَهُمْ.

وإذ بدأ البوليس بالعَدْرِ فإن الخُطَّ قَرَّرَ أن يُعَامِلَه بنفس أسلوبيه، وأن يُحاربَه حرباً «غير قانونية»، أو «غير شريفة»... لقد كان للخُطِّ نظرات قانونية نافذة، فاعتَبَر -مَثَلاً- أن تَصَرُّفَ مأمور أسبوط مُخَالِفٌ للقانون وتُجاوُزٌ في استخدام السُّلطة؛ فقد أَقَرَّ حسن كدواني أنه أَجَرَ أَرْضَه له، فما الدَّاعي إِذَا لاحتجاز المحصول؟ ولماذا يُخَالِفُ البوليسُ القانونَ، فيقتل عَوَّاد، ويدَّعي أنه دخل معركة ضِدَّه، وهو ما لم يحدث؟ ولماذا يُخَالِفُ البوليسُ القانونَ؟

وإذا كان هذا تفكيره؛ فربَّما كان من المُحتمَل أن يَرُدَّ على «عَدْرِ» البوليس بِعَدْرِ مثله، لا مكان فيه للأساليب الجبانة، وهو قد لجأ إلى هذه الأساليب فقط عندما اتَّبَعَتْ ضِدَّه، وكان هذا أقصى تطوُّرٍ اعتري إجرام الخُطِّ، وحَوَّل مجرى حياته، وأثر بالتالي في أسلوب مواجهته.

كان قائد فرقة المُطاردة قد اتَّخذ له مَقَرًّا ثابتًا في لوكاندة الشامي بأسبيوط، وعَيَّن عَدَدًا من أفراد الفرقة لحراسة مَقَرِّه، وإلى هذا المَقَرِّ كانت كُلُّ الرسائل التي تَرِدُ بشأن الخُطِّ تُحوَّلُ إلى الملازم محمد هلال، الذي بدأ مَهْمَّتَه بفتح كَوَمَةٍ ضخمة من الرسائل، كُلُّها عن الخُطِّ. أَوَّلُ هذه الخطابات كان بتوقيع «عُضُو تَائِب من عصاة الخُطِّ»، وقد جاء فيه أن الخُطَّ قايعُ في أحد البيوت يتلقَّى العزَّاءَ في وكيل عصابته عَوَّاد، وحدَّد الخطاب اسمَ قَرِيَّةٍ تَبْعُدُ ثلاث ساعات عن أسبيوط.

وانتقلت الفرقة بأكملها إلى حيث حدَّد البلاغُ، فلم تجد أحدًا. وتكرَّرت البلاغات: «الخُطُّ ركب مركبًا (حدَّد البلاغُ اسمَها)، ونزل الحوض للهرب»، وعلى الفور قامت الفرقة في عدَّة مراكب، وعُزِّرت ببعض القوَّات التي كانت ما تزال مُعسِكةً بموشا بعد مقتل عَوَّاد؛ لتقص أثر المركب التي حدَّدها البلاغ المجهول، وفنَّشت القوَّة مباني الواورات الموجودة في وسط الحوض المغمور بالمياه، وطلبت المديرية قوَّةً أخرى من الجيش للمساعدة إذا ما حدث تبادلٌ للأعيرة النارية.

وانتشرت القوَّات من درنكة إلى الزواية على طولٍ شاطئ الحوض، واستمَّرت المُطاردةُ حتى السَّادِسَة مساءً، ولم يَظْهَر للخُطُّ أثرٌ.

وبينما القوَّات في انتشارها صَبَّطَت المركبَ التي قيل إنَّ الخُطَّ قد هرب عليها، بجوار درنكة، موطن الخُطِّ لأصلي، وتبيَّن أنها مُستأجرة لأحد تُجَّار بندر أسبيوط، وأنها تحمل عدسًا، لا الخُطَّ!

وتكاثَّرت البلاغات: «الخُطُّ غادر أسبيوط... إنه في القاهرة»، وحدَّد أحدُ الخطابات مكانَ وجوده في مَنزِلٍ مُعَيَّن بشارع محمد علي، تَقَطُّنُه إحدى الرَّاقصات.

واكتشف البوليسُ أن كثيرين قد انتهزوا موضوعَ الخُطِّ للإيقاع بأعدائهم ومُنافسيهم، وفُرصةً لتدبير المَقَالِبِ المَرِحة.

وجمع هلال أفندي كَوَمَةَ الرِّسائل وأشعل فيها النَّارَ مَرَّةً واحدة...

ولاحظ قائدُ فرقة المُطاردة أيضًا أن أبناء البوليس تَصِلُ إلى الخُطِّ أَوَّلًا بأوَّلٍ، وأن تَحَرُّكات قُوَّاته ضدَّ العصاة كُلِّها مَكشوفة؛ وهو ما مَكَّنَه من الهرب بأسرع ممَّا يتوقَّع أحد؛ فأصدر تعليماتٍ مُشدَّدةً لرجاله بعدم التَّرتُّر، والحيطة في كلِّ تَحَرُّكاتهم.

ولجأ البوليس إلى عمليَّاتٍ إرهابية محسوبة، فقبض على صالحين عبد الراضي، أحد أفراد الصف الثاني بعصاة الخُطِّ، وكان معروفاً بأنه حلقة الاتصال بين الأهالي والعصاة في جمع الإتاوات، وإرسال المُؤن والذخيرة والأخبار السريعة لتحذير العصاة من رجال الإدارة.

وَأَلْقَى الْبُولِيسُ الْقَبْضَ عَلَى «خَالْتِي فَضَّة» وَالْدَّة الْخُط؛ لِشَكِّهِ فِي أَنْ بَعْضُ أَعْوَانِهِ كَانُوا عَلَى اتِّصَالٍ بِهَا، وَأَنَّهَا هِيَ الْآخَرَى كَانَتْ تَقُومُ بِتَبْلِيغِهِ مَا يَصِلُ إِلَيْهَا مِنْ أَنْبَاءِ تَحَرُّكَاتِ الْقَوَاتِ ضِدَّهُ...

وَلَكِنْ كُلُّ هَذَا لَمْ يُفِضْ إِلَى شَيْءٍ...

لَقَدْ حَقَّقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَالِحٌ (وَكِيلُ النِّيَابَةِ) مَعَهُمَا، وَبِالطَّيْعِ أَنْكَرَا كُلَّ شَيْءٍ، وَأَفْرَجَتْ عَنْهُمَا النِّيَابَةُ بِبَسَاطَةٍ.

وَأَدْرَكَ هَلَالُ أَفْنَدِي أَنَّهُ سَيَقَعُ فِي بَرَاثِنِ التَّجَارَةِ فِي الْخُطِّ.

كَانَتْ الصُّحُفُ تَنْشُرُ أَنَّ هُنَاكَ أَلْفَ جَنِيَّةٍ أُخْرَى مُكَافَأَةٌ لِمَنْ يُدْلِي بِمَعْلُومَاتٍ تُؤَدِّي لِلْقَبْضِ عَلَى الْخُطِّ، وَفُوجئَ النَّاسُ يَوْمًا بِإِعْلَانٍ فِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى مِنْ جَرِيدَةِ «الْمِصْرِيِّ»، وَمَعَهُ صُورَةُ شَخْصٍ مُغَبَّرِ الْوَجْهِ، يَقُولُ الْإِعْلَانُ: «مُجْرِمٌ هَارِبٌ مِنَ الْعَدَالَةِ.. مُكَافَأَةٌ 500 جَنِيَّةٍ لِمَنْ يُرْشِدُ عَنْهُ.

أَنُورُ عَثْمَانُ، الْمُتَّهَمُ بِالشَّرْعِ فِي قَتْلِ الْفَتَاةِ الَّتِي وُجِدَتْ مَطْعُونَةً بِخَنْجَرٍ بِشَقَّةِ الرَّسَامِ سَمِيرٍ مَجْدِي، وَهُوَ مُجْرِمٌ خَطِيرٌ، وَلِكُلِّ مَنْ يُرْشِدُ عَنْهُ أَوْ يُدْلِي بِبَيِّنَاتٍ صَحِيحَةٍ تُؤَدِّي لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ مُكَافَأَةٌ قَدْرُهَا 500 جَنِيَّةٍ مِصْرِيَّةٍ».

وَفِي نَهَايَةِ الْإِعْلَانِ، وَبِخَطِّ صَغِيرٍ:

«مُلْحُوظَةٌ: هَذَا الْإِعْلَانُ هُوَ الَّذِي نَشَرَهُ الْبُولِيسُ فِي فِيلْمٍ «رَاوِيَةٌ»، الَّذِي يُعْرَضُ ابْتِدَاءً مِنَ الْيَوْمِ بِسِينَمَا لُوكَسِ الْجَدِيدَةِ بِعِمَادِ الدِّينِ بِمِصْرٍ... أَمَّا الْفَتَاةُ فَهِيَ النَّجْمَةُ الْمَحْبُوبَةُ كُوكَا، بَطْلَةٌ «عَنْتَرُ وَعَبْلَةٌ».

وَضَحَكَ هَلَالُ أَفْنَدِي وَهُوَ يَقْرَأُ الْإِعْلَانِ سَاخِرًا، وَمَا كَادَ يَنْتَهِي مِنْ ضَحْكِهِ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ أَحَدُ الْحُرَّاسِ الَّذِينَ كَانُوا مُعَيَّنِينَ لِحِمَايَةِ مَقَرِّهِ فِي لُوكَانْدَةِ الشَّامِيِّ، وَأَخْطَرَهُ أَنَّ هُنَاكَ جَزَّارًا يَطْلُبُ مُقَابَلَتَهُ، وَيَقُولُ إِنَّهُ يَعْرِفُهُ مِنْذُ كَانَ رَئِيسًا لِنَقْطَةِ بَنِي قَرَّةٍ، وَذَكَرَ اسْمَهُ، فَتَذَكَّرَهُ هَلَالُ أَفْنَدِي، وَشَغَفَ بِمُقَابَلَتِهِ عِنْدَمَا تَقَلَّ الْحَارِسُ عَنْهُ قَوْلَهُ إِنَّهُ جَاءَ فِي أَمْرِ يَهُمُّ هَلَالُ أَفْنَدِي شَخْصِيًّا.

وَأَسْتَقْبَلَهُ قَائِدُ فِرْقَةِ الْمُطَارِدَةِ، وَسَأَلَهُ عَمَّا لَدَيْهِ؛ قَالَ إِنَّهُ يَعْرِفُ مَخْبَأَ الْخُطِّ، وَأَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِلْإِرْشَادِ عَنْهُ، وَأَرْدَفَ بِأَنَّهُ لَا يَطْمَعُ فِي الْأَلْفِ جَنِيَّةِ الَّتِي خَصَّصَتْهَا الْحُكُومَةُ لِمَنْ يُرْشِدُ عَنْهُ، وَلَكِنَّهُ «طَامِعٌ فِي صَدَاقَةِ الرِّجَالِ»، لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ.

«هَلِ الرَّجُلُ مَجْنُونٌ، أَمْ مُحْتَالٌ، أَمْ قَدِيسٌ؟ صَحِيحٌ أَنَّهُ مَسْتَوْرٌ، وَحَالَتُهُ الْمَالِيَّةُ لَا بَأْسَ بِهَا؛ فَهُوَ جَزَّارٌ، وَتَاجِرُ مَوَاشٍ، وَيَمْلِكُ عَدَدًا لَا بَأْسَ بِهِ مِنَ الْأَفْدَنَةِ- وَلَكِنْ هَلِ كُلُّ هَذَا مُبَرَّرٌ لِكَيْ يَتَنَازَلَ الْإِنْسَانُ عَنْ أَلْفِ جَنِيَّةٍ مَرَّةً وَاحِدَةً؟ رُبَّمَا لِنَجَرِّبُ!»، هَذَا مَا دَارَ بَذَنُ هَلَالِ أَفْنَدِي حِينَهَا.

كان لفرقة المطاردة سُلطاتٌ واسعةٌ، ومُخصَّصاتٌ ماليَّةٌ كبيرة، رُصدت كُلُّها من المصروفات السريَّة لحساب اقتناص الخُط، وكانت هذه المُخصَّصات فيما بعد مَثارَ القيل والقال، والسُّخرية، عندما طالت مَهْمَةُ المُطاردة، وكثُرَت مصروفاتها بلا تَبَجَّة، وأَيَّامها قيل في دوائر البوليس إن المسألة «تحوَّلت إلى لعبةٍ للتنعُّم والاستمتاع على حساب اقتناص الخُط، الذي لا يُقْتَنَص، ولا يَفَع، ويبدو أن أَحَدًا لا يَهْمُهُ ذلك؛ طالما بالوعة المصاريف مفتوحة».

وبمقتضى هذه السلطات صَفَّق هلال أفندي طالِبًا من قَرَّاش اللوكاندة أن يُجهِّزَ عشاءً فاخرًا من الدَّجاج واللحوم، ورُجاجة «كونياك» جيِّدة.

وشرب الجَزَّار نصفَ الرُّجاجة وحده، وهلال أفندي يتظاهر بالشُّرب، ويأكل قِطْعًا «رمزيَّة» من الدَّجاج، وانحلت عُقْدَةُ لسان الجَزَّار مع الكأس الخامسة؛ فبدأ يتكلم، قال إن الخُط في إحدى قرى بني سوف، وأنه يُعسِكُرُ في وادٍ مياهِ يَقَعُ على الطريق الزراعيِّ، في مِنطَقَةٍ مُحَصَّنَةٍ، لا يَقْوَى أَحَدٌ على اقتحامها، وبدأ الجَزَّار يروي قصصًا عن الخُط تُؤكِّد أنه خبيرٌ بأحواله، وأن معلوماته تصدر عن رجل على صلة وثيقة بمارد الإجرام، وأردف أن الخُط في مَخْبِئِهِ الجديد لا يختفي فقط من البوليس، ولكنه أيضًا يَعْتَكِفُ حُزْنًا على وفاة عَوَّاد، وكيله، وساعده الأيمن، وهو برغم حُزْنِهِ وَكَايَتِهِ يُخْطِطُ لعمليَّةٍ كبرى ضدَّ فرقة المطاردة، وأنه أقسم برأس عَوَّاد ألا يبدأ إلا برأس هلال أفندي ذاته.

وتحسَّس هلال أفندي عُتْقَهُ، وصَبَّ كأسًا أخرى للجزار؛ وقال له: وانت عرفت ده كله ازاي؟

قال الجزار إنه صديق الخُط، ومَسْمُوحٌ له بزيارته والتَّرُدُّ عليه.

وسأله الضابط عمَّا إذا كان لديه فكرة مُحدَّدة عن الوسيلة التي يُمكنُ أن يَقَعَ بها الخُط، باعتباره أقرب إلى الصُّورة، ومُحيطًا بتفصيلاتها، وسأله عن الخدمة التي يستطيع أن يُقدِّمها في هذا الإطار... رَدَّ الجَزَّارُ على ذلك بأنه سيزور الخُط في مَخْبِئِهِ، وسيُخْطِرُ الصَّابِطَ تليفونيًّا، أو تَلْغَرافِيًّا؛ لِيَتَّخِذَ إجراءاتِهِ، ويرسم خُطَّتَهُ للإيقاع به.

وفكَّر هلال أفندي لحظاتٍ، ثُمَّ قَرَّرَ أن يخطو خطوةً أخرى... قام إلى تليفونه، وطلب المديرية، وسأل عن «الباشا المدير»، ف قيل له إنه في منزله. كانت الساعةُ قد جاوزت مُنْتَصَفَ الليل، وبرغم ذلك فبعد لحظاتٍ كان الجَزَّارُ في منزل «سعادة الباشا المدير» مرَّةً واحدة...

كانت فكرة الصَّابِط أن يَضَعَ الجَزَّارُ أمامَ هَيْبَةِ المدير، ويُشعِرَهُ بالتَّقَّة، وبأنَّه يُقدِّمُ خدمةً كُبرى لشخصيَّاتٍ كبيرة، وبالفعل، استقبل الباشا الجَزَّارَ على بابِ مَنْزِلِهِ في هذا الوقت المتأخِّر، وَرَحَّبَ به، وَقَدَّمَ له السجائر بنفسه؛ وهو ما انعكس ارتباكًا وَحْجَلًا وامْتِنَانًا على وجه جزار بني قرة.

وبعد مُجَامَلَات البداية بَدَأَ الْجَزَّارُ يروي قِصَّتَهُ مَرَّةً أُخْرَى لِلْمَدِيرِ، وَرَكَزَ الْجَزَّارُ فِي رَوَايَتِهِ الْمَعَادَةَ عَلَى أَحْوَالِ الْخُطِّ، وَعَادَ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ مَحَلُّ ثِقَتِهِ التَّائِمَةِ؛ فَهُوَ يُجَالِسُهُ طَوِيلًا، وَيَخْرُجُ مَعَهُ أَحْيَانًا مِنْ مَبْنَى الْوَابُورِ إِلَى زَرَاعَاتِ الدَّرَّةِ أَمَامِهِ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَرْتِيبِ كُلِّ شَيْءٍ. وَفِي نَهَايَةِ كَلَامِهِ كَانَ الْمُدِيرُ وَهَلَالُ أَفْنَدِي قَدْ وَثَّقَا تَمَامًا بِأَنَّ الْخُطَّ قَدْ أَصْبَحَ فِي أَيْدِيهِمَا، وَأَنَّ الْمَسْأَلَةَ عِدَّةَ سَاعَاتٍ لَا تَزِيدُ، وَلَا تَتَمَدَّدُ إِلَى يَوْمٍ!

وبعد أن انتهى الْجَزَّارُ مِنْ سَرْدِ مَعْلُومَاتِهِ، وَأَجَابَ عَلَى تَسْأُلَاتٍ مُضِيفَةٍ، قَالَ الْبَاشَا:

- وَطَلَبَاتُكَ؟

وَفِي كَلِمَاتٍ مُتَعَثِّرَةٍ اقْتَرَحَ الْجَزَّارُ أَنْ يُزَوَّدَ بِخُطَابٍ رَسْمِيٍّ يُمَكِّنُهُ مِنَ الْخُصُولِ عَلَى مَسَاعِدَاتٍ مِنْ رِجَالِ الْبُولِيسِ فِي بَنِي سُوَيْفٍ لِتَسْهِيلِ مَهْمَّتِهِ... وَوَأَقَّ الْمَدِيرُ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي كَانَ الْجَزَّارُ يَقِفُ فِي شُرْقَةِ الْقِطَارِ الْمَسَافِرِ إِلَى بَنِي سُوَيْفٍ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي جَيْبِهِ خُطَابًا مِنْ مَدِيرَةِ أُسَيُوطٍ إِلَى مَدِيرَةِ بَنِي سُوَيْفٍ، وَلِكَافَةِ الْجِهَاتِ الْإِدَارِيَّةِ أَنْ «تُقَدَّمَ لِحَامِلِهِ حُضْرَةُ فُلَانٍ أَفْنَدِيٍّ مِنْ أَعْيَانِ نَاحِيَةِ كَذَا كُلِّ التَّسْهِيلَاتِ الَّتِي يَطْلُبُهَا؛ لِأَنَّهُ فِي مَهْمَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْقَبْضِ عَلَى الْمُجْرِمِ الْفَارِّ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدٍ مَنْصُورٍ»، وَصَرَفَتْ لَهُ مَدِيرَةُ أُسَيُوطٍ اسْتِمَارَاتٍ سَقَرٍ مَجَانِيَّةٍ بِالذَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَفَرَضَ الْمَدِيرُ أَنْ يُقَدَّمَ لَهُ مِئْثَةُ تَحْتَ الْحِسَابِ مِنَ الْمَصَارِيفِ، وَلَكِنَّهُ رَفَضَ بِشِدَّةٍ.

وَتَحَرَّكَ الْقِطَارُ بِالْجَزَّارِ، وَحَبَسَ هَلَالُ أَفْنَدِي تَفَسَّهَ فِي لُوكَانْدَةِ الشَّامِيِّ، فِي انْتِظَارِ الْمَكَالِمَةِ الْمَوْعُودَةِ الَّتِي سَتُنْهِي كُلَّ شَيْءٍ، وَمَضَى الْوَقْتُ بِطَبِئًا ثَقِيلًا، وَعِنْدَمَا دَقَّ التِّلِفُونُ أَخِيرًا ارْتَمَى الصَّابِطُ عَلَيْهِ يَسْتَحْبِرُهُ أَسْرَارُهُ الْمَطْلُوبَةِ، وَكَانَتْ بَنِي سُوَيْفٍ.

قَالَ الْجَزَّارُ إِنَّهُ زَارَ «صَاحِبَهُ» فِي بَيْتِهِ، وَقَهَمَ مِنْهُ أَنَّهُ سَيُغَيِّرُ مَكَاتِهِ إِلَى آخَرٍ، وَسَيَنْقَلُ مِنَ «السَّكَنِ»، وَقَالَ إِنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُفِيدِ زِيَارَتُهُ الْآنَ؛ لِأَنَّهُ سَيَرْجُلُ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى... وَأَنْهَى مُكَالَمَتَهُ بِأَنَّهُ سَيَعُودُ مَسَاءً وَمَعَهُ الْخَبْرُ الْمُؤَكَّدُ، بِالْعَنْوَانِ الْجَدِيدِ.

وَحَوْلَ زُجَاجَةٍ أُخْرَى مِنَ الْكُونِيَاكِ تَحَدَّثَ الْجَزَّارُ -فِي نَفْسِ اللَّيْلَةِ- عَنْ نَتِيجَةِ زِيَارَتِهِ لِلْخُطِّ، وَكَيْفَ قَهَمَ مِنْهُ أَنَّهُ سَيَغَادِرُ الْوَابُورَ، وَأَنَّهُ مَعْرُوضٌ عَلَيْهِ عِدَّةُ أَمَاكِنَ أُخْرَى فِي زِمَامِ مَدِيرَةِ بَنِي سُوَيْفٍ، لَمْ يَنْتَهِ مِنْ اخْتِيَارِ أَحَدِهَا بَعْدُ، وَأَفَاضَ فِي شَرْحِ أَحْوَالِ الْخُطِّ، الَّذِي أَطْلَقَ لِحَيْتِهِ حَزَنًا عَلَى وَكَيْلِهِ الْمُغْتَالِ.

وَانْتَهَى الْاجْتِمَاعُ بِالِاتِّفَاقِ عَلَى الْإِنْتِظَارِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أُخْرَى، يَسَافِرُ خِلَالَهَا الْجَزَّارُ إِلَى بَنِي سُوَيْفٍ، وَيَطْمَئِنُّ عَلَى الْمَقَرِّ الْجَدِيدِ لِلْخُطِّ، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ

الهجوم عليه.

وخلال الأسبوع التالي كان «سفير البوليس» ينتقل بين المديرية ذهابًا وإيابًا، باستمارات سَفَرٍ رَسْمِيَّةٍ، ومعه أوراقُ اعتماده كمندوبٍ فوق العادة. وفي الليلة السابعة، وبعد الكأس الثالثة، أعاد السَّفيرُ التَّأكيدَ بأن الخُطَّ سَيَقَعُ، وأنَّه سيسافر في الصباح إلى بني سويف لإعداد الترتيبات النهائية للخُطِّ منهُ، وسَقَّحَ نصفَ زجاجة الكونياك كالعادة، ثم انصرف تاركًا تَمَنِّيَّاتِهِ للبوليس، وتحيَّاتِهِ للباشا المدير.

وفي الصباح استقلَّ الجَزَّارُ القطارَ في رحلته الأخيرة، وقبل أن يغادر القطارُ الرَّصيفَ حَرَجَ هلال أفندي مُسرِّعًا من حُجْرَةِ ناظر المَحْطَةِ وهو يرتدي ملابس بَلَدِيَّةٍ، وبرُفْقَتِهِ أحدُ أعوانه بنفس الملابس، وقفز في آخر عربات «الإكسبريس» وهي على حافة الرَّصيف.

وتوقَّفَ القطار في محطة ديروط، ثم تحرَّك في اتجاه مَنفلوط، وبين المحطتين فوجئ الجَزَّارُ بهلال أفندي أمام مقعده الفاخر بالدرجة الثانية.

وقبل أن يفيق من دهشته كان الضابط قد مَدَّ يَدَهُ إلى «فُفَّةٍ» وَصَّعَهَا الجَزَّارُ تحت مقعده، وكشف غطاءها، فإذا به وَجْهًا لَوَجْهِ أَمَامَ الخُطِّ!

لم يَكُن الخُطُّ الذي أمامه بَشَرًا، ولكن اسمًا مَكْتُوبًا على قُماشٍ...

أما ما كان يحويه القُماشُ فهو: حشيش!

كان بالفُفَّةِ أربعُ عبوات من الحشيش، ماركة «الخُطُّ»...

وأنكر «السفير فوق العادة» -بالطبع- أن الحشيش ملكه، وعَصَبَ لِكِرَامَتِهِ، وثار للشك فيه، بينما أخذ هلال أفندي يضحك بِشِدَّةٍ، ومَرَارَةً!

وكان لا بُدَّ من الاستمرار في المُطارَدَةِ بأيِّ شكل...

وكان لفرقة المُطارَدَةِ قائِدٌ ثانٍ، هو الملازم حامد عبد الله، الذي كان يَتَنَاقَشُ مع المُلازم محمد السَّعيد هَلال في قيادة الفرقة. وفي الفترة التي كان محمد هلال يَتَابِعُ الخَيْطَ الذي يَتَمَثَّلُ في الجَزَّار كانت فرقة المُطارَدَةِ -بقيادة زميله- مُسْتَمِرَّةً في هَجَمَاتِهَا.

تَجَمَّعَت المَعْلُومَاتُ في مكتب مدير أسيوط، تُؤَكِّدُ أن الخُطَّ يُقِيمُ الآن في الجبل، وأنه يَهَيِّطُ مِنْهُ إلى درنكة ليقابل زوجته رشيدة، وليطمئن على وَلَدِهِ هاشم، وعلى أُمِّه «خالتي فَصَّة»، وتَقَرَّرَ أن تُهاجِمَ قُوَّاتُ المُطارَدَةِ، وأن يَقُومَ الجَيْشُ هو الآخر بغارة حربيَّة عليه. وهكذا قامت طائِرَةٌ حربيَّةٌ من مطار منقباد فألقت القنابل فوق الجَبَل؛ لإجبار ساكنيه من رجال العصابات على

النزول إلى المدينة، حيث يمكن مُواجهتهم، وتحرّكت مدافع «الهاون» لِتُطلق قذائفها على المغارات البارزة من سفح الجبل.

ولم تنجح هذه الوسيلة في شيء. كان لا بُدَّ من الهجوم على الجبل بقوَّات بشرية لتطهير مغاراته وكهوفه؛ فأولاد الليل لا يُقيمون في سطحه، ولكنهم يتحصّنون بالمغارات التي تُعتبر مخابئ مثالية للاحتماء بها من قذائف مدافع «الهاون» وقنابل الطائرات المُغيرة، ولا فائدة مع وجودها من الغارات الجويّة على مملكة أولاد الليل.

وكان من المستحيل، ومن غير العمليّ أن تصعد قوَّات صخمة إلى قمة الجبل؛ لما تحتاجه من مؤن وأحمال تُعرقل حركتها السريعة، ورؤي -بناءً على اقتراح من محمد هلال نفسه- أن تقوم «بعثة محدودة» من أفراد فرقة المُطاردة بالهجوم على الجبل. وبدأ البحث عن دليل يقود البعثة في رحلة الاستكشاف التي قرّرت الفرقة أن تقوم بها، وبعد مجهود عثرت على شياّب من أولاد الجبل، كان الخط قد قتل أخاه؛ فتطوَّع لقيادة البعثة التي تشكّلت من ستة فقط من أعضاء فرقة المُطاردة.

وفي بداية المساء بدأت البعثة رحلتها وهي تحمل أثقل أسلحتها، وكميات وفيرة من الذخيرة، وصفائح للمياه، وكميات من الشاي والسكر والمعلبات، ووابور جاز لصنع الشاي.

وعلى امتداد ثلاثة أيام كاملة اقتحمت البعثة مئات المغارات والكهوف، وبمجرد أن تقترب من أي مغارة تُمطرها بوابل من الرصاص قبل أن تدخلها، فإذا دخلت وجدت آثار الخط: أعقاب لفائف، وزجاجات ببعضها بقايا من «الزبيب» -مشروبه المُفضّل- وأوراق سلوفان بها أنثر أفيون.

وأوشك طعام البعثة على النفاد، وتقرّر أن تُورّع المياه بحساب؛ لأن الكمية الباقية لم تكن كافية لرحلة العودة -بفرض أنها ستتم بدون عقبات- أمّا آخر الوجبات فقد التهمت البعثة بالفعل قبل أن تبدأ في رحلة الهبوط من الجبل.

وبدأت رحلة العودة، وألقى الرّجال نظرة أخيرة على قمة الجبل؛ إنها تبدو مدينة فسيحة، وليس مُستبعداً أن يبني فيها أولاد الليل بيوتاً في المستقبل، ويسكنوها، ويعلنوا استقلالها عن البلاد! إن مُشكلاتها الحقيقية أنّها غير صالحة للزراعة، وليس فيها مورد للمياه، بجانب جوّها «القارّي»؛ فهي شديدة البرودة في الليل، وقائظة في النهار.

كان آخر الرّجال الهابطين عسكري اسمه «الهجان»، وفي لحظة ما، وهو يحفظ توازنه فوق إحدى الصخور لَمَح شيئاً يتحرّك: رأس إنسان، هناك وراء صخرة، تظهُر وتختفي، بدا معروفاً له، صرّح:

- الخُطّ... الخُطّ.

رَدَدَ الْجَبَلُ صدى صَوْتِهِ، ومع عَوْدَةِ الصّدى مَلَأَ صَوْتُ الطَّلقات سُكُونَ الصَّمْتِ على سَطْحِ الجبل، وسارَعَتِ البَعْثَةُ تَحْتِمِي بالصُّخُور، لَتَرَدَّ بِالْمِثْلِ، وَمَصَّتْ قَتْرَهُ وَنَهَرَ الرِّصَاصَ يَمْلَأُ الصَّمْتِ كَشلالٍ مُتَدَقِّقٍ، وَقَدَّرَتْ قَوَّاتُ البوليس أن عَدَدَ أولاد الليل لَا يَقِلُّ عن أَرْبَعَةٍ، وَلَا يَزِيدُ عن سِتَّةٍ؛ هذا ما أَكَدَّتْهُ الْمُتَابَعَةُ السَّرِيعَةُ لأصواتِ البَنادِقِ المُهاجِمَةِ، ولاتِّجاهاتِ إطلاقِها.

وفجأهُ صَمَّتِ بَنادِقُ أولاد الليل، إِنَّهُمْ يَنْسَحِبُونَ، وَهُمْ غَالِبًا يَبْحَثُونَ عن مَوْقعٍ جَدِيدٍ، يُمكنُهُم من الهجوم على البعثة هَجُومًا مُؤَثِّرًا. تَحَرَّكَتِ البَعْثَةُ هي الأخرى لتكون في مَوْقعٍ مُلائِمٍ، وَجَدَتْ هذا المَوْقعَ بعد نصفِ كيلو من مَوْقعِها الأوَّلِ، وبمَجَرَّدِ استقرارِها فيه انْهال الرِّصَاصُ عليها من جديد.

وتَكَرَّرَتِ اللعبةُ مَرَّةً ثَانِيَةً: يتَوَقَّفُ رِصَاصُ أولادِ الليل، وتَنْتَقِلُ البَعْثَةُ وراءَ المَكَانِ الجَدِيدِ الذي يَأْتِي مِنْهُ رِصَاصُهُمْ، وتَأْكُدُ أَنَّهُمْ يَنْسَحِبُونَ تَطْبِيقًا لتَكْتِيكٍ معِينٍ، ولكن: ما هدفُهُمْ؟!

لم يَتَّضِحْ هذا الهَدَفُ إِلَّا بعد أن قَطَعَتِ القُوَّةُ خَمِيسَةَ كيلومتراتٍ، وَجَدَتْ نَفْسَها بَعْدَها في نَفْسِ المَكَانِ الذي بَرَزَ مِنْهُ رَأْسُ الخُطِّ أَوَّلَ مَرَّةٍ:

مَدَّخَلَ مَغَارَةٍ مِنْ آلافِ المَغاراتِ التي تَمْلَأُ سَطْحَ الجَبَلِ، وَقَطِيرةُ كَبِيرَةٍ شَهِيَّةٍ، و«چرکن» مَلِيءٌ بِالمِياهِ، وامتَدَّتْ أَكْثَرُ مِنْ يَدٍ إلى الفَطِيرَةِ الشَّهِيَّةِ، ورفعَ أَحَدُهُمْ صَفِيحَةَ المِياهِ إلى قِمَمِهِ، وَلَكِنْ كُلُّ الأيدي تَوَقَّفَتْ أَمَامَ صَرَخَةٍ مُدَوِّبَةٍ مِنْ مُحَمَّدٍ هَلالٍ:

- انتباه يا عسكري...

ومع صَرَخَتِهِ كَانَتْ يَدُهُ اليُمْنَى تَدْفَعُ الصَّفِيحَةَ بِشِدَّةٍ، أَلْقَتْها بَعِيدًا عن قَمِّ العَسْكَريِّ، بَيْنَمَا تَوَلَّتْ قَدَمُهُ اليُسْرَى قَذْفَ الرَّمالِ على الفَطِيرَةِ التي كَانَتْ في مَكَانِها على الأَرْضِ، كانَ الخاطِرُ الذي بَرَقَ في ذَهْنِهِ بِسُرْعَةٍ: «لماذا حَرَصَ الأشقياءُ على اسْتِدْراجِ مُطارِدِيهِمْ في خَطِّ دائِرِيٍّ خَمِيسَةَ كيلومتراتٍ كَامِلَةٍ لِيَعُودُوا بِهِمْ إلى هَذِهِ النِّقْطَةِ؟ أَلَيْسَ مُحْتَمَلًا أنْ تَكُونَ صَفِيحَةُ المِياهِ والفَطِيرَةُ كَمِيًّا مِنَ السَّمِّ الفَاخِرِ؟! صَحِيحٌ أنَ السَّمِّ جَرِيمَةُ الجُنَاءِ، وَأَنَّ أولادَ الليلِ يَسْتِنْكِفُونَ عن اسْتِخدامِهِ؛ لأنَّهُ لَا يَتَضَمَّنُ أَيَّ شِجَاعَةٍ في المُواجَهَةِ، وَهُوَ لَا يَلِيْقُ إِلَّا بِالنِّسَاءِ اللُّواتِي يَفْتَقِدْنَ القُوَّةَ والشَّجَاعَةَ؛ وَلَكِنْ عَلَيْنَا أنْ نَتَوَقَّعَ العَدَرَ مِنَ الخُطِّ، ما دُمْنَا قَدْ بَدَأْنَا بِهِ، إِنَّهُ يُحَارِبُ بِأَسْلُوبِنَا وَلَيْسَ بِأَسْلُوبِهِ؟».

وعندما أَفاقَ مِنْ خَواطِرِهِ لَمَحَ خَيْطًا مِنَ الدِّماءِ على بابِ المَغارةِ، وَبَتَفْتِيشِها عَثَرَتْ البَعْثَةُ على شَخْصٍ مَقْتُولٍ، حَمَلَهُ أَحَدُ العَساكِرِ على ظَهْرِهِ، واكْتَفَتْ البَعْثَةُ بِهِ غَنِيمَةً، وَهَبَطَتْ مِنَ الجَبَلِ.

وأكدت أكثر من مُحاوَلَة فاشِلَة بعد ذلك أنَّه من العَبَثِ الهُجُومُ على الخُطَا
في مَمَلَكَتِه التي يَحْفَظُ كُلَّ خَوَافِئِهَا، بِرِجَالٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدُهُمْ كَيْفَ يَخْطُو
خُطْوَةً فَوْقَ قِمَّةِ الْجَبَلِ دُونَ دَلِيلٍ...
أَلَمْ يَعْذُ هُنَاكَ أَمَلٌ إِذَا فِي أَنْ يَسْقُطَ الخُطُّ؟!

الفصل السابع

صاحبُ الجلالةِ المَلِكِ فاروق... وصاحبُ الجلالةِ مَلِكُ «الخُبيرة»!

وجاء العيد..

سافر عزيز باشا أباطة إلى القاهرة ليمضي العيد مع أسرته، ثم تَوَجَّه في أوَّل أيام العيد لِيُعَيِّدَ علي «مولانا»، وكانتِ التَّقَالِيدُ أَيَّامَهَا تَقْضِي بِأَنَّ «جَلالَتَه» يستقبلُ الوُزراءَ والكُبراءَ، وكبارَ الموظفين؛ ليقولوا لجلالته: «كُلَّ سنة وانت طيب»...

وكان عزيز باشا حائِراً على الرِّضى السَّامي؛ فهو شاعِرٌ كبيرٌ، تَظَمَّ من شِعْره عيونَ القصائدِ في مَدحِ مولاه، ووَصَفَه بِكُلِّ الصِّفَاتِ التي كان يفتقد إليها تَمَامَ الافتقارِ، وعندما جاء دَوْرُه في التَّسْلِيمِ على مولانا -مُهَنِّباً بالعيد- تَوَقَّعَ أن يُعَبِّرَ جَلالَتُه عن رضاه بأي صورةٍ مِنَ الصُّوَرِ، ولكن مولانا قال لعزيز باشا شيئاً لم يتوقَّعه (بعد عيونِ الشَّعرِ التي تَغْزِلُ في عيونِ جلالته!)، كان الباشا مُنَحْنِياً كزاويةٍ قائِمةٍ وهو يُصافِحُ مولاه، ففوجئَ بِالمَلِكِ يقول:

- قُلْ لي يا عزيز باشا... هُوَ اسْمُه الخَطُّ وَاللَّا الخَطُّ؟

وأردف مولانا كَلِمَتَه بِضحكةٍ عالِيَةٍ، زَلَزَلَتْ كِيانَ الباشا، الذي تَمَتَّمَ بِكَلِمَاتٍ سَريَةٍ يُؤَكِّدُ بها لمولانا أَنه سيفعلُ المُستحيلَ، وأن التَّوَمَّ حَرامٌ، والشَّعْرَ حَرامٌ؛ ما لَمْ يَقَعِ «ابن الحرام» الذي عَرَّضَه لهذا المَوْقِفِ العَصِيبِ.

لقد أثبتَ مولانا بِجُمْلَتِهِ الحَكِيمَةِ أَنه يعرفُ كيف يستخدمُ اللُّغَةَ بِنَفْسِ المَهارةِ التي يستخدمها بها شاعِرُهُ الملوكي الكبير، فَتَقَلَّ نُقْطَةً واحدةً من كَلِمَةِ «الخط» مِن فوقِ الحاءِ إلى فوقِ الطاءِ، فأصبح «الخط»: «الحظ»؛ الذي جعل الخَطَّ يُمْنِي البوليسَ بِالْهَزَائِمِ المُتَوَالِيَةِ.

أَيَّامَهَا كان جَلالَتُه مِنَ المُغامرينِ الكبارِ. في كَلِمَتِهِ التي قالها للباشا المديرُ شَيْءٌ مِنَ «التَّشْفِي»، وَقَلِيلٌ مِنَ العِقَابِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ جَلالَتَه كان مُعْجَباً بِالْخَطِّ، وبأولادِ الليلِ عموماً، وَبِعَبْرِ نَفْسِهِ صِنْوا لَهُم! ففي نفسِ العامِ تقريباً كان قد تعرَّضَ لفضيحةٍ مُدَوِّبَةٍ بِسَبَبِ بعضِ أولادِ الليلِ؛ فقد امتلأتِ مُجْتَمَعاتُ القَاهِرَةِ فجأةً بِأَحاديثٍ لا حَصَرَ لها ولا عَدَدَ عن مولانا، وَبَيَّنَّ أن هذه الشائعاتَ كُلَّها قد انتشرتْ عن لسانِ ابنةِ البارون «إمبان» -بانيِ صاحبةِ

«مصر الجديدة»-، ولأنَّ ما كانت ترويه كان يتضمَّن مَسَاسًا بِالذَّاتِ الْمَلَكِيَّةِ، وتشهيرًا بها؛ فسرعان ما صدر أمرٌ مَلَكِيٌّ يَطْرِدُهَا مِنْ مِصْرَ، وَلَكِنَّ الْبَنِيَّةَ لَمْ تَصْمِتْ، بِمَجَرَّدِ خُرُوجِهَا أَذَلَّتْ بِحَدِيثٍ لَصَحِيفَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ، قَالَتْ فِيهِ إِنَّهَا طَرِدَتْ مِنْ مِصْرَ لِأَنَّهَا رَوَتْ قِصَّةً حَقِيقَةً عَنِ الْمَلِكِ فَارُوقِ، إِذْ خَرَجَ جَلَالَتُهُ يَوْمًا بِسَيَّارَتِهِ يَتَنَزَّهَ فِي طَرِيقِ إِنْشَاصٍ، فَاعْتَرَضَهُ بَعْضُ الْأَشْقِيَاءِ، وَهَاجَمُوا السَّيَّارَةَ، وَاعْتَدُوا عَلَى الْمَلِكِ، وَسَلَبُوهُ مَالَهُ، وَبِمَجَرَّدِ انْصِرَافِهِمْ عَادَ الْمَلِكُ إِلَى اسْتِرَاحَتِهِ حَيْثُ التَّقَطُّ بُنْدَقِيَّتِهِ وَعَادَ يُطَارِدُ أَوْلَادَ اللَّيْلِ، وَيَبْدُو أَنَّ مَوْلَانَا مِنْ قَرِطِ صَلَاحِهِ وَتَقْوَاهُ (وَقَدْ امْتَدَحَهُمَا الْبَاشَا الْمَدِيرُ فِي بَعْضِ شِعْرِهِ) كَانَ يَتَفَقَّدُ الرَّعِيَّةَ مَعَ «صَدِيقَةٍ» فَرَنْسِيَّةٍ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ؛ فَظَنَّهُ الْأَشْقِيَاءُ مُوَاطِنًا عَادِيًّا يُمَارِسُ الْعِرَاقَ فِي الظَّلَامِ؛ فَابْتَرَزُوا نُقُودَهُ، وَلَكِنَّهُ أَبَى إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ بِثَّارِهِ؛ فَخَرَجَ يُطَارِدُهُمْ.

وفي اجتماعِ صَخَمٍ حَصَرَهُ جَمِيعُ مَأْمُورِي مَرَكَزِ مَدِيرِيَّةِ أُسْيُوطِ -وَعُقِدَ فِي مَكْتَبِ مُدِيرِهَا- أَعَادَ عَلَيْهِمْ عَزِيزُ بَاشَا مَا سَمِعَهُ مِنْ جَلَالَةِ الْمَلِكِ، وَقَالَ:
- لَقَدْ فَهَمْتُ قَصْدَ جَلَالَتِهِ، وَقَهَمْتُ اللَّوَمَ الْمُخْتَفِي فِي ثَنَايَا الْكَلِمَاتِ، وَأَنَا أَنْقُلُ إِلَيْكُمْ هَذَا لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَبْدُلَ كُلَّ الْجُهُودِ الْمُمَكِّنَةِ -وغيرِ الْمُمَكِّنَةِ- لِلْخُلَاصِ مِنَ الْخُطِّ.

وسكت عزيز باشا...

وبدأوا هُمْ يَتَكَلَّمُونَ، وَظَلَّ الْاجْتِمَاعُ سَاعَاتٍ يُفْتَشُّ عَنْ الطَّرِيقَةِ الَّتِي تَقُودُ إِلَى الْقَبْضِ عَلَى الْخُطِّ، وَبَدَأَ الْبَحْثُ عَنْ آخَرٍ يَقُودُ إِلَى الْمُجْرِمِ الْهَارِبِ، وَقَفَزَ إِلَى الْأَذْهَانِ الْمَثَلُ الْفَرَنْسِيُّ الشَّهِيرُ: «قُتِّشَ عَنِ الْمَرَاةِ».

كَانَتْ فِي حَيَاةِ الْخُطِّ نِسَاءٌ كَثِيرَاتٌ، كَانَتْ رَشِيدَةً هِيَ أَوَّلُ هَاتِهِ النِّسْوَةِ، تَزَوَّجَهَا وَهِيَ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِهَا، وَلَمْ تَنْوِ خِلَالَ زَوَاجِهِمَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ مَرَّاتٍ؛ فَبَعْدَ الزَّوْاجِ بِقَلِيلٍ نُفِيَ إِلَى جَبَلِ الطُّورِ، وَقَرَّ مِنَ الْمُنْفَى، وَعَادَ إِلَى أَحْرَاشِ الصَّعِيدِ مُطَارِدًا مِنَ الْحُكُومَةِ، بِبُولِيْسِهَا، وَجَيْشِهَا، وَمُخَابَرَاتِهَا.

كَانَتْ رَشِيدَةً نَمُودَجًا لِلْجَمَالِ الصَّعِيدِيِّ: سَمْرَاءٌ، دَقِيقَةُ الْمَلَامِحِ، وَدِيعَةٌ، وَطَيِّبَةٌ. وَلَعَلَّهَا خُلِقَتْ أَصْلًا لَكِي تَكُونَ زَوْجَةً لَصَيَّادٍ سَمَلٍ فَقِيرٍ، يَجْرِي عَلَى رِزْقِهِ، وَيَعُودُ مِنْهَا، فَيَجِدُهَا قَدْ دَبَّرَتْ مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ مَا يُؤْكَلُ.

لَكِنَّ السَّنَوَاتَ كَانَتْ قَدْ تَرَكَّتْ آثَارَهَا عَلَى مَلَامِحِ رَشِيدَةٍ؛ لَمْ تَعُدْ هِيَ نَفْسُهَا الْفَتَاةَ الْمَرْحَةَ، الْمُشْرِقَةَ، الَّتِي رُقَّتْ يَوْمًا إِلَى مُحَمَّدٍ وَهِيَ تَكَادُ تَكُونُ طِفْلَةً؛ اَزْدَادَتْ مَلَامِحُهَا جَهَامَةً يَفْعَلُ الْإَيَّامُ وَمَا جَاءَتْ بِهِ.

وَفِي الصَّعِيدِ تَفْقَدُ الْبِنَاتُ نَضَارَتَهُنَّ بِأَسْرَعٍ مَا تَفْقِدُهَا الزُّهُورُ، وَقَدْ لَاحِظَ الْأُسْتَاذُ يَحْيَى حَقِّي أَنَّ «أَغْلَبَ الْفَلَاحَاتِ مَا تَكَلِّدُ الْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ تَتَزَوَّجُ وَتَخْلَفُ وَلَدًا أَوْ اثْنَيْنِ حَتَّى تَتَسَاوَى فِي الْمَظْهَرِ مَعَ أُمِّهَا؛ قَدَدَتْهُمَا لِسَعَةُ الشَّمْسِ،

وَوَفْدَهُ الْفُرْنَ، وَامْتَهَنَهُمَا وَعَطَّرَهُمَا بِشَدَى وَاحِدٍ عَجِيْبٍ «الْجَلَّة»، وَتَقْرِيصُهَا،
وَدَمَعَهُمَا بِمَيْسَمٍ وَاحِدٍ بَذَلُ جَهْدٍ مُمَائِلٍ فِي عَمَلٍ شَاقٍّ، مُتَّصِلٍ، رَتِيْبٍ... إِنَّهَا
أَكْثَرُ أَهْلِنَا قَفَرًا مِّنَ الصَّبَا إِلَى الشَّيْخُوخَةِ».

وكانت رشيدةً بالإضافة إلى هذا تعيش وحيدةً منذ حَوَّلَتْ لطمَةً عبد الله
بن محمد بن الخطَّ إلى صَيَّادٍ بَشَرٍ؛ فَهَجَرَ الشَّبَكَ وَالسَّنَانِيرَ وَالْقَارِبَ، وَتَلَفَعَ
بِالْبِنَادِقِ، وَتَوَشَّحَ بِاللَّيْلِ، وَأَقَامَ فِي الْجَبَلِ.

كَانَ الْخُطُّ قَدْ هَجَرَهَا مُجَبَّرًا، ثُمَّ شَيْئًا فَشَيْئًا كَانَ هُوَ نَفْسَهُ يَتَغَيَّرُ كإِنْسَانٍ،
لَمْ يَكُنْ مُمَكِّنًا -فِي ظِلِّ حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ- أَنْ يَظْلَّ كَمَا هُوَ. حَفَرَ الزَّمَنُ فِي
نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ أَخَادِيدَ جَدِيدَةٍ بَاعَدَتْ بَيْنَهُمَا، وَأَقَامَتْ جِبَالًا مِّنَ التَّلَجِّ بَيْنَ قَلْبَيْهِمَا
وَجَسَدَيْهِمَا. لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ إِلَّا مَرَّةً كُلَّ شَهْرٍ، وَأَحْيَاءًا كُلَّ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، كَانَ
يَهْبِطُ مِّنْ فَوْقِ قِمَّةِ الْجَبَلِ قَارِمًا مِّنْ قِمَّةِ «الشَّيْخِ بِخَيْتٍ»، فَيَسْحَبُهَا مِنْ يَدِهَا،
وَيَدْخُلُ بِهَا إِلَى حَجَرَةٍ نَوْمِهَا الْفَقِيرَةِ.

وَفِي الشُّهُورِ الْآخِرَةِ، وَبَعْدَ مَقْتَلِ عَوَّادٍ وَاشْتِدَادِ الْمُطَارَدَةِ، كَانَ الْخُطُّ
يَعِيشُ حَيَاةً قَلِيقَةً يَكُلُّ مَعْنَى الْقَلْقِ، وَقَدْ انْسَحَبَ هَذَا الْقَلْقُ عَلَى كُلِّ لَحْظَاتٍ
عُمُرِهِ، حَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي كَانَ يُمَصِّصُهَا مَعَ رَفِيقَتِهِ.

كَانَتْ «الْخَالَةُ فَصَّةٌ» تَحْرُسُ عَشَّ الْغُرَابِ بِمَدْفَعِهَا الرَّشَّاشِ، وَبِرْغَمِ هَذَا
فَإِنَّ الْخُطَّ كَانَ خَائِفًا.



«رشيدة»

آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

وفي آخر مرّة هَبَطَ الحُطُّ إلى رشيدة، سَحَبَهَا من يَدِهَا كالكلب المسعور، ودخل إلى القلعة التي كانا ينامان فيها، ولم يفتح قَمَهُ بكلمةٍ واحدة، جرّدها من ملابسها، أمّا هو فلم يتخفّف إلّا من الأجزاء الضرورية من ملابسه، تلك التي لا تعوقه عن الفرار كاسيًّا.

في لحظة ما من لحظات نَشَوْتِهَا لَقَت رشيدة ذِراعَهَا حول ظَهْرِهِ؛ لَعَلَّهَا أَرَادَتْ أَنْ تَضُمَّهُ إِلَيْهَا أَكْثَر، لكنها فَوَجِئَتْ بعينه ينتفض مُرْتَعِبًا، ويفك ذِراعَيْهَا عنه، وينطلق إلى الجبل.

شكَّ فيها الحُطُّ، يَصَوِّرُ أَنَّهَا تُكَبِّلُهُ بذِراعَيْهَا لِتُمْكِّنَ مِنْهُ أَعْدَاءَهُ أَوْ طَالِبِيهِ من رجال البوليس أو طلاب النَّار؛ فَفَرَّ هَارِبًا إِلَى الجبل...

كانت «خالتي فضّة» حزمةً من الأعصاب المتوترة، الكارهة، ومنذ اللحظة التي بدأت فيها معركة النَّار بين الحُطِّ وبين أسرة شيخ الحَفر، كانت «خالتي فضّة» هي نارها المتوقّدة، وخطبُها المُشعِل، كلما حَمَدَتْ وَحَقَّت أَوَارِهَا، أَشْعَلَتْهَا، بطاقةٍ من الجِدِّ الذي لا يَنْقُذُ.

كَانَتْ نَمَطًا غَرِيبًا مِنَ النِّسَاءِ الْقَوِيَّاتِ، وَرَبَّمَا تَرَسَّبَ فِيهَا ذَلِكَ الْحَقْدُ الْمُتَوَلَّدُ مِنْ مُكَابَدَةِ الْحَيَاةِ تَحْتَ ظُرُوفٍ عَنِيفَةٍ وَقَاسِيَةٍ، انْفَجَرَ حَقْدًا مُرَكَّبًا وَمُسْتَمَرًّا وَدَائِمًا، وَكَانَتْ رَشِيدَةً تَعْتَبِرُهَا مَسْئُولَةً عَمَّا أَنْتَهَى إِلَيْهِ حَالُ الْخُطِّ؛ فَلَوْلَاهَا لَمَّا وَلَغَ فِي الدَّمِ حَتَّى اسْتَحَمَّ بِهِ، وَلَطَّلَ مُقِيمًا بِجَوَارِهَا.

وَيَبْدُو أَنَّ الْعَنْفَ يَنْعَكِسُ عَلَى بَعْضِ النُّفُوسِ انْكَسَارًا، وَكَانَتْ تِلْكَ هِيَ طَبِيعَةُ رَشِيدَةٍ، الَّتِي كَانَتْ تُفَصِّلُ -فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ- أَنْ يَنْفُضَ الْخُطَّ يَدَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَعُودَ إِلَى عَمَلِهِ الْأَصْلِيِّ، وَيُعِيشَ فِي حَالِهِ، وَيَتَحَمَّلُ مَا اخْتَارَتْهُ لَهَا الْأَقْدَارُ مِنْ خُطٍّ وَقِسْمَةٍ؛ فَهِيَ لَمْ تَكُنْ تَكْسِبُ شَيْئًا مَا مِنْ حَيَاةِ اللَّيْلِ الَّتِي يَحْيَاهَا الْخُطُّ. إِنَّمَا تُقِيمُ شُهُورًا طَوِيلَةً وَحِيدَةً، مَعَ طِفْلِهَا الرَّضِيعِ، وَمَعَ حِمَاتِهَا الْقَاسِيَةِ، وَبَلَا حَتَّى نَقُودٍ تُنْفِقُ مِنْهَا. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ دَخْلِهِ الْكَبِيرِ مِنَ الْإِثَاوَاتِ وَأَجْرِ الْحِرَاسَةِ وَالْعَطَايَا، فَإِنَّ رَشِيدَةً لَمْ تَتَلَّ شَيْئًا، كَانَ الْمَالُ يَذُوبُ مِنْ أَصَابِعِهِ، وَيَتَبَدَّدُ إِلَى حَيْثُ لَا تَدْرِي. كَانَ يَصْرِفُ بِسَقْفِهِ عَلَى اصْطِنَاعِ الْأَعْوَانِ، وَتَسْرِيحِ الْجَوَاسِيْسِ، وَالْحِفَافِ عَلَى وِلَاءِ الرِّجَالِ. وَمَا يَأْتِي مِنَ الرِّيحِ؛ يَطِيرُ مَعَ الرِّيحِ.

وَعَلَى «الْعَشْقِ» تَبَدَّدَ الْكَثِيرُ مِنْ عَائِدِ «الْعَنْفِ». كَانَ يَهْوَى النِّسَاءَ، وَيَشْرِبُ الزَّبِيبَ، وَيَتَعَاطَى الْأَفْيُونَ. أَلَوَانُ مِنَ الشَّبَقِ الْمُكْتَفٍ لِلْحَيَاةِ، كَأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهَا أَقْصَرُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَهَا بِالْحِكْمَةِ، أَوْ بِالزَّمْتِ.

يَحْلُو الزَّبِيبُ فِي الْجَبَلِ، وَسَطَ حَرَارَتِهِ اللَّافِحَةِ، يُرْطَبُ مَذَاقُهُ قَيْطَ الصَّخْرِ وَوَحْشَةِ اللَّيْلِ، أَمَّا قِصُّ الْأَفْيُونِ فَبِهِ تُشْحَذُ حَوَاسُّهُ لَتَنْتَمِرَ لِلْأَعْدَاءِ وَالْمُطَارِدِينَ. تَتَسَبَّحُ حَذَقُهُ الْعَيْنُ بَعْدَهُ، كَأَنَّهَا كَامِيرَا تَدُورُ فِي مَحْجَرِهَا بَحْثًا عَنْ دَسِيسَةٍ، أَوْ التَّقَاطُلِ لِمُؤَامَرَةٍ بَاجِتَةٍ عَنْ خَائِنَةِ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ، وَتَدُورُ أَكْوَابُ الشَّاي السَّاخِنِ، وَاحِدَةً وَرَاءَ الْأُخْرَى، بِأَعْيَنَةٍ تَشُوَّةٍ فِي الْأَعْصَابِ الْمَشْدُودَةِ.

فِي سَهَرَاتِ الْغَرَامِ يَحْلُو الْوَيْسَكِي، أَمَّا السِّجَائِرُ فَهُوَ يُفَضِّلُ أَنْ يَلْفَهَا لِنَفْسِهِ؛ شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ مُعْظَمِ أَهْلِ الصَّعِيدِ، الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ «الْلَفَّ» عَلَى سِجَائِرِ الْمَاكِينَةِ، الَّتِي تُصْنَعُ فِي الْفَابَرِيكَاتِ...

وَكَانَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَنْزِلُ مِنَ الْجَبَلِ مُنْشَرَحًا، وَيَقْضِي وَقْتًا سَعِيدًا مَعَ أَسْرَتِهِ، يُدَاعِبُ هَاشِمَ، وَيُغَارِلُ رَشِيدَةً، ثُمَّ يَأْخُذُ أُمَّهُ «خَالَتِي فَصَّةً» إِلَى سَطْحِ الْمَنْزِلِ، وَيُعْطِيهَا مِظَارَهُ الْمَكْبَرِ لِنَظَرِ مَنْهُ إِلَى قِمَّةِ «الشَّيْخِ بَخِيْتِ»، فَتَرَى ضَرِيخَ الشَّيْخِ الَّذِي تُحِبُّهُ، وَتُنْذِرُ لَهُ، وَتَتَبَرَّكُ بِهِ، وَبِمَجَرَّدِ أَنْ تَرَاهُ مُقَرَّبًا فِي مِظَارِ الْمِيدَانِ تَصْرُخُ قَائِلَةً إِنَّ ضَرِيخَ الشَّيْخِ قَدْ انْتَقَلَ مِنْ قِمَّةِ الْجَبَلِ إِلَى سَطْحِ الْمَنْزِلِ، بَيْنَمَا تَضْحَكُ رَشِيدَةً، وَيَرْفَعُ هَاشِمُ الرَّضِيعُ رَأْسَهُ مِنْ فَوْقِ ثَدْيِ أُمِّهِ وَيَتَأَمَّلُ الْمَشْهَدَ كُلَّهُ بِنَظَرَةٍ دَاهِشَةٍ!

لَكِنْ تِلْكَ الْإِيَّامُ قَدْ دَهَبَتْ...

إنه لم يَعدُ يأتي كثيرًا، وإذا جاء مضى بسرعة. إن بيته يبدو فقيرًا، وزوجته لم تُغيّر ملبسها منذ سنواتٍ، وهو لا يُعطي نقودًا لأمه، ولا يدري أحدٌ كيف يصرفُ إيراداته المَهولة، وفي أيِّ شيء! هل يصرفُها على النساء؟! لِمَ لا! كان معروفاً بغزواته النسائية المُوَفَّقة؛ فهو وسيمٌ، أشقر الشعر، أزرق العَيْنين... وهو شابٌّ، واسمه مَرهوبُ الجَانِب، وكلُّ النَّاس تضرب به المَثَل في الشَّجَاعَةِ والقُوَّة. كانت مُطارَدَةُ النِّساء هي هوايته الكبرى، وكم من مرَّة قاد عصابته إلى معركةٍ هائلةٍ في سبيل امرأة!

كان أولاد الليل عمومًا من الوجوه المعروفة في مختلف «أحياء المومسات» في مدن الصعيد، يُنفقُ مُعظمهم جزءًا كبيرًا من دخولهم على نساءٍ منطقة البغاء.

في كلِّ مدينةٍ من مدن الصعيد الكبرى كانت هناك «نقطة للمومسات»، أو حيٌّ لهم، يضمُّ عدَّة منازل، في كلِّ منزل «معلّمة» أو «عايقة» (هكذا سمّاها الأمرُ العالي، الصّادرُ بتنظيم البغاء)، و«العايقة» هي مديرتها وصاحبته، يشتغلُ معها -ولحسابها- عددٌ من البغايا، يرخصُ رسميّةً يمنحها لهنَّ البوليس.

وكانت نقطة المومسات في أسيوط معروفه باسم «الجنيزة»، اشتهرت دون غيرها من أحياء البغاء في مراكز الصعيد بمغامرات التبذير في الهوى والمال والمخدّرات، وذاع صيتها كوكبرٍ للمُجرمين والفتنّات، ومثارٍ دائمٍ للمُشاجرات والجرائم.

في كلِّ أسبوعٍ كان أهالي أسيوط يُتابعون موكبَ المومسات الذي يخرج يوميًا في الأسبوع من نقطتهنَّ إلى حيث يُوقع عليهنَّ الكشفُ الطبّي الذي يُؤكد خلوهنَّ من الأمراض السّريّة، ويصِف الأستاذ يحيى حقّي موكبهنَّ الحزين والمُهين، فيقول: «... صامتاتٌ، لولا طرف فستان لبنيٍّ أو «بمّبه» من تحت ثيابهنَّ السّود لَمَا قَطَنَ لهنَّ أحدٌ. رأيت الناس يتركونهنَّ لحالهنَّ؛ لا تعليقات لهم؛ لا يسخرية ولا برثاء. هذا الموكب الذي ألفوا مُشاهدته هو عندهم «طقم شَعّالة»؛ يُجاهد في الحياةٍ مثلهم».

وبين هؤلاء كانت سميرة عشيقه الخُطّ!

كانت في ربيعها الخامس والعشرين. سمراء، فارعة الطُّول، قوامُها تشوانٌ مُعربِدٌ عَرَبْدَةٌ هَامِسَةٌ؛ شَعْرُها أسودٌ فاجمٌ، وعيونها -كعيون الخُطّ- زرقاءٌ كزُرْقَةِ البَحْرِ الهادئ الصافي...

عَرَفَها الخُطّ في غزوةٍ من غزواته للجنيزة، وآثرها علي غيرها، ثم استأثرت به، والتقى بها بعد فترةٍ قصيرة، وازداد اعتزازًا بها، وحبًّا لها، لدرجة أنه كان يُنفقُ عليها في الليلة الواحدة من ليالي غرامهما أكثر من ثلاثين جنيهًا، وذاع صيت سميرة باعتبارها عشيقه «زعيم أولاد الليل» المُدَلِّلة،

المَرْهوبة الجانب، التي لا تشرب مع عشيقها الكبير سوى الويسكي، ولا شيء غيره.

وأصبح الخُطُّ وجهًا محبوبًا بين وجوه رجال الليل الذي يغشون حيَّ البغاء؛ فهو من أجل عيون سميرة السمراء الزرقاء ينفق ذات اليمين، ويُبعِثُ ذات الشمال، وينالُ الجميعَ من خيره نصيبٌ. وكانت الجنيزة أيامها تعيش أيام عِزِّها الأخير، وسنواتِ المَجْدِ المُوْشِكِ على الأفول؛ إذ كان يتردَّد بشدة أن البغاء الرسمي سوف يُلغى، وأن الحكومة قَرَّرت أن تُحافظَ على الأخلاق بتخريب نقطة المومسات، وهو ما دفع بعضَ مَنْ امتهنوا أعمال الجنيزة المتنوعة للهجرة؛ بحثًا عن أعمال شريفة ترضى عنها الحكومة!

وقرَّر هلال أفندي أن يُطبِّقَ الحِكمةَ الفرنسيةَ لعلَّها تقوِّده للقبضِ على الخُطِّ؛ الحِكمةُ القائلة: «فَتِّشْ عن المرأة»...

في ليلة من ليالي أكتوبر 1946 هبط من الجبل اثنان من أولاد الليل، وتوجَّهًا على الفور إلى الجنيزة. دَخَلَا أَوَّلَ مَنْزِلٍ صادَقَهما؛ بيت «المعلِّمة» حياة. كان في يَدِ كُلٍِّ منهما سلاحه؛ وجهاهما مُعَبَّران بما يُؤكِّد أنها عائدان لِتَوْهُما من اِشْتِباكٍ مُسلِّحٍ صَخَم. رَحَّبَتْ بهما «السَّت حياء»، تأمَّلت ملايسَهما؛ فتأكَّد لها طَنُّها؛ لقد جاءَ الرَّجُلان من معركة، هكذا كان مُعظَم أولاد الليل؛ يأتون بَعْبَارِ المَعَارِكِ ليشربوا، ويتمتعوا، وبعد مُناقشةٍ قَصيرةٍ قَهَمَتْ أَنَّ الرَّجُلَيْنِ من رجال الليل، وأن عصابتَهما فوق الجبل، وأن الشَّوقَ والمَلَلَ قد رَمَى بهما إلى أحضان «السَّت» لِيَمْضِيَا لَيْلَةً يُريدانها واحدةً من ليالي العمر، لا يُحَسَبُ فيها للمال حِسَابٌ، تَجْري الخَمْرُ فيها كالنَّهر، وَيَنِرُ الشَّبَقُ فيها كالقَيْضان.

وَأَسَدَ الرَّجُلان سِلَاحَيْهِما إلى الحائط، وتَراجعا إلى حيث استراح ظَهرهما لنعومة حشايا صُنِعَتْ على الحائط، بينما انصرفت المرأة تُعدُّ مُعَدَّات الليلة، وتُمنِّي نَفْسَها بِرِزْقٍ مَوْفُورٍ يَلِيقُ بِنَهرٍ من الخمر، وفيضان من العشق!

وجاء الطعام والشراب، وبعد عِدَّةِ كُؤُوسٍ انفلت عِيارُ الرَّجُلَيْنِ؛ وتَلَفَّظَ لسانهما بِالْفَاطِ من تلك التي لا يُجْهَدُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي اخْتِيَارِها، ونظر أحدهما -وكان يَتمَيِّزُ بِسِنَّةٍ دَهَبِيَّةٍ فِي مُقَدِّمَةِ فَمِهِ- لِلآخَرِ، ثم للسَّت... وقال:

- هُوَ مَفِيش حَدَّ هَنا غَيْرِك؟

بَعَثَتِ المرأةُ، قَالَتْ إِنَّ البَيتَ خَاصٌّ بِها؛ اقترحِ الرَّجُلُ ذُو السِّنَّةِ الدَّهَبِيَّةِ أَنْ تَأْتِيَ بِامْرَأَةٍ أُخْرَى لِكَي تَكُونَ الْقِسْمَةُ عَادِلَةً. أَكَدَّتِ الْمَرْأَةُ أَنَّها «قَدَّها وَقُدود». عاد الرَّجُلُ ذُو السِّنَّةِ الدَّهَبِيَّةِ يَقُولُ إِنَّه سَمِعَ أَنَّ بِالْجَنِيْزَةِ بِنْتًا جَمِيلَةً

اسمها سميرة، وبما أنها سمراء، وهو «يموت في السمرات»؛ فهو يقترح استدعاءها؛ لاستكمال أبهة السهرة!

نَظَرَتْ إِلَيْهِ السَّتُّ حَيَاةً بِاسْتِهْزَاءٍ وَسُخْرِيَةٍ، وَقَالَتْ:

- دي سميرة بعينك!

- ليه بقى؟ مش قد المَقام؟!

عن سميرة «ملكة الجنيزة» تحدّثت حياة... هذه عشيقه الخُطَّ، لا تتدبّر لتصبح مَدَاسًا لَأَيِّ إِنْسَانٍ وَهِيَ عَشِيقَةُ «سَيِّدِ الرَّجَالَةِ»...

لم ييأسَ الرَّجُلَانِ. وفي بيوت البغاء يَسْهُلُ دَائِمًا أَنْ تَخْرُجَ النُّقُودُ، فَتَحْسِمَ أَعْقَدَ الْمُشْكَلَاتِ، وَهَذَا مَا حَدَثَ، وَهُوَ مَا إِنْتَهَى بِأَنْ خَرَجَتِ السَّتُّ حَيَاةً تُرْجِرُ أَرْدَاقَهَا الْوَافِرَةَ، «وَتَطْرُقُ» بِقُبْقَابِهَا، مُؤَكِّدَةً أَنَّهَا سَتَسْعَى، وَلَيْسَ عَلَيْهَا إِدْرَاكُ النِّجَاحِ... وَغَابَتْ، وَطَالَ غِيَابُهَا، وَقَلِقَ الرَّجُلَانِ، بَيِّدًا أَنَّ الْمَفَاوِضَاتِ نَجَحَتْ فِي النِّهَايَةِ، وَدَخَلَتْ «السَّتُّ» وَفِي صُحْبَتِهَا سَمِيرَةٌ!

هذه هي سميرة!

- أصل سميرة ما بتشربش غير ويسكي!

قال أحد الرَّجُلَيْنِ:

- يا سلام.. غالية والطلب رخيص يا سَيِّتِ سَمِيرَةٍ...

وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ خَمْسَةَ جَنِيهَاتٍ نَاولَهَا لِلْسَّتِّ حَيَاةً، الَّتِي خَرَجَتْ مَرَّةً أُخْرَى تَهْزُ أَرْدَاقَهَا وَتَطْرُقُ بِقُبْقَابِهَا، وَاعِدَةً أَنْ تَعُودَ بِالْوَيْسَكِيِّ:

- هَوَا!

بعد هذه الإشارة الودّية تَوَاصَّعَتِ «مَلِكَةُ الْجَنِيْزَةِ»، وَقَبِلَتْ أَنْ تُسَامِرَ الرَّجُلَيْنِ، وَهِيَ تَتَحَدَّثُ مَدَّتْ يَدَهَا إِلَى أَحَدِ الْمَدْفَعَيْنِ الْمُسْنَدَيْنِ إِلَى الْحَائِطِ، وَكَانَ مَدْفَعُ الشَّابِّ ذِي السَّنَةِ الذَّهَبِيَّةِ، فَخَصَتْهُ بِدَقَّةٍ، وَسَأَلَتْ عَنْ بَعْضِ أَجْزَاءِ فِيهِ، ثُمَّ أَعَادَتْهُ فِي اسْتِخْفَافٍ، قَائِلَةً:

- الظَّاهِرُ أَنَّكَ لَسْتَ جُدَادٌ فِي الْكَارِ...

وَاسْتَدْرَجَهَا الشَّابُّ ذُو السَّنَةِ الذَّهَبِيَّةِ لِحَدِيثٍ عَنِ الْخُطِّ، وَيَبْدُو أَنَّ فَخْرَهَا بِعِلَاقَتِهِ بِهَا كَانَ يَضْغَطُ عَلَى صَدْرِهَا؛ وَهَكَذَا تَدْفُقُ الْحَدِيثُ عَلَى لِسَانِهَا سَهْلًا، وَبِلا مَجْهُودٍ... تَحَدَّثَتْ عَنْ رُجُولِيَّتِهِ وَفُحُولِيَّتِهِ، عَنْ عَشِيقِهِ لَهَا، وَاهْتِمَامِهِ بِهَا... عَنْ الْأَخْطَارِ الَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا لَكِي يَقْضِي وَقْتًا مَعَهَا، عَنْ جَسَارَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ، وَقَلْبِهِ الطَّيِّبِ، لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ يَبْكِي إِذَا خَاصَمْتَهُ، وَيَسْهَرُ إِذَا لَدَعَتِ الْغِيْرَةُ قَلْبَهُ، وَشَعَرَ الرَّجُلَانِ أَنَّهُمَا لَا يَسَاوِيَانِ شَيْئًا أَمَامَ الْخُطِّ؛ سَيِّدِ الرَّجَالِ، وَعَشِيقِ صَاحِبَةِ الْجَلَالَةِ مَلِكَةِ الْجَنِيْزَةِ!

وَبَفَتْحِ زُجَاجَةِ الْوَيْسَكِيِّ تَحَسَّنَ الْجَوُّ نِسْبِيًّا؛ شَرِبَتْ سَمِيرَةً، وَثَرَّتْ،
وَعَمَّرَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ بَعِينَهُ قَائِلًا بِلَهْجَةٍ خَاصَّةٍ:

دا احنا حننيسط قوي الليلة دي...

قامت سميرة بِدْفَعِهِ:

دا بُعْدَكَ...

عَلَّقَتِ السَّتُّ حَيَاةَ:

ما قُلْتُ لَكُمْ مِنَ الْأَوَّلِ.

وَرَدًّا عَلَى نَظَرَاتِهِمَا الدَّهْشَةَ؛ قَالَتْ حَيَاةُ إِنَّ سَمِيرَةَ عَاهَدَتِ الْخُطَّ أَلَّا
تَخُونَهُ، وَأَلَّا تَنْكَشِفَ عَلَى أَيِّ رَجُلٍ مِنْ رِجَالِ اللَّيْلِ مَهْمَا بَلَغَ بَأْسُهُ مِنَ الْإِجْرَامِ؛
وَلِذَلِكَ فَعَلِيَهُمَا أَلَّا يَأْمَلَا فِي أَيِّ انْبِسَاطٍ غَيْرِ مَا هُوَ حَادِثٌ الْآنَ بِالْفِعْلِ.

تَسَاءَلَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ فِي دَهْشَةٍ:

- يَعْنِي السَّتُّ مَا بَتَشْتَغِلُش!

قَالَتْ حَيَاةُ إِنَّهَا تَشْتَغِلُ؛ فَهِيَ تَسْتَقْبِلُ مَنْ لَيْسُوا مِنْ أَبْنَاءِ اللَّيْلِ فِي
مَنْزِلِهَا؛ إِنَّهَا جُزْءٌ مِنْ مَوَكِبِ الشُّغَالَةِ» الَّذِي يَجْهَدُ فِي الْحَيَاةِ... وَهِيَ «بَنْتُ
كَار»، وَلَا بُدَّ أَنْ تَأْكَلَ لِقْمَتَهَا. إِنَّهَا تَرْفُضُ أَبْنَاءَ اللَّيْلِ لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ فِي نَفْسِ
مِهْنَةِ حَبِيبِهَا، وَهُوَ يَلْتَقِي بِهِمْ، وَيَعْرِفُهُمْ؛ فَجَسَدُهَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُكْشَفَ لَهُمْ، أَهَّا
غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ الْعَادِيِّينَ فَإِنْ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا تُحَدِّثُهُ تَفْسُهُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ الْخُطِّ؛
فَلَا حَرَجَ إِذَا مِنْ أَنْ تَعْطِيَهُ نَفْسَهَا!

وَبَدَأَ الْمُنْطِقُ غَرِيبًا عَلَى الرَّجُلَيْنِ، وَلَكِنَّهُمَا تَقَبَّلَاهُ وَ«أَمَرَهُمَا لِلَّهِ»، وَبَيْنَمَا
كَانَا يُفَكِّرَانِ فِي الْمَسْأَلَةِ انْحَنَّتْ سَمِيرَةُ عَلَى أَحَدِهِمَا سَائِلَةً إِيَّاهُ عَنْ «فَصِ
أَفْيُونٍ»، فَاعْتَذَرَ بِأَنَّهُ لَا يَتَعَاطَاهُ. نَظَرَتْ إِلَيْهِ سَمِيرَةُ بِاسْتِخْفَافٍ، وَتَحَدَّثَتْ عَنْ
الْخُطِّ الَّذِي يَأْكُلُ الْأَفْيُونُ كَوَجَبَةٍ غَذَائِيَّةٍ، وَبِكَمِّيَّةٍ لَا يَقْوَى عَلَيْهَا مِائَةُ رَجُلٍ،
وَعَدَّدَتْ بِطَوَلَاتِ رَجُلِهَا الْخُطَّ فِي مَجَالَاتِ الْخُمُورِ الَّتِي لَا تَرُوي ظَمَأَهَا مِنْهَا
حَانَةٌ يَكُلُّ مَا فِيهَا، وَقَالَتْ:

- وَحَيَاتُكَ قَرَاظَتَيْنِ وَبِسْكِي وَقِرْصُ أَفْيُونٍ مَا يَمْسَحُوشُ زُورَهُ!

وَانْطَلَقَتْ مَلِكَةُ الْجَنِيْزَةِ تَسْخَرُ مِنْ مُحَدِّثِهَا الَّذِي مَا زَالَ مُسْتَجِدًّا فِي عَالَمِ
أَوْلَادِ اللَّيْلِ: لَا يَتَعَاطَى أَفْيُونًا، وَلَا يَشْرَبُ وَبِسْكِي، وَسِلَاحُهُ مِنْ طَرَاظٍ عَتِيقٍ؛
وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَوَدُّ أَنْ يَعْبَثَ حَيْثُ يَتَهَجَّدُ رَعِيْمُهُ، وَبَيْنَ أَعْمِدَةِ نَفْسِ الْمِحْرَابِ!
وَانْصَرَفَتْ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ «شَدَّتْ عَلَيْهِ الْمَسْخَرَةَ»، وَجَعَلَتْهُ هُزْأَةً الْجَلِيسَةِ،
وَالْتَفَتَتْ إِلَى زَمِيلِهِ ذِي السَّنَةِ الذَّهَبِيَّةِ؛ كَانَ يَبْدُو أَكْثَرَ قَهْلَوَةً مِنْ زَمِيلِهِ: يَتَحَرَّكُ
بِكَثْرَةٍ، وَيَغْمُرُ بِعَيْنَيْهِ... وَتَبَادَلَتْ مَعَهُ حَدِيثًا قَصِيرًا... قَالَ:

- ما تفرّجينا الرقص اللي على أصله يا سَمارة!

وبعد تَمَنُّعٍ قصيرٍ، ورجاءٍ طويلٍ قَامَتِ المَلِكَةُ لترْقُصَ على نقراتِ أصابعِ السَّتِّ حياءَ عَلَى المنصَّدةِ، وتصفيقِ الرَّجُلَيْنِ...

كانا قد سَكِرَا تَمَامًا، لدرجة أنهما نَسِيَا نَفْسَيْهِمَا، ووسطَ الصَّجَّةِ والصُّرَاخِ، واليَّرَاقِصِ السَّريعِ، ولطشةِ الوبسكي، وتَنَبُّيِ الجسدِ الرَّخِصِ الجميلِ، وتَهَدُّلِ شلالِ الشَّعرِ الأسودِ الحالكِ فوقَ الصَّدرِ اللَّينِ، وبَرِيقِ العيونِ الزَّرْقَاءِ بنشوةِ الخمرِ والرقصِ- وسطِ كُلِّ هذا قال الرَّجُلُ ذو السَّنَةِ الذهبيةِ شيئًا... كلمةً ما، لم يَلْتَقِطْهَا أَحَدٌ، لكنْ أدنا سميرة التقتطها.

فَوَجِئَ الرَّجُلَانِ بسميرة تتوقَّفُ عن الرقصِ، وتلتقط مدفعًا من مدفعَيْهِمَا، وتَقْفِزُ به على بُعْدِ مِترٍ مِنْهُمَا، وتُصَوِّبه إلى صدرَيْهِمَا، وهي تقول بصوتٍ قاسٍ:

- كَشَفْتَ سِرُّكُمْ يا ولاد الكلب.. انتوا جايين ورا الخُطِّ.. بوليس.. مش كده؟! كده؟!

لقد عَرَفَتِ سميرة أن ابْنِي اللَّيْلِ هُما المُلَازِمُ أَوَّلُ محمد السعيد هلال قائد فرقة الموت، والمُلَازِمُ أَوَّلُ حامد عبد الله؛ قائدُها الثاني، وتَحَرَّجَ المَوْقِفُ، وَجَاهَدَ الصَّابِطَانِ لانتشالِ زَهْنَيْهِمَا من مَوْقِفَيْهِمَا الرَّهيبِ. كانا غارقَيْنِ تَمَامًا في الوبسكي والرقصِ، وسَارَعَتِ السَّتُّ حياءَ فتدخَّلتِ مهرولةً. كانت سميرة قد تَنَمَّرَتِ، قَبَدَتِ كَلْبُوءَةً غَاضِبَةً، وَشَعَّتِ عيناها الزرقاوان بريقًا لا يرحم. قالت حياة:

- سميرة.. وحياة الخُطِّ.. وغلاوته.. إرمي الداهية اللي في إيدك دي.. ما تجبيش لنا داهية.

قَالَتْهَا بلَهْجَةٍ خَاصَّةٍ، لا تقولها إلا أَنتِى لأنتِى، كَأَنَّهَا تُريدُ أن تَمْتَحِنَ حُبَّ سميرة للخُطِّ، و«غلاوته» عندها... وصمتت سميرة، تجمَّدَتِ أصابعُها على زناد المدفعِ، وعَادَتِ حياة تُكْرِّرُ رجاءَها:

- أنا بَحَلْفِكَ بغلاوة الخُطِّ...

مَرَّتِ اللحظة الثقيلة مَشْحُونَةً. هَدَّأتِ نَظَرَاتُ سميرة. صَوَّبَتِ إِلَيْهِمَا نظرةَ عتابٍ مِنْ بَحْرِ عَيْنَيْهَا السَّاكِنِ، تَعَتَبُ عَلَيْهِمَا طَنَّهُمَا أَنَّهَا يُمكنُ أن تَخونَ حبيبَها أو تُسلمه، ثُمَّ أَلْقَتِ المدفعَ إلى جوارِ الحائِطِ كما كان، واستدارت خَارِجَةً...

في الوقت الذي كان فيه قائدًا فرقة المُطاردة يقضيان الوقتَ مع عشيقَةِ الخُطِّ كان هو يَشْنُ غَارَةً قَاسِيَةً على بلدةِ اسمها «دكران»، بمركزِ

«أبو تيج»، وأسفرت الغارة عن بعض القتلى.

ووجد المُلَازِمان عند عَوْدتهما إلى لوكاندة الشامي إشارة بالحادث بمقرَّهما، ووجدا تَأْشِيرَةً يَخْطُ حَكْمَدَارُ أُسَيُوط، نَصُّها: «تنتقل فرقة المَطَارْدَة لحضور التَّحْقِيق»...

جَاوَزَت السَّاعَةُ وَقْتُهَا الثَّالِثَةَ صَبَاحًا وَهُمَا مَخْمُورَانِ مُنْهَكَانِ، بَعْدَ نَهَارٍ شَاقٍّ فَوْقَ الْجَبَلِ، وَسَاعَاتٍ مَتَوَتِّرَةٍ قَصَبَاها فِي بَيْتِ السَّتِّ حَيَاةً... وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ قِيَامِ أَحَدِهِمَا عَلَى رَأْسِ الْفِرْقَةِ، وَتَبَادَلَا نَظْرَاتٍ مُجْهِدَةً، ثُمَّ اتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَتْرُكَا لِلْفُرْعَةِ أَنْ تَخْتَارَ، وَإِذْ اخْتَارَتِ الْفِرْعَةُ حَامِدَ عَبْدِ اللَّهِ أَنْصَرَفَ مُسْرِعًا، بِنَفْسِ السَّرْعَةِ الَّتِي قَادَتِ مُحَمَّدَ هَلَالٍ إِلَى فِرَاشِهِ، يَغُطُّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ...
وَبَدَأَتْ فِرْقَةُ الْمَطَارْدَةِ بِمَجَرَّدِ وَصُولِهَا إِلَى دَكَرَانَ حَمَلَةً تَفْتِيشِيَّةً وَاسِعَةً عَنِ الْخُطِّ...

وَعَادَ حَامِدُ عَبْدِ اللَّهِ قَبْلَ الظُّهْرِ، كَانَ هَلَالٌ مَا زَالَ نَائِمًا، اسْتَيْقَظَ عَلَى يَدِ تَهْزُؤِهِ بِشَدَّةٍ، رَفَعَ الْغِطَاءَ عَنْ وَجْهِهِ، اِكْتَشَفَ أَنَّهُ زَمِيلُهُ، أَعَادَ الْغِطَاءَ عَلَى وَجْهِهِ وَقَالَ:

يَا أَخِي نَامَ... وَخَلَّى النَّاسَ تَنَامَ...

صَحَّ النَّوْمُ... يَظْهَرُ إِنِّي قَتَلْتُ الْخُطَّ...

فِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ كَانَ هَلَالٌ قَدْ اسْتَيْقَظَ تَمَامًا، انْهَالَ عَلَى زَمِيلِهِ بِالْقُبَلَاتِ، فَأَوْقَفَهُ قَائِلًا:
- بِاقُولِ لَكَ الظَّاهِرَ...

لَا... إِنْتِ مُتَأَكِّدٌ... قَوْلِ إِنَّكَ مُتَأَكِّدٌ... إِنْ حَكِي لِي قَتَلْتَهُ أَرَأَيْ؟!

وَبَدَأَ حَامِدُ يَرْوِي... فَأثناء عودته بالفرقة بعد إنهاء التَّحْقِيقِ فِي حَادِثِ دَكَرَانَ رَأَى عَلَى مَدَى الْبَصَرِ رَأْسًا وَسَطَ مِيَاهِ الْحَوْضِ، وَكَانَتْ يَدُهُ مَرْفُوعَةً بِنَدَقِيَّةٍ، عَرَفَ كَيْفَ يَحْمِيهَا مِنَ الْمَاءِ بِمَهَارَةٍ كَلَّبِ الْبَحْرَ الْمُدْرَبَ، وَبَدَأَ حَامِدُ يَتَرَصَّدُ الرَّأْسَ لِاصْطِيَادِهَا، وَلَكِنَّ الشَّقِيَّ كَانَ يَمْلِكُ عَيْنِي صَقْرٍ... تَفَاجَأَ الصَّابِطُ بِرِصَاصَاتٍ سَرِيعَةٍ مَرَقَتْ بِجَانِبِهِ، وَتَبَادَلَا إِطْلَاقَ الرِّصَاصِ، أَخْطَأَتْهُ الرِّصَاصَةُ الْأُولَى، لَكِنِ الثَّانِيَةُ اسْتَقَرَّتْ فِي رَأْسِهِ، فَاخْتَفَى فِي مِيَاهِ الْحَوْضِ...

وَلَكِنَّ الرَّأْسَ -كَالْعَادَةِ- لَمْ تَكُنْ رَأْسَ الْخُطِّ!

كَانَتِ الرَّأْسُ لَوَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِ عَصَابَتِهِ، هُوَ عَيْدُ الْحَفِيزِ سَالِمٍ، كَانَ هَارِبًا مِنْ حُكْمِ الْأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ الْمُؤَبَّدَةِ، وَقَدْ قَادَهُ حَظُّهُ الْأَسْوَدُ لِلْهَرَبِ مِنَ الْحَمَلَةِ التَفْتِيشِيَّةِ؛ فَنَزَلَ إِلَى الْحَوْضِ سَابِحًا إِلَى مَآكِنَةِ مِيَاهِ لِيَخْتَبِئَ بِهَا، فَاقْتَنَصَتْهُ رِصَاصَاتُ حَامِدِ عَبْدِ اللَّهِ.

على أن حملة دكران لم تُعد خائبةً على أيِّ الأحوال؛ فبخلاف عبد الحفيظ فإنَّ الفرقة طارَدَت في الجبَلِ عَدَدًا من الأفراد، وَتَمَكَّنَت من اصطياد جعيدي عبد المحسن، ابن أخت الخُطِّ، وواحد من أشرس أفراد عصابته.

ما أكثر الرِّصاص الذي يُطَلَقُ وراءَ ابن اللَّيْلِ الهاربِ، وما أَقلَّ ذلك الذي يصيب عصابته... وهاهو قد طاش كله، فَلَمْ تُصِبْهُ هو شخصيًا ولا رصاصة؛ فهل أَصْبَحَ الأمرُ مُبَيَّنًا إلى هذه الدَّرَجَةِ!

هل هو الخُطُّ.. أم هو الحظُّ، كما أسماه صاحِبُ الجَلَالَةِ؟!

الفصل الثامن

المُخَابَرَاتُ الْبَرِيطَانِيَّةُ تَدْخُلُ الْمَعْرَكَةَ...

إذا كان الخُطُّ قد نجا من رصاص مُطارِدِيهِ، فلم يُصِبْهُ في مَقْتَلٍ في جزء من جَسَدِهِ؛ فإن هذا الرصاص قد أصابه في مَقَاتِلٍ أُخْرَى، حيث لم يَقْصِدُ المُطَارِدُونَ، ولم يَتَخَيَّلُوهُ؛ ذلك أن حالة الحصار التي وجد نَفْسُهُ أُسِيرًا لها قد قَادَتْهُ من حيث لا يُرِيدُ إلى تدمير نَفْسِهِ، فكلما ازداد الحصارُ حوله؛ ازداد هو تَوَثُّرًا، وَقَقَدَ تَقْدِيرَهُ الْجَيِّدَ لِلْأُمُورِ؛ فَطَاشَ رِصَاصُهُ، وَأَصَابَ حَيْثُ لم يَكُنْ يُصِيبُ قَبْلَ ذَلِكَ، وحيث كان يَجِبُ ألا يُصِيبَ في أَيِّ وقت!

لقد بنى مُعْظَمُ أولاد الليل شُهْرَتَهُمْ على أنهم يدخلون معارك مُحَدَّدَةً، ضِدَّ أَفْرَادٍ مُحَدَّدِينَ. إنهم لا يريدون من الْفُقَرَاءِ شَيْئًا، وليس بينهم وبين ما لم يَمْلِكُوا عداً؛ فَهُمْ جَمِيعًا أَبْنَاءُ ذَلِكَ الْقَهْرِ الاجتماعي الْمُرْكَزِ، وَغُنْفُهُمْ يُعَدُّ نَوْعًا من «الْغَنَفِ الْمُرْتَدِّ». لقد وُضِعُوا -غَالِبًا- تحت ضغوطٍ قَوْقَ ما تَحْتَمِلُهُ طَائِفَتُهُمُ الْبَشَرِيَّةُ، وانطلق رصاصهم لِيُواجِهَ لَحْظَةً، لو لم يُواجِهُوا لانهاروا تمامًا كَبَشَرٍ، وَلَفَقَدُوا احْتِرَامَهُمْ لأنْفُسِهِمْ، وتلك حالة يَصْعُبُ قَبُولُهَا في الصَّعِيدِ، حيث آثار تقاليد القبائل القديمة ما زالت سارية، وحيث تتحدَّدُ الْمَكَاتَةُ الاجتماعيةُ على أساسٍ من الاعتزاز بالذات، والحفاظ على الكرامة الفردية، وكان كثيرون من أبناء الليل يُشبهون فرسان العُصورِ الوُسْطَى، فما بأيديهم ليس مُلْكُهُمْ، وعطاياهم للمُحتاجين أكثر من أن تُحصى، بل إنَّ بعضَهم كان يأخذ بشار الْفُقَرَاءِ مَجَّاتًا. ومن الروايات المتواترة بكثرة، والتي تُروى عن بعضهم، أن أرملةً فقيرةً ذَهَبَتْ «تُقاوِلُ» أحدهم على أن يأخذ لها بشار رَوْجِهَا الذي قَتَلَهُ «سَيِّدُهُ» الْغَنِيُّ، الْقَادِرُ، وَعَرَضَتْ أن تباع عَنزَةٌ -هي كَلْبٌ ما ترك رَوْجُهَا الْمُغْتَالُ- من الميراث؛ لتعطيه أجْرَهُ عن القتل، وأَشْفَقَ ابن الليل على حالها، وطلب منها أن تحفظ عليها عنزتها؛ وأخذ لها بشارها مِنَّمَا اغتال رَوْجُهَا مَجَّاتًا، ولوجه الله!

وربَّما كان واحدًا من أهم الأسباب التي أَبَقَتْ أولاد الليل ودَعَّعَتْ نفوذَهُمْ؛ هو أنهم -كالْفِتَوَاتِ في المِدين- عاشوا دائمًا في بحرٍ من الحماية الواسعة، فَرَضَتْها عليهم كل الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ ليسوا طَرَفًا في الْمُسْكِلةِ، وصحيح أن الخوف كان عاملاً من العوامل التي صَنَعَتْ مَوْقِفَ الْفُقَرَاءِ ذَلِكَ أحيانًا، ولكنه لم يكن كذلك دائمًا؛ ذلك أن الظاهرة في الواقع أعمق من هذا، والعلاقة بين الْفُقَرَاءِ وبين أبناء الليل هي تلك النُّقْطَةُ التي طَاشَتْ عندها كُلُّ رِصَاصَاتِ البوليس، والتَّضْحِيَّةُ بهذه العلاقة، وَقَصْمُ هذا التَّحَالُفِ هو الذي يُنْهِي حياة أولاد الليل وَيَقْضِي عليهم... وقد يكون من الصحيح أن تقول إنَّ تحالفَ

أولاد الليل مع الأعيان هو الذي كان يقوم أحيانًا على الخوف، وأحيانًا على التَّعَاوُن النَّاجِمَ عَنِ الْخَوْفِ.

لكن علاقة أولاد الليل بالفقراء كانت دائمًا علاقة حُبٍّ مُتَبَادِلٍ. كان البُسطاءُ من الناس يَجِدُونَ فِي غُنْفِهِمْ ضِدَّ الْمُتَجَبِّرِينَ وَالطُّغَاةَ تَوَعًّا مِنَ التَّعْوِيزِ عَنِ غُنْفِهِمِ الْمَكْبُوتِ، وَعَنِ فَعْلِهِمِ الْمُحَبَّطِ. رُبَّمَا نَالَتْهُمْ مِنْهُمْ أَحْيَانًا بَعْضُ الْعَطَايَا، لَكِنَّهُمْ حَتَّى لَوْ لَمْ يَأْخُذُوا شَيْئًا فَهُمْ يَكْتَفُونَ بِذَلِكَ التَّعْوِيزِ النَّفْسِيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ عِنْدَمَا يَذَلُّ أَوْلَادُ اللَّيْلِ هَيْبَةَ الْكِبَارِ وَالْأَغْنِيَاءِ وَلُصُوصِ الْعَرَقِ.

وَأَيَّامَهَا كَانَ الْفُقَرَاءُ وَالْأَجْرَاءُ يَشْعُرُونَ -شَعورًا مُكْتَفًا- بِأَنَّ الْبُولِيسَ بَرَّصَهِ لَا يَحْمِيهِمْ؛ إِنَّهُ يَحْمِي -فَحَسْبُ- اللَّصُوصَ الَّذِينَ يَسْرِقُونَ عَرَقَهُمْ... إِنْ جَهَدَهُمِ الْبَشَرِيُّ كُلَّهُ يُسْفَحُ، وَيُبْتَذَلُ، وَيُجَارُونَ عَلَى عَمَلِهِمْ لَطْمَاتٍ، وَيَقْبِضُونَ تَمَنَّهُمْ إِهَانَاتٍ. لَمْ يَتَدَخَّلِ الْبُولِيسُ لِرَدِّ حَقِّ ضَاعَ عَلَيْهِمْ، أَوْ لِلْحِفَاطِ عَلَى كِرَامَةٍ أَهْنَتِ، الْعَكْسُ هُوَ مَا يَحْدُثُ؛ فِي عُرْفِ «الْحِزْ» فِي الْمَرَازِ، وَ«النُّقْطِ» كَانُوا يُحَبِّسُونَ، وَيُجَبِّرُونَ عَلَى شُرْبِ «بُولِ الْخِيلِ»، وَيَصْعَقُهُمِ الْعَسَاكِرُ، وَيَحْلِقُونَ لَهُمْ شَوَارِبَهُمْ. إِذَا رَفَعَ أَحَدُهُمْ صَوْتَهُ وَطَالَبَ بِحَقٍّ فَإِنَّ مَالِكَ الْأَرْضِ يَعْتَبِرُ نُقْطَةً الْبُولِيسِ كُجْزًا مِنْ قَصْرِهِ؛ تَعْمَلُ لِحَسَابِهِ، وَالَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِيهَا هُمْ عُمَلَاؤُهُ الْمُبَاشِرُونَ، يَتَقَاضُونَ مِنْهُ رِشَاوِي وَهَدَايَا، وَيَسْهَرُونَ فِي قَصْرِهِ، وَيَأْكُلُونَ عَلَى مَوَائِدِهِ، وَيَتَكَفَّلُونَ دَائِمًا بِاسْتِخْدَامِ سُلْطَاتِهِمْ فِي تَأْدِيبِ كُلِّ مَنْ يَتَجَاسَّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ فِي وَجْهِ أَسْيَادِهِ.

وَكَانَ الْبُولِيسُ قَدْ أَدْرَكَ خِلَالَ الْأَنْقِلَابَاتِ الدِّسْتُورِيَّةِ الْمُتَوَالِيَةِ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي مِصْرَ، وَالَّتِي كَانَتْ تُعْلِي مِنْ سُلْطَةِ «الْإِدَارَةِ» فَوْقَ سُلْطَةِ الْقَضَاءِ وَفَوْقَ الْبَرْلَمَانِ- أَدْرَكَ ضُبَّاطُ الْبُولِيسِ مِنْ هَذَا أَنََّّهُمُ الْحُكَّامُ النَّائِبُونَ وَالِدَائِمُونَ. إِنْ وَزَارَاتٍ تَأْتِي وَتَذْهَبُ، وَالدِّسْتُورُ يُطَبَّقُ عَامًّا وَيَذْهَبُ خَمْسَةَ، وَفَقَدُوا لِذَلِكَ أَيَّ إِحْسَاسٍ بِأَنَّهُمْ تَحْتَ رَقَابَةٍ؛ فَتَحَوَّلُوا بِوَلَائِهِمْ إِلَى الَّذِينَ يَمْلِكُونَ تَفْعَهُمْ تَفْعًا مُبَاشِرًا وَحَيًّا، يَأْكُلُونَ عَلَى مَوَائِدِ الْبَاشَاوَاتِ، وَيَقْبَلُونَ رِشَاوِيَهُمْ، وَيَسْعَوْنَ لِمُصَاهَرَتِهِمْ، وَفِي مَقَابِلِ هَذَا كُلِّهِ يُنْفَذُونَ لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ...

وَكَمَا صَنَعَ ضُبَّاطُ الْبُولِيسِ مَنَظَقَهُمْ، فَإِنْ ضَحَايَاهُمْ أَصْبَحَ لَهُمْ مَنَظَقٌ مُقَابِلٌ...

وَكَانَ مَنَظَقُ الْفُقَرَاءِ -عَلَى سَدَاجَتِهِ وَتَلْقَائِيَّتِهِ، وَتَعْقِيدِ أَسْبَابِهِ- هُوَ أَرْقَى أَشْكَالِ الْوَعْيِ الْاجْتِمَاعِيِّ بِوَاقِعِهِمْ؛ فَالدَّوْلَةُ، بِبُولِيسِهَا، وَجِيْشِهَا، وَقَضَائِهَا- هِيَ دَوْلَةُ الْأَعْيَانِ، وَالْمَعْرَكَةُ هِيَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَبَيْنَ أَوْلَادِ اللَّيْلِ؛ فَمَا شَأْنُنَا نَحْنُ بِهَا؟ إِنْ أَحَدًا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْنَا بِسُوءٍ... وَأَوْلَادُ اللَّيْلِ فِي النِّهَايَةِ «أَبْنَاءُ شَقَاءٍ»، يُكَابِدُونَ مِنْ أَجْلِ انْتِزَاعِ لِقَمَتِهِمْ مِنْ تُخْمَةِ الْوَحُوشِ، الَّذِينَ يَمْلِكُونَ عَشْرَاتِ الْأَلْفِ مِنَ الْأَفْدِيَةِ، بَيْنَمَا تَنْتَشِرُ الْمَلَارِيَا، وَالْحُمَّى الرَّاجِعَةُ، وَالبَلَاغِرَا فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الصَّعِيدِ!

ولكنَّ الظروفَ كانت تتغيَّر تدريجيًّا على جبهة الخطأ!

لقد مات عوَّاد؛ عقله، ومُفتي عصابته، وكان يلعب دورًا خطيرًا في حياته وحياة العصابة؛ كان زعيمها الرُّوحِيّ، ومُفتيها، ومُنظِّرها، ورأسِمْ خُطَطِها... إنه هو الذي يُفتي بمن تَحِلُّ أمواله للعصابة؛ لأنها كثيرة، أكثر من أن يَحْتَمِلَها وَحده، ومَن لا تَحِلُّ؛ لأنَّها «يا دوبك» تكفيه. وهو الذي كان يُحدِّد الأعداء والأصدقاء، ويرسم التحالفات، ويُقوِّي الرجال، ويُنَبِّئ قُلُوبَهم الواجِفة، ويعطُهم بالقرآن والأحاديث؛ لكي يحافظوا على وحدتهم وتماسكهم، ويواجهوا أعداءهم صفاً واحداً.

وبعد عوَّاد سَقَطَ كثيرون: عبد الحفيظ، وجعيدي، وتمَّام... وانفضَّ آخرون؛ خَوْفاً أو جَزَعًا، ولم يَبْقَ سوى صالحين، و«مشعال»، الولد الأسمر السُّودانيّ، الذي حَمَلَ للعصابة كُلَّ غُنفِ أحرّاش الجنوب، ودَمَوِيَّةِ الإنسان البدائيّ. ليس هذا فَقَط؛ بل الخطُ نَفْسَه بدأت تَغْلِبُه طَبِيعَتُهُ الانفعاليَّة، وبدأ رِصاصُ العصابة يَنجِبُه إلى فقراء ومساكين، ليس لهم «في الطور.. ولا في الطحين»!

كان أولاد اللَّيْلِ يبدؤون حياتهم كما لو كانوا امتدادًا طبيعيًّا لزمن الصَّعَلَكَةِ والْفُتُوَّةِ عند العرب، عندما كان الفتيان يُحاربون من أجل الفقراء؛ يَهَيِّطون على الأغنياء فيسلبونهم ما زاد عن حاجتهم، فيوزِّعونه على الذين تَقَلُّهم الحاجة، وتُذِلُّهم المِسْكَنَةُ.

على أن مشكلتهم الحقيقيَّة كانت تبدأ عادةً عندما يَقوِّدُهم تَعْقِيدُ الحياة إلى حيث يختلط الحابلُ بالنَّالِ، والصَّدِيقُ بالعدوِّ، ويُصيبُ الرِّصاصُ حيث يَجِبُ ألا يُصيب. لأنَّ غُنفَهم كان تلقائيًّا، ينطلق من انفجار انفعالات ذاتيَّة في الغالب؛ فَقَدَ كان يَفْقِدُ مع الحِصارِ اتِّجاهَه، ويَرْتَبِكُ، وتتشابه مَلامِحُ العدوِّ الكريهة مع قَسَمَاتِ الصَّدِيقِ المُشتاقِ!

على قِمَّةِ الجَبَلِ، حيث الإنسان وحيدٌ إلَّا من الأفيون والزَّبيب، والليل، والبندقية، ولِلْمُطارِدِينَ من كُلِّ صَنَفٍ؛ في هذه العُزْلَةِ القاسيَّةِ كان أولاد الليل يفتقدون الطريق، ويضلُّون الغاية، يُعزَّلون عن قواعدهم، وعن رموز المُقاومة التي يُمثِّلونها؛ فينتهون في الغالب إلى مُجرمين حَقِيقِيَّين...

واللحظة التي يتحوَّل فيها ابنُ اللَّيْلِ من رمزٍ لِلتَّمَرُّدِ على مجتمع فاسدٍ، مُجْتَمَعٍ يَنوؤُ بِكُلِّ غُنفِهِ على عاتِقِ الذين يَجْهَدون ويَعْرِقون في الحياة- إلى مُجَرَّدٍ «مجرم عاديٍّ»؛ فهي تلك اللحظة التي يُحاصر فيها تمامًا، هُنا يُصْبِحُ إنقاذُ الذاتِ هو الأساس، ولا يُفَرِّقُ الرِّصاصُ بين الصَّدِيقِ والعدوِّ، ولا بين المُجرِمِ والصَّحِيَّةِ. إن لحظات الحِصارِ لم تُصَبْ -فَحَسْبُ- أولادَ الليل؛ هؤلاء الذين يَعتَبِرونهم القانون «مجرمين جنائيَّين»، ولكنها أصابت أيضًا آخرين، كان القانونُ يَعتَبِرونهم «مجرمين سياسيَّين»، وتكاد التأثيرات التي أحدثتها لحظات الحِصارِ في أبناء الليل تكاد تكون نفس التأثيرات التي أحدثتها في المناضلين

السياسيين؛ هؤلاء الذين رَفَعُوا السِّلَاحَ، لا ليتقاضوا إتاواتٍ، أو يَحْصُلُوا على فِدْيَةٍ مَخْطُوفٍ، ولكنَّ لِيُحَرِّروا وَطَنَهُم المُحْتَلَّ والمُسْتَدَلَّ. وَنُعْطِينَا المُذْكَرَاتِ السِّيَاسِيَّةَ المُمْتَازَةَ الَّتِي كَتَبَهَا «وسيم خالد» صورةً دقيقةً عن سِيكولوجية المُقَاتِلِ السِّيَاسِيِّ القَرْدِ في نَفْسِ هذه المَرَحَلَةِ...

وهؤلاء شعروا ببؤس الناس في قلوبهم، إلى الدرجة التي حملوا معها السلاح ليقاتلوا من أجلهم، وتحولوا وهم ما كادوا يخلعون البنطلون القصير إلى رجال يستطيعون نفسياً أن يضغطوا التتَّك ليزهقوا الروح البشرية وكانَت هذه المجموعاتُ تَنْطَلِقُ أَيْضًا -كأولاد الليل- إلى الجبال؛ ففي جَبَلِ المُقَطَّم كانوا يتدَرَّبون على إطلاق النَّار، وبين نُتُوءَاتِهِ راحوا يكتشفون المَغَارَاتِ المَجهولَةَ في شِغَابِ الجَبَلِ، يُخَفُونَ فِيهَا أَسْلِحَتَهُمْ، وَيَشْجَذُونَ فِيهَا قُودَ قُدْرَتِهِمْ على إطلاق الرِّصَاصِ، وعلى سَحْبِ أَمَانِ القُنْبَلَةِ، وَيَنْقَضُونَ على السَّائِسَةِ الخَوْنَةِ، وعلى جُنُودِ الاحتلال؛ هؤلاء الذين يَمْتَهِنُونَ كَرَامَةً مِصرَ كُلِّهَا، فَيَسْلُبُونَهُمْ حَيَاتَهُمْ.

أَيَّامَهَا شَهِدَتِ مِصرُ نماذجَ غريبةً من أبنائها؛ شباب صغار في مرحلة الحلم، يتجاوزون بِكُلِّ قِسْوَةٍ مَرَحَلَةَ كَامِلَةٍ من أعمارهم، ويقفزون من الطفولة إلى الرُّجُولَةِ مَرَّةً واحدةً، يَسْتَحِمُّونَ بالدم، ويعرفون السُّجُونَ وهم لم يُغَادِرُوا مَقَاعِدَ الدَّرْسِ، وَتَنَبَّأتْ شَوَارِبُهُمْ في ظلام الزنازين.

وعندما ذهبوا بكل حَبِيرِهِمْ وَشَرِّهِمْ، تركوا ظواهرَ غريبةً لِلتَّحْلِيلِ والدَّرْسِ والفَهِمِ، وحصيلةُ حَيَاتِهِم المُضْطَرِبَةِ تَطَرَّحَتْ نَفْسَهَا في تَمَطُّيْنِ غَرِيبَيْنِ من السُّلُوكِ:

الأول: هو ذلك الانهيار الغريب الذي أصاب معظم أفراد هذه المجموعة، فيمُجَرَّدَ وقوعهم في يَدِ البوليس تَحَوَّلَ بَعْضُهُمْ إلى «مُعْتَرِفٍ مُحْتَرَفٍ» يُفْضِي لِلْمُحَقِّقِ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِ عن نفسه، وعن زُمَلَائِهِ، بدرجة يصبح فيها جزءًا من نفس الجهاز الفئَّاك الذي كان يُوجَّهُ عُنْفُهُ ضَدَّهُ. واعترف آخرون على أَنْفُسِهِمْ قَطُّ كَنُوعٍ من التَّكْفِيرِ، أو الاستِنَامَةِ إلى «القضاء والقدر»، بِحِسِّ صُوفِيٍّ مُشَوَّشٍ.

وكان وراء هذا النمط من السلوك ذلك «التَّوَحُّشِ الفردي»، أو الإحساس الشديد بالتَّفَرُّدِ، والوَحْشَةِ والغُرْبَةِ في نفس العالم؛ ذلك أن مُعْظَمَ هذه الجَمَاعَاتِ لم تَكُنْ تُمارِسُ عَمَلًا يعبر بها إلى براح العالم الواسع، وازداد تبعًا لهذا انغلاقها على نفسها ووحدها، وقادت هذه الوحدةُ إلى شكلٍ من أشكال الهَوَسِ بالذات، والإعجاب الشديد بالنفس، إلى حَدٍّ يَصِلُ إلى جنون العَظَمَةِ، وهو نفسه الذي قاد إلى الانهيار الكامل عندما أَطْبَقَتِ الأسوار على هذه النماذج؛ فعانت الوحدة الفردية، الأضيَّقَ تمامًا من وحدة المجموعات أو الحلقات...

لحظتها -كما يسجل وسيم خالد، راويًا كيف انهار زعيم هذه المجموعة- «يفور فيه الغرور الرهيب، الذي لا يفليث من درجاته المختلقة من ذاق دماء البشر، ويعطي لنفسه أكثر من قيمتها، ويستخدم هذه المبالغة لتعطية نفسه أمام نفسه؛ إذ قرّر أن يطاوعهم -ولو جزئيًا- للإفلات من الشنق، وتركز الدنيا في كيانه، وفي خوفه من شبح المشنقة الرهيب، وكان المهم هو أن يخرج ليقايل مرّة أخرى، وكأنّه لا يوجد من سيقاتل غيره، وكان الأمّهات قد عقمن، ولن يلدن رجالًا غيره».

أمّا الثاني فهو الولوع في الدّم إلى درجة من العنف المجرد الذي لا يرتبط بأيّ قضية، وهو تمط من السلوك يتولد ضد الآخر من الغرور الشديد، الذي بدوره من العزلة والوحشة والتفرد، التي تقود إلى الرغبة في حماية الذات، فهناك -كما يقول وسيم خالد- «خيطة واه جدًا، قد يتعذر الاحتفاظ به، يفصل بين نفسيّة المقاتل والسفاح، الذي يمكن أن يتحوّل إليه». وكثيرًا ما تعقّدت الأمور واختلطت لدرجة أن بعض المقاتلين شاركوا في اغتيال زملائهم عندما شكوا في سلوكهم، شكوك ساذجة ترتبط إمّا بإخلاصهم للتنظيم أو الحلقة، أو بعلاقتهم بزملائهم. وبروي وسيم خالد أن أحد زملائه قد فاجأه مرّة بأنه فكر في قتله عندما شك أنه على علاقة بإحدى قريباته، واعترف بأنه دبر عملية لقتل اثنين من زملائه عندما شك في أنهما أبلغا البوليس ببعض المعلومات، وحدّد لهما موعداً في الجبل لتنفيذ العملية، ولولا أنهما تخلّفا لولغ في دم زملائه بقسوة!

وكان طبعياً أن يتحوّل هذا السلوك إلى نوع من العنف المجرد؛ فكثيراً ما فجر مقاتلون سياسيون القنابل في تجمّعات مدنيّة، وقتلوا أطفالاً وأبرياء.

والواقع أن هذا الشكل من العنف قد انتهى بتدمير المشتركين فيه، ومن هنا وعى وسيم خالد حقيقةً أساسيّة في هذه النماذج «سيقصّي عليها في الصراع نفسه، وسينشأ جيلٌ جديد يستطيع أن يقوم بعملية بناء الوطن».

وكان من الطبيعي أن يحدث هذا؛ بما أن هذه المجموعات تدور في إطار «الحلقة» المحدود، ولا تشترك في عمل إنسانيّ رحيب، فمِمّا لا شك فيه أننا لا نجد هذه الطواهر النفسيّة لدى الأفراد الذين انضموا إلى حركات المقاومة ضد النازية في مختلف بلاد أوروبا طوال الحرب العالمية الثانية، والفرق هنا هو في راحة العمل، وجماهيريته، تلك التي تُثري دائماً القضية التي يُقاتل من أجلها المقاتلون.

والخيطة الواهن بين العنف الذي كان الخط يُمارسه ضدّ القوى التي قرّضت أن يُقاتلها، وأجبرته -بلطمة كفّ عبد الله بن محمد- على أن يكون ابن ليل، وبين ما انتهى إليه -قد انقطع؛ لأن العنف يتوالّد ذاتياً كخلايا

السَّـرَطان. إنه يتوالَّد من مَظَلَّةِ العُـرْبَةِ الشَّـدِيدَةِ، والوَحدَةِ القاسِيَةِ، والوَحْشَةِ فوق قِمَمِ الجبال، وفي كهوف ومغارات الليل...

ولقد انتهى عُنفُ الخُطِّ إلى أن أصبح عُنفًا مُجَرَّدًا، وتَوَجَّهَ رِصاـصُه إلى كُلِّ الناس بلا تمييز، إلى الدرجة التي أصبح فيها الإنسان -من حيث هو «نوع»- هدفًا له، وكانَ ذلك مَقْتَلَه الحقيقِيَّ، الذي حَقَّقَه مُطارِدُوه، حيثُ لم يقصِدوا تَحقيقَه!

ومع ازدياد جبهة العداء ضده، وضع الخُطُّ يده لأوَّلَ مَرَّةٍ في حياته الإجرامية في يد أعدائه ومُنافِسيه من أولاد الليل. كانت المنافسات الشَّرِسَةُ بينهم قد أضعفتهم جميعًا، وكان لا بُدَّ مع عُنفِ المُطارِدَةِ أن يَتَّقَوْا بالوحدة بينهم؛ وهكذا عقدوا حِلَقًا، تعاهدوا بِمُقْتَضاه على أن يكونوا يدًا واحدةً ضدَّ البوليس، وأنفقوا على أن يكونوا يدًا واحدةً ضدَّ فرقةِ المُطارِدَةِ وضدَّ الحكومة، وأن يقاوموا المَوْتَ الذي كان يُحيطُ بهم كالسُّوار بالمعصم...

ووضَعَ الخُطُّ يده في يد «الأعمى»، و«أبو تمام»، و«أبو تمر» و«أبو هاشم»، كما وضع يده في يد «أحمد عبد الغفار»؛ فُرْصان النيل، وزعيم العصاة البحرية، وعدوّه اللدود!

وفي تلك الفترة تحرَّكت أكثر من جِهَةٍ ضدَّ أولاد الليل!

وكان أغرب هذه التحرُّكات هو تحرُّك المخابرات البريطانية، ففي إحدى الأمسيات استدعى عزيز باشا أباطة مدير أسبوط المُلازِمَ محمد السعيد هلال، وأخبره أن مدير المعهد البريطاني اتَّصلَ به تليفونيًّا، وأخبره أنه يُؤكِّد أن عصاةً أحمد عبد الغفار ستَّصلُ عن طريق النيل إلى عزبة «دير القصير» في الساعة السادسة صباح اليوم التالي، ولم يُقلِ المُديرُ البريطانيُّ شيئًا أكثر من هذا.

والمعهد البريطاني -في أساسيه- بَعَثُهُ تبشيرٍ بريطانيَّة، تَرَلَّت أسبوطَ أصلًا لتدعو أقباطها -ومعظمهم من الأرثوذكس- لِتَرْكِ مَذَهِبِهِم، واعتناقِ «البروتستانتية»؛ المذهب المنتشر في إنجلترا، وهو ما كان مَثارَ احتجاج البطريكيَّةِ المصريَّة، وانتهت البَعَثَةُ إلى إنشاءِ مدارسٍ للتَّعليم والتَّثقيف، لكن إخباريَّتها عن أحمد عبد الغفار تكشف عن جُزءٍ من النشاط الخفيِّ الذي كانت تقوم به، والذي لا شكَّ في أنه كان يَتَّسِعُ ليشملَ اهتماماتٍ أخرى: سياسيَّة واجتماعيَّة...

والواقع أن الاستعمار البريطانيَّ لم يَكُنْ ينظر بعين الارتياح لِكُلِّ مَظَاهِر مَوْجَةِ العُنفِ، بِشِقَاقِها: السياسيِّ والجَنائيِّ، ولعلَّ الجَوَّ النفسيِّ الذي كانت تُثيره هذه المَوْجَةُ هو الذي جعل البريطانيَّين يَخْشَوْنَ آثارها على النفس المصريَّة بشكل عام، وكانت فِكْرَتُهُم الأساسيَّة أن استقرار الحُكم المصريِّ

-بتركيبته التي كانت قائمة آنذاك- هو الصَّمانُ الوحيدُ لوجودهم، وكانوا يُدركون أن العنف كالمَرَضِ الوبائي؛ يسهلُ انتشاره، وهو يهزُّ الإحساسَ بهيئةِ التركيبة الاجتماعية، والثقة في استمرارها.

وقامت فرقة الموتِ كاملةً وراءَ إخباريةٍ مدير المعهد البريطاني. ارتدى أفراد الفرقة الملابسَ البلديَّة، وتسلَّحوا بكلِّ أسلحتهم، وحَمَلَتْهم مركبُ شراعيةٍ عبر مُسطحِ الحوض الرَّهيب لمدَّة ساعتين مُتَّصِلَتَيْن، ثم رَسَتْ بهم عند سفح الجبل المُشْرِف على عزبة «دير القصير».

كان أحمد عبد الغفار قد أصبح مَصْدَرُ رُعبٍ وهَلَعٍ لِكُلِّ أعيان ديروط والقرى المجاورة، وتَزَايَدَتْ جرائمُه الوحشيَّة، واقتَرَنَتْ بِالْقَتْلِ والسَّرَقَةِ بالإكراه والخطف، وأصبح يَرْتَكِبُ جرائمَه في رابعة النهار، وكان قد شَدَّد هَجماته في الأسبوع السابق على هذا التاريخ بصورة مُزعِجة!

وبرغم كُلِّ مَشَاغِلِه، فإن أحمد عبد الغفار لم يَنْقَطِعْ لحظةً عن الاهتمام بعروسه الجديدة، التي تَزَوَّجها في دير القصير، كان يَرْتَحِلُ إليها بين الحين والآخر في مركب شراعية، تَعَبُرُ به الحَوْضَ، وترسو به عند قَاعِدَةِ الجبل، فيخْرُجُ إلى دار عَروسِه، ويقضي معها ساعات من شهر العسل...

ووزَّعت فرقةُ المُطارَدَةِ نَفْسَها على ثلاث مجموعات بين سفح الجبل وقِمَّتِه، وشَدَّدَ عليهم محمد هلال بالاً يتكلموا، ولا يُدَخِّنوا، وألا يُطَلِّقَ أحدهم رصاصةً واحدةً إلا بعد أن يُطَلِّقَ هو رصاصَ مدفعه الرَّشَّاش، حتى ولو شاهدوا العصاة تَدْخُلُ لِدَائِرَةِ حَظِّ النَّارِ.

فترسة الموت وراء «الخط» طاغية الصعيد



القول
الشمس



القول
الشمس



القول
الشمس

... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...

... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...

... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...

... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...

... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...

... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...
... من دارين من دارين...

آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

في السادسة تمامًا لمح هلال أفندي قاربًا يقترب، وتأكد أن مدير المعهد البريطاني يعتمد على مصادِرٍ مُحترمةٍ، وموثوقٍ بها، تُعوِّزُ البوليسَ. واصلَ القاربُ اختراقه، واختفتِ الفرقةُ وراءَ الستائرِ الصَّخريَّةِ، وباقترب القارب تدريجيًّا أمكنَ تمييزُ رُكَّابه، وقدَّرَ قائدُ فرقةِ المُطاردةِ (من اتجاه التَّجديف) أن القارب سيرسو أمام الممرِّز الأول، واستطاع أن يُميِّزَ فيه -وهو في مدى الرؤية- خمسةَ أفرادٍ مُسلَّحين، وَقَفَ أحدهم في اعتدالٍ كالقبطان، وعندما أصبح القارب على بُعْدٍ عشرين مترًا من الشاطئ، أطلق محمد هلال رصاصته الأولى؛ إيجابًا يَفْتَحُ حَظَّ النار، وجاؤَبَ القاربُ بِعَشْرَةِ الأعيرةِ، وفُوجئ رُكَّابه بِعُنفِ الرِّصاص الذي طَوَّقَهُم، وكَثُرَتِ، وأصابَت رصاصَةُ القبطانَ، الذي هَوَى إلى التَّيْل، وابتلعه الحوضُ الرَّهيب، ومَلَأَتِ الثُّقوبُ جِسمَ القاربِ، الذي دَفَعَهُ الماءُ إلى قِقرْبَةٍ من الشاطئ، وتَرَكَتْ فرقةُ المُطاردةِ مَكَمَتَها لتحاولَ إنقاذَ القارب ورُكَّابه قبل أن يغرق، وانثَشِلَ مَنْ بَقِيَ من رُكَّاب القارب، كانوا أربعة؛

إذ سقط الخامس في الماء، أحدهم كان قتيلاً في قاع القارب، والثاني أصيب في مقتل، أمّا الآخران فقد أصيبا إصاباتٍ مُتوسِّطةً.

وسأل الصَّايِطُ المُصَابَيْنِ عن شخصيّاتِ رُكَّابِ القاربِ، فقالوا إنَّهم صيَّادون، وسألهم عن القُبطان الذي هَوَى قتيلاً في اليَمِّ، فأنكروا أن أحداً قد سَقَطَ، وأن عَدَدَهُم أربعة فقط، لا خَمْسَةَ...

وأربكت الإجاباتُ هلال أفندي، طاقت بِذهنه مَسْؤُولِيَّتُهُ الجَسِيمَةُ عن المعركة، وساءَل نَفْسَهُ بِقَلْقٍ: هل أعلنْتُ حرباً طائِشَةً على صيَّادين أبرياء تحت تأثيرِ الوَهمِ بأنَّهم عِصَابَةٌ من الأشقياء؟!

كان عبد المنعم مبروك عمدة دير القصير، وفرغلي مبروك -شقيقه- قد جاءا ضَمَنَ مَنْ استيقظ من أهالي العِزْبَةِ على دَوِيِّ الرِّصاص، وقد أخرج الصَّايِطُ من وَسْوَيسِهِ قَائِلاً:

- هذه عصابة، والذي قُتِلَ هو رَعِيْمُهَا أحمد عبد الغفار، وهو مُعتادٌ على الحضور في ذلك الميعاد لزوجته...

وقال عمدة العزبة إن القتل الذي وُجِدَ بقاع القاربِ هو وَكِيلُ العِصَابَةِ: أحمد ياسين.

ولكنَّ القَلْقَ لم يَتَلاشَ من مَلامِحِ هلال أفندي. وقال العمدة:

- إذا كانوا صيَّادين، فما سَبَبُ حَمَلِهِم البنادق؟ هل صَيَدُ السَّمَكِ بالرِّصاص؟

وانتَقَلَتِ النَّيَابَةُ إلى محلِّ الحادث، وقالت عروس أحمد عبد الغفار إنه دَخَلَ بها ولم تَرَهِ مُنْذُ تَزَوَّجَتْ، ولكنَّ شَيْخَ حُفَراءِ العِزْبَةِ كَذَّبَهَا، وأكَّد أنها لم تَخْسِرْ لَيْلَةً وَاحِدَةً من شهر العسل، وأنَّ عريسها كان يَأْتِيهَا كُلَّ يَوْمٍ في السَّادِسَةِ صَبَاحًا.

وتَبَيَّنَ أن الذين كانوا في القارب هم: دياب علي، وعبد العظيم أبو جبل، ومصطفى عبد الغفار (ابن عم قُرْصان النِّيل)، وأحمد ياسين، فضلاً عن الخامس الذي سقط في النيل، والذي رَجَّحَ البوليس أنه أحمد عبد الغفار.

واعْتَبَرَتِ النَّيَابَةُ مَقْتَلَ أحمد عبد الغفار وأحمد ياسين «دفاعاً شرعيّاً» من جانب البوليس، وطلَّبتِ لِلصُّبَّاطِ الذين اشتركوا فيها مكافآتٍ وأوسِمَةً.

والشيء الغريب أنه قد تَبَيَّنَ بعد ذلك أن أحمد عبد الغفار لم يَمُتْ!

لقد جاءت «إخباريّة» المعهد البريطاني ناقِصَةً نَقْصًا «طفيفاً»؛ فقد كان أحمد عبد الغفار يَأْتِي إلى عروسه كُلَّ يَوْمٍ، ولكن كان يَأْتِي في السادسة والربع، أما قاربُ السَّادِسَةِ فكان يَصُومُ «كشَّافين» من عصابته، يَكْشِفُون له الطريق قبل أن يَقدِمَ بعد ذلك. ولقد ظلَّ أحمد عبد الغفار حَيًّا بعد هذا التاريخ

أكثر من ثمانية عشر شهرًا. عاش حتى بعد الحُطّ نفسه، وقُتِلَ في معركةٍ ضاريةٍ، بعد أن جُنَّ منه محمود فهمي النقراشي باشا، وزير الداخلية ورئيس الوزراء، لدرجة أنه كان يُعلن أن كُلَّ مُناه أن يعيش ليرى أحمد عبد الغفار مقبوضًا عليه، وعند ذلك سيموت مُستريحًا.

ووقع أحمد عبد الغفار عندما ذهب أحد المُقاولين الذي يُصلِحون جسور النيل إلى حكمدار المنيا يشكو من قُرْصان النيل لأنه قَرَضَ عليه إتاوةً أسبوعيةً قَدْرُها عشرون جنيهاً، وفكر الحكمدار -وكان القائمقام مصطفى بك متولي- ثم رأى أن يستعين بالمُقاول في القَضاءِ على المُجرِم الذي مات قبل ذلك كَذِبًا... واتَّفَقَ الحكمدارُ مع المُقاول على أن يعرض على أحمد عبد الغفار خمسمائة جنيه دفعةً واحدةً مُقابلَ إعفائه من الإتاوة الأسبوعية، وأن يُحدِّد له مَوْعدًا ليقبض المبلغ، واتَّفَقَ المُقاول مع أحمد عبد الغفار، الذي وافق على العرض، على أن يكون مَكانُ اللقاء عند شجرة صَخْمَةٍ على شاطئ النيل، على رأس زمام قرية المطاهرة، التي كان القُرْصانُ يَتَّخِذُ منها مَقَرًّا له، يعيش فيها تحت حماية أحد الأعيان. وأخطَرَ الحكمدارُ بالزَّمانِ المُحدَّد والمكان المُتَّفق عليه.

دعا الحكمدار اثنين من ضبَّاطه لِمَتمثيلِ الفصلِ الثَّاني، طَلَبَ منهما أن يذهبا إلى ضِفَّةِ النيل عند المطاهرة، ومعهما بَعْضُ رجالِهما: الضَّابطان في ملايسَ مَدِينَةٍ، ومَعَهُما أدواتُ مُهندِسي المساحة، والرَّجالُ في مَلايسِ المَسَّاحين...

وفي صباح يوم 5 يونيو 1949 ذهبت فرقة المساحة الوهمية إلى المطاهرة، وأخذ رجالها الوهميون يقيسون الأرض، إلى أن وصلوا في الموعد المُحدَّد إلى الشَّجرة التي عُيِّنَت مَكانًا لِلقاء، وهناك وَجَدوا أحمد عبد الغفار جالِسًا مع رجاله ينتظرون الخمسمائة جنيه، كانوا يشربون الشاي في أمان تام، قَدَعوا «الأفندية بتوع الهندزة» للجلوس وشرب الشاي، وبالفعل قَبِلَ المُهندِسُون دَعْوَتَهُمْ، وجَلَسُوا يشربون الشاي، ويتسامرون، وفي لحظاتٍ حَاصَرَت قُوات الأمن المكانَ، وتبادلت إطلاق النار مع القُوات المُهاجمة، واستطاع اثنان من العصاة الهروب إلى المساكن، واتَّجِهَ آخَران نحو النيل وهما يُطْلِقان الرِّصاصَ، محاولين الوصول إلى قارِبٍ كان مُستَقَرًّا بالقُربِ من ضِفَّتِهِ، وبضمَّ أفرادًا آخرين من العصاة، فتحوا نيرانهم على الفور على البوليس.

وأطلق أحمد عبد الغفار رصاصَ بندقيته فأصاب أحد العساكر في مَقْتَلٍ، وفي نفس اللحظة أصابته رَصاصةٌ قَصَّت عليه.

وأسرع مُديرُ المنيا إلى المَطْاهرة، وهناك رأى عبد الغفار لأول مرَّةٍ وآخر مرَّةٍ!

ومات فُرْصَانُ النَّيْلِ هَذِهِ الْمَرَّةَ... مات «بَحَق وَحَقِيق»!

الفصل التاسع

بِنْتُ الدَّوَاتِ... عَشِيقَةُ ابْنِ اللَّيْلِ!

أثَارَت معركة «دير القصير» الخُطَّاءَ؛ فَرَدَّ عليها بَعْنَفٍ دَمَوِيٍّ، وَقَتَلَ ثلاثة أفراد في ثلاثة أَيَّامٍ مُتتَالِيَةٍ، وسَارَعَ بالصُّعُودِ إِلَى الجبل، وَهَجَرَ أَسِیُوطَ، وَاتَّخَذَ من مغارات الجبل المُشْرِقَةِ على منفلوط مَوْقِعًا جَدِيدًا لَهُ!

وبدا وَاضِحًا أَنَّ الأَعْيَانِ هُم مفتاح الخُطَّاءِ! إِنْهُمْ وَحدهم الذين يملكون القُدْرَةَ على الإيقاع بِهِ؛ فَهُوَ طَرَفٌ فِي عِلَاقَاتٍ إِجْرَامِيَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ مَعَهُمْ، وَهُوَ عَدُوٌّ لِبَعْضِهِمْ، وَخَلِيفٌ لِلآخَرِينَ، وَهُمْ -أَكْثَرُ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ آخَرَ- يَعْرِفُونَ أَخْبَارَ تَنَقُّلاتِهِ وَجُلَاسُونِهِ، وَيُؤَلِّمُونَ لَهُ الْوَلَايَمَ وَيُزَوِّدُونَهُ بِالْأَفْيُونِ وَالزَّبِيبِ، وَالْأَخْبَارِ.

وَقَرَّرَ مُحَمَّدٌ هَلَالَ أَنْ يُطَبَّقَ حِكْمَةٌ صَعِيدِيَّةٌ تَقُولُ: «فَتَّشْ عَنِ الأَعْيَانِ!» وبدأ يَجَسُّ بَعْضَ الَّذِينَ عَرَفَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى خِلَافٍ مَعَ الخُطَّاءِ، أَوْ يُكُونُونَ لَهُ الْعَدَاءَ مِنْ أَبْنَاءِ الْبِيُوتَاتِ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْتَأْجِرُونَهُ لِحِمَايَتِهِمْ أَوْ الْإِنْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، بَلِ الْعَكْسُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَهُوَ يُسْتَأْجَرُ ضَدَّهُمْ وَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ لِحَسَابِ مُنَافِسِهِمْ مِنَ الْبَاشَوَاتِ وَأَصْحَابِ السَّعَادَةِ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ كَانَ وَاحِدًا مِنْ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ النُّوَابِ عَنْ طَهطَا؛ نَائِبُ صَعِيدِيٍّ شَابٍّ، يَنْتَمِي لِأَسْرَةٍ مِنْ أَكْبَرِ أَسْرِ الصَّعِيدِ، وَيُقِيمُ فِي قَصْرِ هَائِلٍ أَشْبَهَ بِالْقَلْعَةِ، وَيَمَارِسُ «النِّيَابَةَ» وَ«الْقِتَالَ» بِمَهَارَةٍ يُحْسَدُ عَلَيْهَا، وَوَعَدَ النَّائِبُ أَنَّ يُقَدِّمَ كُلَّ مُسَاعَدَةٍ مُمَكِّنَةٍ.

وَيَوْمًا وَصَلَتْ بَرْقِيَّةٌ مِنْهُ لِقَائِدِ فِرْقَةِ الْمُطَارَدَةِ تَقُولُ: «أَحْضِرْ فَوْرًا.. البضاعة موجودة».

وَبِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ حَمَلَ هَلَالَ الْبَرْقِيَّةَ إِلَى مَكْتَبِ الْبَاشَا الْمَدِيرِ، الَّذِي كَانَ قَدْ أَحَالَ جَمِيعَ أَعْمَالِ الْمَدِيرِيَّةِ إِلَى مُعَاوِنِهِ، وَتَفَرَّغَ -مِنْذَ مُقَابَلَتِهِ لِمَوْلَانَا- لِمُطَارَدَةِ الخُطَّاءِ فَقَطْ، دُونَ كُلِّ مُجْرِمٍ أَسِیُوطَ، وَكُلِّ مَشَاكِلِهَا...

وَبَعْدَ مُنَاقَشَةٍ خَصَرَهَا الْحَكْمَدَارُ، تَقَرَّرَ أَنْ يُسَافِرَ مُحَمَّدٌ هَلَالَ وَمَعَهُ أَرْبَعَةُ عَسَاكِرٍ فَقَطْ إِلَى طَهطَا، فِي مَلَابِسٍ بَلَدِيَّةٍ؛ لِيَبْحَثَ الْمَسْأَلَةَ مَعَ النَّائِبِ الطَهطَاوِيِّ، عَلَى أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ قُوَّةٌ صَخْمَةٌ -بِقِيَادَةِ الْحَكْمَدَارِ نَفْسِهِ- مُسْتَعَدَّةٌ لِلتَّحَرُّكِ عَلَى ضَوْءِ الْمَعْلُومَاتِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي لَدَى النَّائِبِ.

وَكَانَ النَّائِبُ الطَهطَاوِيُّ يَعِيشُ فِي مَنْزِلٍ أَشْبَهَ بِقَلْعَةٍ مُحَصَّنَةٍ، زُوِّدَتْ بِحِرَاسَةٍ دَقِيقَةٍ، وَخَفِيَّةٍ؛ نَتِيجَةً لِعَدَدٍ مِنَ الْمَعَارِكِ الدَّمَوِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَنْشُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، وَاسْتَقْبَلَ النَّائِبُ هَلَالَ أَفْنَدِيٍّ بِمَجْرَدِ وَصُولِهِ فِي الثَّانِيَةِ بَعْدَ

منتصف الليل، وأخطره بأن لديه معلومات بأن الخطّ قد دُعي في نفس الليل إلى حفل عُرس هائل بعزبة في زمام قرية المشايعة، وأنه ذهب مع بداية المساء بالفعل إلى هناك، وبصحبته عصابته، ليس هذا فقط؛ بل إن العُرس يضمُّ أيضًا جميع جبايرة الإجمام في الصعيد، ومعهم زعماء من عصابات الدّرجة الثانية، وأبرز الوجوه في عالم أولاد الليل، الذين اجتمعوا ليزفوا زميلاً لهم إلى عروس جديدة!

وخرج قائداً فرقة المطاردة من عند النائب ومعه شاب سوداني اسمه نجاح، كان واحداً من عبيد النائب، أوفده ليكون دليلاً للجملة، التي كانت تقتصر على خمسة أفراد فقط، كان عليهم أن يواجهوا كل الشياطين التي تجمعت في عزبة الإجمام.

وفي الطريق اقترح نجاح -دليل النائب الطهطاوي- أن تمرّ البعثة على نقطة المشايعة لتستعين ببعض رجالها على ما سوف تواجه من ظروف، ولكن الصّابط رَفَضَ؛ خشية أن يلفت ذهابهم إلى النقطة النّظر، فيفشل مسعاهم.

ووصلت البعثة إلى العزبة، وقادهم نجاح إلى منزل شيخ خفرائها، وقدم هلال أفندي نفسه لشيخ الخفر باعتباره صيف أولاد الليل من إسنا، كان مدعواً إلى الفرح ولكنه تأخر، وطلب منه أن يدلّه على الطريق إلى مكان الحفل؛ حتى «لا يأخذ العريس على خاطره»، ويظن أنه أهمل دعوته.

وأبدى شيخ الخفراء أسفه لأن الصّيف وصل متأخراً، فقد انقضى الحفل في العزبة، وخرج المدعوون بالمراكب يصحبون العروستين، وأبحروا في الحوض قبل ساعة من وصول الصّيف الإسناوي، ومن المؤكد أنهم قد قطعوا ما لا يقل عن ثلاثة كيلومترات، وأمامهم مسافة أخرى قبل أن يصلوا إلى هدفيهم، وترسو مراكبهم في الحوض بجزيرة اسمها «الحديقة»؛ حيث سيدخل العريس على عروسيه في أحد منازلها.

وكاشف هلال أفندي شيخ الخفر بهويته كضابط من ضباط البوليس، وبهدفه الذي يسعى وراءه، وطلب منه باعتباره شيخاً لخفراء العزبة -واحداً رجال الأمن- أن يتعاون معه للإيقاع بالخط، وأبدى شيخ الخفراء تحفظه على ما يريد الصّابط؛ لأنه غير مُمكن وغير عملي؛ فمن المُستحيل أن يُحقّق أيّ تصرّ على الأشقياء، أو حتّى يلحق بهم؛ فلا يوجد ولا مركب واحدة للانتقال في الحوض؛ لأن كل مراكب العزبة قد رحلت بأولاد الليل، واحتجرت هناك في انتظار رحيلهم عليها، ثم إن «الحديقة» هي أجمة كثيفة من النّخيل والأشجار، وقد أصيحت بعد أن احتلها أولاد الليل غابة حقيقيّة؛ فهي تضم الآن ثلاثة من رجال الليل، فوّتهم تزيّد على ألف رجل، بما يملكون من أسلحة، وبقرض أنه

من المُمْكِن الهُجُومُ عليهم فيها؛ فإن ذلك غير مُمكِن والقُوَّة التي مع الضابط لا تزيد عن أربعة أفراد!

ومن نُقْطَةِ المَشَايِعَةِ اتَّصل هلال أفندي بالحكمدار، وأخطره بالمَوْقِفِ؛ فاستَمَهَلَه الأخيرُ بعضَ الوقت، ثُمَّ عاد وطلب منه تليفونيًّا أن يرسم خريطة المكان ويُرسِلها بالسيَّارة فورًا؛ حتَّى يُمكِنَ لِقُوَّة الجيش في منقباد أن تَنْظُرَ في أمر التَّحَرُّكِ معنا. واعترضَ هلال أفندي، وأخطر الحكمدار أن «الحديقة» تضمُّ كثيرًا من الأهالي المُسالمين، وأن هجُومَ الجيش بالطَّائِرات أو بقذائف المَدافع على هذه «الحديقة» يتضمَّن حَظَرًا مُؤَكَّدًا على أرواحهم، وطلَبَ قُوَّات بُوليس ومَراكِبُ ثُمكُنْه من حصار «الحديقة» والهجوم على اللُوحوش التي تَحْتَلُّها. وبعد أَخْذٍ وَرَدٍّ اتَّضَحَ أن الوقتَ لن يكون في صالح الخُطَّة؛ فمن المُؤَكَّد أن أولاد الليل لن يُقيموا في «الحديقة»، وتَحَرُّكُ القُوَّات من أسيوط إليها سيأخُذُ وقتًا طويلًا، يَجْعَلُ الحَرَكَةَ تَفْسَها بلا معنى!

وانقطعَ أوَّلُ حَيْطٍ جاءَ من أبناء البيوتات... وطار الخُطُّ...

وعاد محمد هلال يفكِّر -مَهْمومًا- في طريقة أخرى لاصطياد الخُطِّ، ويبحث عن حَيْطٍ جديد وسط أبناء الأعيان؛ حُلَفَاءِ الخُطِّ، وأعدائه، والوحيدين الذين يستطيعون أن يُسلموه.

وفجأةً عَمَزَتِ السَّنَّارَةُ، لكن بطريقةً مُخْتَلِفَةٍ هذه المَرَّة؛ فقد عَلِمَ قائِدُ فرقة المُطارَدَةِ أن هناك خطابًا وصل للأستاذ إحسان عبد القدوس -وكان وقتها رئيسًا لتحرير «روزاليوسف»- يتضمَّن معلوماتٍ حول قصَّة حُبٍّ تدور بين بنتِ ذواتٍ من أبناء البيوتات في الصعيد، وبين الخُطِّ!

وبدا الخَيْطُ الجديدُ شديداً الأهميَّةَ لأنه ربَّما يقود إلى امتزاج أسلوبيين من أساليب البحث عن الخُطِّ: الأسلوب القائم على الحِكْمَةِ الفرنسيَّة «فَتِّش عن المرأة»، والآخر الذي يقوم على القاعِدة الصعيديَّة «فَتِّش عن الأعيان»، وها هي امرأةٌ من الأعيان تعشق الخُطِّ؛ فهل تكون تلك نهايَتَه؟!

وبأسرع من البرق سافر محمد هلال إلى القاهرة، ومن المَحْطَّة تَوَجَّه فورًا، وبُعْبارِ السَّفَرِ، إلى «روزاليوسف»، وكانت ما تزال يَمِينُها القديم بشارع محمد سعيد، واستقبله إحسان عبد القدوس، وكان بينهما مَعْرِفَةٌ سَابِقَةٌ، وقال له إن الخطاب قد جاء بين بريد باب «جَرَّاح قلب»، وهو الباب الذي تُعالِجُ فيه المَجْلَةُ مشاكلَ القُلُوبِ وَمَتاعِبَ المُحِبِّينَ وأهل الهَوَى.

وبدأ الصَّابِطُ يقرأ خطاب بنت الذَّوات التي تعشق الخُطِّ، كان نَصُّه ما يلي:

سَيِّدِي مُحرَّر «جَرَّاح قلب»...

إِن لِي قِصَّةً -يا سيدي- واقعيَّة... للأسف. أرجو ألاَّ تَسَحَّرَ منها؛ فإنَّ في واقعيَّتها مأساةً يَعَجُّ أَيُّ كَاتِبٍ من كُتَّاب القِصَّة أن يأتي بِمِثْلِها...

أنا -يا سيدي- فتاةٌ في الحادية والعشرين، نِلْتُ قِسطًا من التَّعليم، يقولون عنه إنه التَّعليم المِثَالِيُّ لِقَتِيَّاتِ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَّةِ التي أنتمي إليها، ومنذ ثَلَاثَةِ شهور أَصِبتُ بما ظَنَنْتُ أَنَّهُ حُبٌّ... وكان البَطْلُ قَتَى من فتيان الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَّةِ، يُجيدُ الرِّقَصَ، والتَّحدُّثَ باللُّغة الفرنسيَّة، واستعمال أحدث أنواع «البريانتين».

وسَمِعَ والدي باندماجي مع هذا الفتى أكثر من اللازم، فما كان منه إلَّا أن أرسَلَنِي إلى الرِّيف، وفي الرِّيف بدَأَت مَأساتي...

إنَّكَ تستطيع أن تتصوَّر حياةَ فتاةٍ مثلي في الرِّيف؛ كُنْتُ أَحاول أن أُغَالِبَ المَلَل؛ فأركب جوادًا وأدور وأُحِبُّ به في أرجاء الأرض، وكُنْتُ أَصَادِقُ الفَلَّاحات، وأقوم بأيِّ شيءٍ لِمُغَالَبَةِ ذلك الصِّيق وهذا المَلَل.

وفي إحدى الأمسيات، وآه -يا سيدي- من أمسيات الرِّيف! إنَّكَ لا تستطيع أن تتصوَّرها وأنت بالقاهرة- وفي إحدى هذه الأمسيات حَصَرَ شَخْصٌ اهْتَرَّت له الحُقُولُ والعِرَبُ!

وطَلَبَ عَشاءً، وتَفَاتَت العِزْبَةُ في تَقْدِيمِ العَشاءِ له، وحَصَرَ الرُّسُلُ من البِلَادِ المُجاوِرَةِ حَامِلِينَ له الهَدَايا والتُّقود، وبنوعٍ من الفُضول النَّسائيِّ، وجَرَاةُ الفَتَاةِ القَاهِرِيَّةِ المُتعلِّمة تَزَلَّتْ، وقابَلَتْهُ...

أَتَدْرِي مَنْ هُوَ يَا سَيِّدِي؟

إنه محمد محمود منصور... لا تَدَعُ عَدَمَ المَعْرِفَةِ به؛ فأنت تَعْرِفُهُ، وكُلُّ قُرَّائِكَ يَعْرِفُونَهُ، وأَجْهَلُ الجَهْلَةِ في مصر يَعْرِفُونَ مَنْ هُوَ محمد محمود منصور! إنه حبيبي، وكلُّكم تُطَلِّقُونَ عليه اسمًا آخر؛ إنَّكم تُسَمُّونَهُ الخُطَا!

ولتَعُدْ -يا سيدي- لِحَدِيثِنَا: تَزَلَّتْ إِلَيْهِ، وحَادَثَتْهُ... كم من الجَمِيلِ أن تتحدَّثَ إلى المشاهير والكبار! وظَلَّلْنَا نتحدَّثُ، وانفَضَّ السَّامِرُ كُلُّهُ، وبَقِيَ أَنَا وَهُوَ، وطالَ الحَدِيثُ، وتَشَعَّبَ. حَدَّثَنِي عن مُغامراتِهِ ومُطارَدَاتِهِ، وعن الجَرَائِمِ التي ارتكَبَهَا، والجَرَائِمِ المَنسُوبَةِ إِلَيْهِ زُورًا وبُهْتَانًا، حتى عن الليالي المُخيفَةِ بين عيدان الدَّرَّةِ العَالِيَةِ...

حدَّثَنِي عن مُطارِدِيهِ من رجال البوليس، وفي يَمِينِهِم السِّلَاح، يَحْمِي القانونُ ظَهوَرَهُم إذا قتلوه...

وحَدَّثَنِي عن مُطارِدِيهِ من أَهل بَلَدَتِهِ... وطالَ الحَدِيثُ، ولم تَشْعُرْ إلَّا ونحن في الصِّباح.

وتَكَرَّرَ حُضُورُ هَذَا الرَّجُلِ وَفِي يَدِهِ خِزْرَانَةٌ، كَمَا لَوْ كَانَ آمِنًا فِي بَيْتِهِ
وَلَيْسَ مِنَ الْمُطَارِدِينَ، وَكَانَ الرِّجَالُ -بِسِلَاحِهِمْ- يَخْشَوْنَ خَيْرَاتِهِ.

أَثَارَ ذَلِكَ الرَّجُلِ إِعْجَابِي شَيْئًا فَشِئًا، وَأَخِيرًا شَعَرْتُ أَنَّهُ ذُو سُلْطَانٍ لَا
يُقَاوَمُ، وَاعْتَرَفْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي بِأَنَّنِي أَحْبَبُهُ!

قَدْ تَقُولُ إِنَّنِي أَحْبَبْتُ الْجَرِيمَةَ، وَعَشَقْتُ الصَّلَالَ، وَلَكِنْ لَا يَا سَيِّدِي؛ فَإِنِّي
مَا أَحْبَبْتُ فِيهِ إِلَّا جَمَالَ الرَّجُولَةِ...

إِنَّ الْمَرْأَةَ تُحِبُّ الْجَرَاءَ وَالشَّجَاعَةَ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ رَجُلًا تَوَافَرَتْ فِيهِ
هَذِهِ الشُّرُوطُ أَكْثَرَ مِنْهُ... مِنْ حَبِيبِي مُحَمَّد...

لَيْتَكَ -يَا سَيِّدِي- كُنْتَ امْرَأَةً حَتَّى أَسْتَطِيعَ أَنْ أَشْرَحَ لَكَ سِحْرَ الرَّجُلِ، أَوْ
لِيَتَنِي كُنْتُ رَجُلًا حَتَّى أَسْتَطِيعَ أَنْ أَقْلُكَ طَلَاسِيمَ سِحْرِهِ!

وَلَتَعُدُّ مَرَّةً ثَانِيَةً لِحَدِيثِنَا:

إِنَّنِي أَحْبَبْتُهُ كَمَا قُلْتُ لَكَ، وَلَكِنِّي أَحَاوِلُ أَنْ أَنْزِلَ مِنْ عَالِيَائِي لِأَفْهَمَهُ أَنَّنِي
أَحْبَبُهُ، وَلَكِنَّ الَّذِي حَدَّثَ -يَا سَيِّدِي- أَنَّ هَذَا الْمُجْرِمَ الْحَبِيبَ أَفْهَمَنِي بِأَدَبٍ قَاتِلٍ
أَنَّهُ يَعْبُدُنِي، وَيَتَّقِي بِي، وَأَنَّهُ يَصْغُرُ رَقَبَتَهُ بَيْنَ يَدَيَّ، بِحُضُورِهِ كُلِّ لَيْلَةٍ لِيُرَانِي، وَأَنَّ
فِي هَذَا مُخَاطَرَةً كَبِيرًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ -وَبِأَنَّ لِلْفَرَحَةِ- يُحِبُّنِي. لَمْ أَطِيقُ
أَكْثَرَ مِنْ هَذَا يَا سَيِّدِي، وَتَهَاوَيْتُ. مَنَعْتُهُ مِنَ الْحُضُورِ إِلَيَّ؛ لِأَذْهَبَ أَنَا إِلَيْهِ! كُنْتُ
أَخْرُجُ، وَعِنْدَمَا أَدْخُلُ فِي بَحْرِ الذَّرَّةِ الْخِصَمِّ يُقَابِلُنِي أَحَدُ رِجَالِهِ، وَيُوصِلُنِي حَتَّى
أَجِدَ نَفْسِي بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ...



(روز اليوسف العدد 1000)

فِي بَعْضِ اللَّيَالِي تَسْتَقِظُ فِي نَفْسِي الْفَتَاةُ الْقَاهِرِيَّةُ الْمُتَعَلِّمَةُ، وَيَشْتَدُّ بِي
الْحَنِينُ إِلَى «الْأَرِيزُونَا» وَ«مَارْلِي» وَ«الْأُوبِرْج»... وَأَثُورُ، وَتَشْتَدُّ بِي الثَّوْرَةُ،

حَتَّى أَحَاوَلَ أَنْ أَخْلَصَ نَفْسِي مِنْ هَذَا الْجَحِيمِ فِي مَذَبَحَةٍ، وَلَكِنْ سَرَعَانِ مَا تَسْتَقِظُ فِي نَفْسِي الْمَرَأَةُ؛ فَأُخْرِجُ لِأَلْقِي نَفْسِي بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، وَكَمْ فِي ذَلِكَ مِنْ مُغَامَرَةٍ لَذِيذَةٍ!

سَيِّدِي، إِنْ مُشْكِلَتِي هِيَ نَفْسُ الْمُشْكِلَةِ الْقَدِيمَةِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَلَكِنِّي لَا أَدْرِي لِمَنْ سَتَكُونُ الْعَلَبَةُ؟

أَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي، حَاوِلْ أَنْ تُسَاعِدَنِي، وَابْحَثْ لِي عَنْ عِلَاجٍ؛ فَإِنَّ عَقْلَكَ وَأَنْتَ بَعِيدٌ عَنْ سَيِّطَرَةِ هَذَا الْوَحْشِ الْمَعْبُودِ- يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدِّلَنِي إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟ أَظُنُّ أَنَّهُ لَا خَلَاصَ لِي مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُدَنِّسَةِ الْمُمْتِعَةِ إِلَّا إِذَا تَخَلَّصْتُ مِنْ حَيَاتِي نَفْسَهَا!

ولكني -يا سيدي- لا أريد أن أموت، لا لأنني أخشى الموت؛ ولكن لا أريد أن أبتعد عنه! يا سيدي، ساعدني؛ فربما كان في كلماتك شيفائي وخلاصي...

(مُدَنِّسَةً)

«اعِدُّرَنِي إِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ فِي وَرَقٍ أَفْضَلَ؛ فَهَذَا هُوَ النَّوْعُ الْوَحِيدُ الَّذِي وَجَدْتُهُ هُنَا، وَلَمْ أَخِذْ وَرَقًا مِنْ مَكْتَبِ الْعِزَّةِ حَتَّى لَا أَفْضَحَ نَفْسِي وَأَفْضَحَ وَالِدِي».

عاد المُلَازِمُ مُحَمَّدٌ هَلَالٌ بِالْخِطَابِ إِلَى أَسْيُوطَ، بَعْدَ أَنْ وَعَدَ إِحْسَانَ عَبْدَ الْقُدُوسِ بِأَنْ يُعِيدَهُ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى...

كَانَ الْخِطَابُ يَفْتِخُ الْبَابَ أَمَامَ تَحَرِّيَاتٍ جَدِيدَةٍ، سَتَكْشِفُ بِالْتَّأَكِيدِ جَوَانِبَ أُخْرَى فِي عَالَمِ الْخُطِّ، فَهَلْ يَقُودُ هَذَا الْخَيْطُ لِلْإِطْبَاقِ عَلَى ابْنِ اللَّيْلِ الْهَارِبِ؟ وَكَيْفَ يَبْدَأُ؟

إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَيْسَتْ صَعْبَةً إِلَى هَذَا الْحَدِّ؛ فَأَعْيَانُ الْمَنْطَقَةِ مَحْدُودِي الْعَدَرِ، وَالْخِطَابُ نَفْسُهُ يَتَضَهَّنُ تَفَاصِيلَ يُمَكِّنُ أَنْ تَقُودَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْفَتَاةِ وَمُرَاقَبَتِهَا، ثُمَّ الْإِطْبَاقُ عَلَى الْخُطِّ وَهُوَ بَيْنَ أَحْضَانِهَا.

لَمْ يَكُنْ فِي الْخِطَابِ شَيْءٌ يَنْبُو عَنْ التَّصَدِيقِ، وَهُوَ أَدْرَى بِعَالَمِ أَثْرِيَاءِ أَسْيُوطَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ: وَسَطُ الْفَقْرِ وَالْقَحْطِ وَالْأُوبَيْتَةِ كَانَتْ قُصُورُهُمْ تَقُومُ كَالْقِلَاعِ الْمُحَصَّنَةِ ضِدَّ الْجُوعِ، وَضِدَّ الْمَرَضِ، سَمِيكَةً الْجُدْرَانِ لَكِي لَا تَسْمَعَ آذَانُهُمُ الْمُرَقَّهَةُ أَثَاتَ صَحَايَاهُمْ، وَبَيْنَمَا كَانَ النَّاسُ يَمُوتُونَ مِنَ الْبَلْهَارِسِيَا وَالْإِنْكَلِسْتُومَا وَالْبَلَاجِرَا وَالْحُمَّى الرَّاجِعَةِ وَالْمَلَارِيَا، فَإِنَّ حَدَائِقَهُمْ كَانَتْ دَائِمًا قَادِرَةً عَلَى إِخْفَاءِ كُلِّ هَذَا عَنْ عُيُونِهِمُ الْمُحِبَّةِ لِلْجَمَالِ، وَالْكَارِهَةِ لِلْفُجْحِ، وَأَذَانِهِمُ الصَّمَاءَ عَنِ الشُّكُوى؛ لِأَنَّ الْمَوْسِيقَى تَسْكُنُهَا!

خلف جدران القلاع المتجمدة في وجه من يراها من الخارج كانت تدور حياة أخرى من نوع خاص، حياة تنتمي إلى عواصم الغرب الكبرى، إلى حضارة أخرى تمامًا: حفلات استقبال، وأعياد ميلاد، وموسيقى كلاسيك، و-از، وآخر موضوعات الأزياء والرقص، ورحلات صيد، وسباق خيل...

إدًا فقد وقعت هذه المدنسة في حُب الخط... فبنت من هي يا ترى؟! واضح أن الخط قد دخل عالم أبناء البيوتات بكل ثقله، فهل تعتبره فتياؤها نوعًا من «الفولكلور» الشعبي، فيتمتعن به؟

كان ختم البريد يقول إن الخطاب قد صدر من «أسيوط- منفلوط»، ولكن ذلك لا يقود لشيء مُجددًا! فمن السهل إلقاؤه من أي مركز، ومنفلوط نفسها مركز كبير، وأغنياؤه كثيرون، فمن منهم وقعت بنته في هوى الخط؟ وما مصير سميرة، ورشيدة؟ وهل روى الخط شيئًا لبنت الدوات عنهما؟

عاد الضابط يتأمل في الخط النسائي الذي كتبت به الرسالة، بحروفه الدقيقة «المدغدة»، ويحاول أن يرسم خطة تمكنه من معرفة صاحبتها. كيف يستكتب بنات البيوتات في المديرية ليقارن خطوطهن بخط الخطاب؟!

ولكن ألا يبدو الأسلوب متقعرًا بعض الشيء على بنت دوات نصف مصرية في الغالب: «تخب في أرجاء الأرض»، وتحاول أن «تفك طلاسم سحره»! ألا تبدو حكاية «الصراع بين العقل والقلب» هذه فوق مستوى تفكير بنت دوات؟ صحيح أن منهن من تعلمت في المدارس الأجنبية، ولكن الأسلوب يبدو أزهرًا، وكأن كاتبه أخذ المشايخ الذين تتلمذوا على الشيخ عواد، أو زاملوه على عهد مجاورته بالأزهر...

ليست هذه هي المشكلة. لنبدأ بالبحث عن خيط يكشف كل هذه الطلاسم... قبل أن يبدأ هلال أي شيء للبحث وقعت في يده رسالة بنفس الخط! كانت الرسالة موجهة إليه هو هذه المرة، بتوقيع وخط زميل له يعمل في منفلوط... وكان مضمون الرسالة الجديدة تقليديًا: تحيات، وخبرًا بأن كاتبها سيسافر إلى القاهرة اليوم في قطار المساء: «إذا لزمك شيء فاكتب لي عنه. سأعود يوم السبت صباحًا... وفي يدك ألا أسافر -وبالطبع- وألا أعود إذا لم ترسل لي خمسة جنيهات أردّها بمجرد عودتي».

وبدلاً من أن يرسل هلال الجنيهات الخمسة مع حامل الرسالة، توجه معه بنفسه إلى منفلوط، وقابل صاحب الرسالة، وبعد مناوشة خفيفة بينهما اعترف ضابط منفلوط بأنه هو «المدنسة» التي كتبت لـ «روزاليوسف»، وقال إنه اخترع الرسالة من بنات أفكاره من الألف للياء وأردف قائلاً: «المسألة أنني أردت أن أمتحن نفسي في التأليف من الخيال»!

وروى له هلال ما تعرّض له من متاعب في سبيل هذه الرسالة، و«المشوار» الذي تكبّده إلى القاهرة، وما كان يُمكن أن يحدث لو لم يكتشف بالمصادفة كاتبها؛ كان سيبدل مجهودًا في التّجريب، والبحث، ورسم الخطّ وراء خبط واهن، وواقعةً مكذوبة... وعلق ضابط منفلوط على هذا كله قائلاً: «على أي حال فقد هدفتُ إلى عرض آخر غير التّأليف والاختراع... أردتُ أن أحدث هزةً في صفوف أغنياء أسيوط، أردتُ أن أثير الارتباك بين أصحاب الصّياغ والعزب، وهُم الذين أووا الخطّ طوال هذه المُدة، وأطعموه، وأجلسوه على موائدهم، وتَفَحَّوه الأموال ليقوى وليشتري الرّصاص الذي يعتدي به عليك وعلى رجالنا... إني والله أردتُ أن أرزعّ ثقتهم في نفوسهم، وفي أعراض بناتهم؛ حتّى يحرص كلّ منهم على تجنّب الخطّ، وإغلاق أبوابهم في وجهه؛ فيصبح كطير مقصوص الجناحين ضعيفًا بلا ملاذ؛ وبذلك يُمكنك القبض عليه. أنا والله أردتُ مُساعدتك».

واستمع هلال أفندي لذلك كله بصبر، ثم قال:
- يا سيدي مُتشكّر!

على أن منطق ضابط منفلوط كان يعكس في الواقع شيئًا أخطر من مُجرّد محاولةٍ منه لتبرير سأمه من حياة الصعيد الرّتيبة، فهو يكشف عن أن ضباط البوليس كانوا قد بدأوا يضيّقون بالفعل بالأعيان، ويكرهونهم... كان رصاص الخطّ -وغيره من أبناء الليل- قد اتّجه بكثرةٍ إلى صُدورهم، وكان مُعظمهم -برغم قبولهم العمل في مهنةٍ تتضمّن مخاطرةً بالحياة- لا يعبّرون هذه المُخاطرة جديةً؛ اعتمادًا على الهيئة التّقليدية التي كان جهاز الدولة قد كوّنّها لنفسه؛ ولذلك أرعّجهم بشدّة أن قُتل عددٌ من زُملائهم الضّباط في معارك مع أولاد الليل، وبدأوا يُحمّلون الأعيان المسؤولية عن حدوث ذلك، ويكرهون تحالفهم مع العصابات، وحياتهم لها، وينسبون إليهم مسؤوليةَهم عن اختلال الأمن، وإلقاء هذه المسؤولية على عاتق البوليس...

وكان هذا بداية بُروز التّناقض الغريب في صفوف جهاز الدولة نفسه، عندما بدأت الأجهزة الصّارئة للطبقات الحاكمة، وواداتها المُسلّحة لِقهر الجماهير تنقُص عن هذه الطبقات؛ وهو ما أدّى كله إلى تفسّخ السّلطة، وسقوطها في 23 يوليو 1952.

ولم يغضب قائدُ فرقة المُطاردة من زميله المُؤلف، شعر أن كلامه به بعضُ المنطق؛ لأنه هو نفسه كاد أن يفقد حياته برصاص الخطّ في نفس الأسبوع!

كانت التَّحَرِّيات قد أَكَّدَت أن الخُطَّ قد تَقَلَّ تَشَاطَه إلى منطقة منفلوط. وانتَقَلَت فرقة الموت بكامل أفرادها لَتُقيم بعزبة «سيد خشبة باشا»؛ لتكون على مَقَرَّبَةٍ من مَسَرِّحِ الأحداث.

في هذه المرحلة من حياته، كَانَ الخُطُّ قد رَمَى بِثِقَلِهِ كُلَّهُ فوق كاهلِ «الخَواجة محروس عازر»، أحد المُلَّاك المُتوسِّطِينَ فِي العِزْبَةِ؛ إذ كَانَ الخُطُّ يَهْبِط على العِزْبَةِ في الليل، وَيَمُرُّ بِبَقَالِ القِريَةِ، فيأخذ الطَّعام والسَّجائر وَرُجَاةَ الرِّيب، ثم يعود إلى وابور مالطي، ويدفع محروس كُلَّ الحِساب!

كان محروس عازر من أعيان الأقباط بالمنطقة، يَمْلِكُ ثلاثين فَدَّانًا بها، وهو فِي أواخر الحلقة الرابعة من عمره، يُخْفِي مَظَهْرَهُ الفَقِيرُ تَرَاءَهُ، وَقَدَّرَ الخُطُّ أَنَّ الخَواجة محروس رجلٌ هادئ الطَّبع، يَنفِرُ من الشَّغْبِ إلى درجة تَقْتَرِبُ من الجُبْنِ؛ وَمِنْ هُنَا قَرَضَ عَلَيْهِ إتاوَةً تَتَرَاوَحُ فِي الشَّهْرِ بَيْنَ الخَمْسِينَ والسَّبْعِينَ جَنِيهًا، فَضَلَّ عن الأفيون والرِّيب والسَّجائر التي كَانَ يَسْحَبُهَا من البَقَالِ.

وَأُثْبِتَ مَحْرُوسٌ بِذَلِكَ أَنَّهُ ضَحِيَّةٌ مِثَالِيَّةٌ لِلخُطِّ؛ ذَلِكَ أَنَّ عُرُوقَهُ الشَّدِيدَ عَنِ الدُّخُولِ فِي المَشَاكِلِ كَانَ صِمَامًا أَمِنَ مَطْلُوبٌ؛ فَهَذَا رَجُلٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْطُرَ بِبَالِهِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ أَوْ يَوْمٍ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْبُولِيسِ لِإِنْقَاذِهِ مِمَّا هُوَ فِيهِ...

وأصبح منزل «آل عازر» دَلَّةً أَمَانٍ لِلخُطِّ، يَنْزِلُ إِلَيْهَا فِي بعض الليالي، حَيْثُ تُطَهَّى وَلِيْمَةٌ فَخْمَةٌ مِنَ اللُّحُومِ، تُعَوَّضُ مَا يَلْقَاهُ مِنْ شَقَاءِ الإِقَامَةِ فِي الجَبَلِ، أَوْ فِي وَابُورِ مالطي، وَأَصْبَحَ مِنْ عَادَاتِهِ أَنْ يُغَيِّرَ مَلَابِسَهُ فِي دَارِ محروس، يَتْرُكُ المُتَسَيِّحَ مِنْهَا، وَيَلْبَسُ النِّظِيفَ، ثُمَّ يَعودُ فِي الأُسْبُوعِ التَّالِيِ لِيَفْعَلَ نَفْسَ الشَّيْءِ: يَأْكُلُ، وَيُغَيِّرُ مَلَابِسَهُ الَّتِي اتَّسَخَّتْ بِتِلْكَ الَّتِي عُسِلَتْ وَكُوِبَتْ.

وَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَمِرَّ الحال على هذا المِنَوالِ، لَوْ لَا أَنَّ حَالَةَ الخَواجة محروس المَالِيَّةِ كَانَتْ تَأَزَّزَتْ بِعَظَمَةِ الشَّيْءِ، هُنَا أَصْبَحَتْ مَطَالِبُ الخُطِّ عِيبًا لَا يُمَكِّنُ احْتِمَالَهُ، وَبِرْغَمِ أَنَّ الخَواجة كَانَ يُؤَثِّرُ السَّلَامُ؛ فَإِنَّ «دَاءَ البُخْلِ» كَانَ مُتِمَكِّنًا مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَ وَحْدَهُ -مِنْ بَيْنِ طِبَاعِهِ- الْقَادِرَ عَلَى مَنْجِهِ شَجَاعَةً تَصِلُ -بِالنِّسْبَةِ لِتَكْوِينِهِ- إِلَى حَدِّ الْفِدَائِيَّةِ! وَفِي لَحْظَةٍ تَهَوُّرٍ وَعَظَبٍ عَلَى مَالِهِ المَفْقُودِ اتَّصَلَ مَحْرُوسٌ عَازِرٌ بِقَائِدِ فَرَقَةِ المُطَارَدَةِ المَلَاذِمِ مُحَمَّدٍ هَلَالٍ، وَقَدَّمَ تَقْرِيرًا كَامِلًا لَهُ عَنِ المَرَحَلَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاةِ الخُطِّ...

لَقَدْ اسْتَقَرَّ الخُطُّ أخيرًا فِي وَابُورِ مالطي، فِي زَمَامِ قِريَةِ جِحْدَم، بِمَرْكَزِ منفلوط، وَهُوَ يَعِيشُ هُنَاكَ فِي حِمَايَةِ خَلِيفِهِ وَصَدِيقِهِ حَمْدِي خَلِيفَةِ عَمْدَةِ جِحْدَم، وَهُوَ يَزُورُ الخَواجة محروس فِي مَنَازِلِهِ مَرَّةً كُلَّ أُسْبُوعٍ لِكَيْ يُغَيِّرَ مَلَابِسَهُ المُتَسَيِّحَةَ، وَيَلْبَسَ مَا عُسِلَ، وَأَيْضًا لِيَأْكَلَ أَكْلَةً شَهِيَّةً، وَهُوَ يَتَعَمَّدُ أَلَا

يأتي في موعدٍ مُحدَّدٍ، إنه قد يجيء في الصباح أو في المساء، وأحيانًا في الفجر.

وهدفه الواضح من ذلك هو إرباك محروس لكي لا يعرف له -هو أو أي من أعدائه- موعدًا مُحدَّدًا يمكن أن تُرسَم على أساسه خطط لاقتناصه.

وكانت المعلومات تُؤكِّد أن الخطَّ قد فرض هيئته على المنطقة، وأنه شديدُ الحذر، لدرجة أنه يرفض أن يشرب أيَّ شرابٍ مَفْتُوح؛ فهو لا يشربُ عَرَقَ البَلَح -الذي يُتَقَرُّ أهالي الصَّعيد تقطيره- وبُفَصِّلٍ عليه «الزَّبيب»، برغم أن الأول أفضلُ من الثاني؛ ومقياس التَّرجيحِ عنده أن «الزَّبيب» شرابٌ مُغْلَقٌ لا يستطيع أحدٌ أن يدسَّ له شيئًا فيه.

وبرغم ثِقَتِهِ بالخوافة محروس فقد كان حذرًا تجاهَ كُلِّ ما يُقدِّم له في منزله؛ فقد كان يفرضُ عليه أو على أحد من أولاده تذوُّق ما يُقدِّم إليه من شرابٍ أو طعامٍ قَبْلَ أن يَمَسَّهُ هو، وكان يُردِّدُ مُبرَّرًا ذلك: «يا خوافة محروس.. لن يقتلني إلا السم!»

وحَتَّى الشَّاي، فإن الخطَّ لم يَكُن يشربُه في أي مكانٍ إلَّا إذا تذوَّقَه مُقدِّمُه قَبْلَه، ولم يَكُن يَسْتثني من ذلك أحدًا، إلَّا أمُّه «خالتي فِصَّة»، وعودًا، قبل مَقْتَلِهِ.

إلى هذا الحدِّ كان ابنُ اللَّيْلِ قد أصبحَ غريبًا ووحيدًا. لم يَكُن له عَزاءٌ إلَّا الأفيون. كان قد قَرَضَ على الخوافة محروس أن يُدبِّرَ له كَمِّيَّةً تكفيه أسبوعًا كاملاً، وكان يتناولُه بكميَّاتٍ كبيرةٍ؛ ممَّا أثقلَ كاهِلَ الخوافة بالمصروفات.

وكان الأفيون هو مزاجُ أبناءِ اللَّيْلِ المُفَصَّل، ورُبَّما كان الوحيد؛ فقد كان مُعْظَمُهُم يرفضون الحشيش؛ رُبَّما لِمَا يَبْعُثُهُ في الجَسَدِ من كَسَلٍ وَجُمُولٍ، يَعْكِسُ الأفيون الذي كان يُرهِفُ حواسَّهُم، ويعاينُهُم على السَّهَرِ الطَّوِيلِ، ويُعينُهُم على مُواجَهَةِ الخطرِ بدرجةٍ من الاستهانةِ وَعَدَمِ الإدراكِ الواعي الكاملِ بأبعاده؛ وهو ما يُفَجِّرُ جرأتَهُم وطيشَهُم، ويُرعِبُ مُهاجميَهُم نتيجةً للحالةِ اللا إنسانية التي يكون عليها.

وبدأ محمد هلال في ضوء المعلومات الجديدة يرسمُ خُطَّتَه لاصطياد الخطِّ، وكبَّده الخوافة محروس مَشَقَّةً كبيرةً وهو يحاول أن يُقِنِّعَه، كان الرَّجُلُ مُفَكِّكَ الأوصالِ تمامًا، وعندما كان الصَّايِطُ يشرح له فصولَ الخُطَّةِ كان يتَطلِّقُ جاريًا بعدَ كُلِّ قَصلٍ، مُؤكِّدًا أنه لن يشترك في هذه المُغامرة؛ كان الرَّجُلُ قد فَقَدَ طبيعَتَهُ البشريَّةَ تمامًا، لم يَعُدْ إنسانًا، وإنَّما أصبحَ مَجموعَةٌ من الأعصاب الخائِفة المُرْتَعِبَة.

وبعد مجهودٍ عَنيفٍ وافق الرَّجُلُ، وبدأ التَّنفيذ...

في أول مراحلها أصبحت العزبة يومًا وهي تتحدث عن خلافٍ حادٍّ بين الخواجة محروسٍ وشقيقه؛ لقد تنازعَ الشقيقان -كما تحدّثت العزبة- بشأن عددٍ من الأُفدّة التي يملكانها إرتًا عن والدهما، وراجت شائعاتٍ كثيرةً عن الخلاف، وأكد الكلُّ أن الخلافَ إذا لم يُحسم فسينتهي بأن يُريقَ أحدُ الأخوين دمَ الآخر.

وكالعادة، وصلَ تباُ الخلافِ إلى الخُطِّ في مَكَمِّهِ بوابور مالطي؛ وقرّر ابنُ الليل الهارب أن يتدخّل ليؤكدَ مكانته، وثبّت أنه رجلُ المَهَمَّات؛ فإذا لم يتدخّل هو لإعادة المياه إلى مجاريها بين الأخوين -وهما صديقه وحليفاه- فمن يتدخّل؟

إنه لن يفعل ذلك لإثبات «مكانته» فقط، ولكن أيضًا للحصول على مكافأة من الطّرفين، وكانت العادة في الصّعيد أن تُعقدَ مجالِسُ للصّحِّ شبيهةٌ بمجالس «العُربان» (وهي محاكمُ عُرفيّة)، وبمجرّد صدور الحكم وتوقيع الصّحِّ بين المتخاصمين فإنّ الذي يحكم في القضية تُودَعُ لِدَمَّتِهِ مُكَافأة، تُفسّر على أنها للتبرُّك، وأحيانًا باعتبارها مَصاريِفَ الانتقال.

إلى هذا الحدِّ كانت مكانة أولاد الليل. إن أحدًا لم يَكُن يتعاملُ معهم كمُجرمين، بل إن كثيرًا من الأعيان كانوا يَقْبَلون وِساطَتَهُمْ، ويحكمونهم في مشاكَلِهِمْ، بل ويحكمون هم أيضًا بينهم وبين زُملائِهِمْ من أولاد الليل عندما تنشأ بينهم خلافات...

المهمُّ أن الخُطَّ بَلَغَتْه أنباءُ الخلاف بين آل عازر؛ فتحرّك ليكون «قاضيًا» بينهما، وبمجرّد وصوله إلى دارهم هُيئَ مَجْلِسُ الصّحِّ على الفور، واقتصر المَجْلِسُ -بحسب الخُطة الموضوعة- على الشّقيقتين وأولادهما، وتَمَّ الصّحِّ بعد مُناقشةٍ قصيرة، لم تَخُلْ من حِدَّةٍ مُفتَعَلَةٍ، هَيَّات للخُط أن يقوم بمَهَمَّتِهِ، وأقنعتَه أن الخلافَ حَقِيقِيٌّ، وأنه ما كان يُمكن أن يُحلَّ دون مجهوده، وحرص في الحُكم الذي أصدره أن يكون عادِلًا وموضوعيًا، وأعلن الشّقيقان قبولهما للحلِّ، ورضاهما بِحُكم الخُط.

وشفع الخواجة محروسُ إعلانه باعلان آخر، فقال إنه -تقديرًا منه لمجهود الخُط في عودة المياه إلى مجاريها بين الأخوين- يُقدّم عشرة جنيّات كنوع من البرّكة للقاضي الفاضل، وأخرج شقيقه عشرةً أخرى مثلها؛ حرصًا على تَصْيِهِ من البرّكة.

وقبل أن يقوم الخُطُّ لينصرف وفي جيبه الجنيّات العشرون، قام الخواجة فأقسم بأغلظ الأيمان ألا يُغادر الخُط الدّارَ إلا بعد أن يأكلوا جميعًا «عيش وملح»، وشفع محروسُ قسمه بالعمل، وعلى الفور خرج أحدُ أبنائه، وعاد بخروف من قطع الخرفان الذي تملكه الأسرة، وقيده تحت أقدام

الْخُطَّ، وَأَخْرَجَ الشَّقِيقَ سَكِينَهُ، وَأَجْهَزَ عَلَى الْخُرُوفِ وَأَهَابَ بِأَهْلِ الْبَيْتِ أَنْ يَعْجَلُوا بِطَهْيِهِ.

وَجَلَسَ الشَّقِيقَانِ يَسْمُرَانِ مَعَ الْخُطَّ، بَيْنَمَا كَانَتِ الْأَسْرَةُ فِي الْمَطْبَخِ تُعِدُّ الْوَلِيمَةَ مِنْ تَنْوِيعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ عَلَى لَحْمِ الْخُرُوفِ: «لَحْمَةُ ضَانِي مَسْلُوقَةٍ، وَمَحْمَرَّةٌ، وَقَنَّةٌ، وَمَلُوخِيَّةٌ، وَلَحْمَةُ بِالْصَّلَصَةِ، وَزُرٌّ، وَجِبْنَةٌ بَلَدِيَّةٌ...»

وَأثناءَ إِعْدَادِ الطَّعَامِ كَانَ هَلَالُ أَفْنَدِي وَمَعَهُ الْكُونَسْتَابِلُ «رَاغِبُ شَنْنِ» يُرَابِطَانِ خَلْفَ صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ، كَانَ قَدْ مَضَى عَلَيْهِمَا يَوْمَانِ فِي هَذَا الْمَكَانِ، عِنْدَمَا لَمَحَا غُلَامًا صَغِيرًا يَحُومُ خَائِفًا مُتَرَدِّدًا حَوْلَ الصَّخْرَةِ، وَنَادَاهُ هَلَالُ أَفْنَدِي وَطَمَأَنَّهُ، حَتَّى قَالَ الْغُلَامُ رِسَالَتَهُ بَعْدَ تَرَدُّدٍ شَدِيدٍ: «أَبُوبَا بَيَقُولُكَ الْخُطَّ عِنْدَنَا فِي الدَّارِ!»

وَإِذْ عَادَ الطِّفْلُ إِلَى الْمَنْزِلِ وَأَخْطَرَ وَالِدَهُ مَجْرُوسَ عَازَرٍ بِأَنَّهُ أَبْلَغَ الرِّسَالَةَ؛ دَخَلَ الْخَوَاجَةُ إِلَى مَطْبَخِ الدَّارِ، وَأَطْلَلَ عَلَى حَلَةِ الْمَرْقِ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ زُجَاجَةً مِنْ «الْفَيْتُوفَالْفَيْتَيْنِ»، وَأَسْقَطَ مِنْهَا سِتَّ حَبَّاتٍ كَامِلَةٍ فِي الْمَرْقِ. وَ«الْفَيْتُوفَالْفَيْتَيْنِ» هُوَ أَقْوَى مُنَوِّمٍ كَانَ مُوجُودًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، اخْتَارَهُ مُؤَمَّرٌ مِنْ أَطْبَاءِ أَسِيُوطَ، عُقِدَ فِي مَكْتَبِ مَأْمُورٍ مِنْفُلُوطٍ «اللَّوَاءُ عَبْدُ الْحَقِّ الرَّفَاعِي».

وَكَانَتِ الْفِكْرَةُ فِي الْبَدَايَةِ أَنْ يَضَعَ الْخَوَاجَةُ سُمًّا يَقْضِي عَلَى الْخُطَّ، لَكِنَّ اعْتِرَاضًا عَلَى هَذِهِ الْفِكْرَةِ جَاءَ مِنْ نَاحِيَّتَيْنِ، الْأُولَى: مِنْ نَاحِيَةِ الْخَوَاجَةِ مَجْرُوسِ نَفْسِهِ، الَّذِي رَفَضَهَا بَغْضًا، وَخَشِيَ مِنْ تَنْفِيزِهَا؛ لِكَيْلَا تَفْشَلَ لِأَيِّ سَبَبٍ؛ فَتَكُونُ الْقَاضِيَّةُ عَلَيْهِ. أَمَّا الِاعْتِرَاضُ الثَّانِي فَكَانَ قَانُونِيًّا؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ حَقِّ الْبُولِيسِ بِالطَّبْعِ أَنْ يُسَمَّمَ مُجْرِمًا لِأَيِّ سَبَبٍ، وَكَانَ التَّفَكِيرُ فِي الْخُطَّةِ يُجَاوِزُ أَصْلًا حُقُوقَ الْبُولِيسِ الَّتِي يُحَدِّدُهَا الْقَانُونُ!

وَانْتَهَى طَهُؤُ الطَّعَامِ... لَقَدْ دَخَلَ الْمَرْقُ فِي كُلِّ أَلْوَانِهِ؛ مِنْهُ صُنِعَتِ الْمَلُوخِيَّةُ، وَفِيهِ سُلِقَ اللَّحْمُ وَحُمِّرَ. طَبَقَانِ فَقَطْ كَانَا خَالِيَيْنِ مِنْ «الْفَيْتُوفَالْفَيْتَيْنِ»: الْجِبْنَةُ الْبَلَدِيَّةُ، وَطَبَقٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمَلُوخِيَّةِ وَضِعَ فِي وَسْطِ الْمَائِدَةِ...

وَبَدَأَ أَهْلُ الْمَنْزِلِ -الَّذِينَ يَعْلَمُونَ بِالْخُطَّةِ- يَأْكُلُونَ تَبَعًا لَهَا؛ اتَّجَهَتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى طَبَقِ الْمَلُوخِيَّةِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَتَبِعَتْهُمْ يَدُ الْخُطَّ إِلَى طَبَقِ الْمَلُوخِيَّةِ مِثْلَهُمْ، وَمَضَى أَلْ عَازَرُ لِقَمَّتِهِمْ الْأُولَى بِبُطْءٍ وَتُكَاسُلٍ شَدِيدَيْنِ، وَهُوَ نَفْسٌ مِمَّا فَعَلَهُ الْخُطَّ، وَانْتَقَلَ الرَّجَالُ إِلَى اللَّقْمَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ الثَّلَاثَةِ، إِلَى الْخَامِسَةِ... كُلُّهَا مِنْ طَبَقِ الْمَلُوخِيَّةِ، بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ، وَنَفْسِ التَّبَاطُؤِ! وَظَلَّ الْخُطَّ يَتَّبِعُهُمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ؛ لَمْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَى اللَّحْمِ، أَوْ الصَّلَصَةِ، أَوْ الْفَنَّةِ.

وارتبك «آل عازر»؛ خشى الخواجة أن يكون الخطّ قد كشف اللعبة، وفجأةً دَخَلَ صَبِيٌّ صَغِيرٌ إلى مكان الطعام، وقف مُتَرَدِّدًا على بِلْيَها، كأنَّه مُحْتَجٌّ على أن أحدًا لم يدْعُه إلى هذه الوليمة الصَّخْمَة، وكان الخطُّ كَرِيمًا، ناداه، وأجلسه على فَخْذه، وراح يُرَبِّت على كَتِفِه، ثم مَدَّ يَدَه واقتطَعَ قطعةً من اللحم المحمَّر، وناولَها للصبي، الذي التهمها في نَهَمٍ، وبعد ثلاث دقائق مالت رأسُ الصَّبِيِّ على ذراع الخط، وراح في سُبَاتٍ عميقٍ...

وألقى الخطُّ الصَّبِيَّ على الأرض، وهَبَّ واقفًا، والتقط بندقيته، واندفع خارجًا من الدار!

وفشلت الخُطَّة، ولم يَبْقَ من ذيولِها إلا الرُّعْبُ الشَّدِيد الذي حاق بالخواجة محروس، الذي اعتَبَرَ نَفْسَه مَحْكُومًا عليه بالإعدام، وفشلت كُلُّ مُحاولاتِ الصَّابِطِ لِطَمَأَتِيهِ؛ فقد طَلَبَ منه أن يَنقِلَه هو وأسرته إلى قلب مركز أسبوط، بعيدًا عن منفلوط كلها؛ ليعيشوا فيه تحت حماية البوليس، وأقنعه الصَّابِطُ أن هذا حَلٌّ غير عَمَلِيٍّ، ووَعَدَه بأن يَفْرِضَ عليه حراسةً مُشَدَّدَةً وهو في داره.

وبعد الحادث بيومين فقط كان هلال أفندي يتسلَّم الرِّسالةَ الثَّالِثَةَ من الخط...

كانت رسالته الأولى هي تلك التي وَصَلَتْه بعد مقتل عَوَّاد، أمَّا الثانية فقد جاءت قبل حادث الخواجة محروس بحوالي أسبوع، وكان نَصُّها:

«الصَّابِط هلال..

هذا آخر إنذار لك بالقتل

(الخط)».

وبرغم أن «محمد هلال» قد نشر في مُذَكِّراته نَصَّ وَصُورَ هذه الرسائل إلا أنَّه لم يذكر بالتفصيل كيف كانت تَصِلُ إليه، لكن الشائعات كانت تُروِّجُ أَيَّامَها عن الوسائل الماكرة التي لجأ إليها الخطُّ لتوصيل رسائله للبوليس، وممَّا قيل -مثلاً- إن قائد فرقة المطاردة دخل مَكْتَبَه يومًا فوجد شخصًا ينظف رُجَاجَ غرفةٍ مَكْتَبِيه، وقد طَنَّهُ أحد «أفراد المصاريف»؛ وهم الأشخاص الذين تحكم عليهم المحاكمُ بغرامةٍ يَعَجِزُونَ عن دَفْعِها، ويشتغلون في نُقْطِ البوليس مُدَّةً مُعَيَّنَةً، بقيمة الغرامة، وعندما انصرف هذا التَّقرُّ فوجئ الصَّابِطُ بأنه تَرَكَ له رسالةً يَسَخَّرُ فيها منه!

وَرُبَّما يكون هذا قد حدث، وَرُبَّما لم يحدث، لكنَّ الثَّابِت أن كثيرًا من الحكايات والأساطير قد راجت عن الخط؛ حكاياتُ المُؤَكَّد أنها ليست حَيَالًا مَحْضًا، ولو كانت كذلك فهي ذات دلالة على رؤية الوجدان الشعبي للخط.

وَتَقَلَّا عَنْ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ تَبَشَّرَتِ الصُّحُفُ -فيما بعد- الْكَثِيرَ عَنِ الْخُطِّ، وَكَثِيرٌ مِمَّا نُقِلَ يَجْعَلُ قِصَّةَ الْخُطِّ تَنْوِيغًا جَيِّدًا عَلَى لَحْنِ «الأدهم الشرقاوي»، وَيَبْدُو أَنَّ «لَحْنَ الأدهم» -كَرْوِيَّةٍ لِلشَّقِيِّ- هُوَ قِيَمَةٌ ثَابِتَةٌ فِي الْوُجْدَانِ الشَّعْبِيِّ، أَنَّ ابْنَ اللَّيْلِ دَائِمًا ذَكِيٌّ وَمَاكِزٌّ، وَصَاحِبُ مَقَالِبٍ، يَسْخَرُ مِنَ الْبُولِيسِ، وَيُضِلُّهُ، وَهُوَ رَمَزُ خِيَّةِ السُّلْطَةِ وَعَبَائِهَا، إِنَّهُ ذَلِكَ الْفَهْلَوِي الْمَصْرِي، الْحَاوِي، الَّذِي يَلْعَبُ بِالْبَيْضَةِ وَالْحَجَرِ، وَيُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ لِيَهْرَأَ بِأَعْدَائِهِ.

وَبِرْغَمِ أَنَّ قِصَصَ مُغَامَرَاتِ أَوْلَادِ اللَّيْلِ هِيَ خَلِيطٌ مِنَ الدَّمِّ وَالْعُنْفِ وَالْخَوْفِ، فَهِيَ تَنْتَقِلُ وَتَتَوَاتَرُ دُونَ أَنْ تَخْلُوَ مِنْ بَسْمَةٍ أَوْ نُكْتَةٍ أَوْ مَقْلَبٍ!

لَقَدْ أَشْبَعَ بَيْنَ أَهَالِي أَسْيُوطَ -مِثْلًا- أَنَّ الْخُطَّ قَدْ قَابَلَ بَعْضَ مُطَارِدِيهِ مِنْ ضَبَّاطِ الْبُولِيسِ فِي أَحَدِ الْيَّامِ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي يُوَدِّي إِلَى أَحَدِ الْأَوْكَارِ الَّتِي كَانُوا يُطَارِدُونَ الْخُطَّ فِيهَا، فَقَادَهُمْ فِي الطَّرِيقِ لِمَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَتَحَدَّثَ مَعَهُمْ عَنِ الْخُطِّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فِي هَدْوٍ... وَهِيَ قِصَّةٌ تَكَادُ تَكُونُ تَقْلًا حَرْفِيًّا لِمَا وَرَدَ فِي «مَوَالِ الأدهم» عِنْدَمَا قَابَلَهُ مُطَارِدُوهُ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الأدهم، وَكَانَ مُتَنَكِّرًا فِي زِيٍّ خَوَاجَةٍ، وَأَخَذَ يُرَدِّدُ لَهُمْ: «الأدهم أَنَا مَا شَفْتُوش»!

وَسِوَاءَ صَحَّتْ هَذِهِ الْحِكَايَاتُ أَمْ لَمْ تَصِحَّ، فَالْتَّائِبُ أَنَّ «الْوُجْدَانَ الشَّعْبِيَّ» كَانَ يَنْظُرُ لِمُغَامَرَاتِ الْخُطِّ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِعْجَابِ بِشَجَاعَتِهِ وَجَرَأَتِهِ، وَيُسْقِطُ عَلَيْهِ أَحْلَامَهُ بِأَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مِنْ بَيْنِ الْمُسْتَذَلِّينَ مَنْ يَمْلِكُ كُلَّ هَذَا الْعُنْفِ فِي مَوَاجَهَةِ لُصُوصِ الْعَرَقِ...

وَلَا يَعْنِي هَذَا أَنَّ الذِّكَاءَ صِفَةُ أُلْصِقَتِ زُورًا وَخِيَالًا بِالْخُطِّ، إِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْمَكْرِ وَالذِّكَاءِ، كَمَا أَنَّ كُلَّ خُطَّاطِ الْبُولِيسِ كَانَتْ تَصِلُ إِلَيْهِ أَوَّلًا بِأَوَّلٍ، وَبِكُلِّ تَفْصِيلَاتِهَا الدَّقِيقَةِ، وَهُوَ مَا يَدْفَعُ لِلْاِقْتِنَاعِ أَكْثَرَ بِأَنَّ بَحْرَ الْجِمَايَةِ الْوَاسِعَةَ الَّذِي كَانَ يُحِيطُ بِهِ هُوَ أَوْسَعُ مَدًى وَأَعَمَقُ شَعُورًا مِنْ مَجَرَّدِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَتْبَاعِ وَالذُّيُولِ!

وَصَلَ الْخُطَّابُ الثَّلَاثُ مِنْ خُطَابَاتِ الْخُطِّ إِلَى هَلَالِ أَفْنَدِي بَعْدَ فِشَلِ عَمَلِيَةِ آلِ عَازِرِ بِيَوْمِينَ فَقَطْ، كَانَ الْخُطَّابُ يَقُولُ:
«الصَّائِبُ هَلَالٌ..

اسْتَشْهَدْ؛ سَتَمُوتُ يَوْمَ الْأَرْبَعِ

(الخط)

وَنَظَرَ هَلَالُ أَفْنَدِي إِلَى النِّتِيجَةِ أَمَامِهِ، كَانَ الْخُطَّابُ قَدْ وَصَلَهُ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْعَمَلِيَةَ سَتُنْقَذُ فِي الْغَدِ!

وَمَضَى يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ بِطَيِّئًا طَوِيلًا، وَكَانَ هَلَالُ أَفْنَدِي مُقِيمًا فِي مَقَرِّهِ بِعِزْبَةِ خَشْبَةِ، وَفِي الْعَاشِرَةِ مَسَاءً دَخَلَ رَسُولٌ مِنَ الْقَرْيَةِ عَلَيْهِ يَقُولُ إِنَّ عَسْكَرِيًّا قَدْ

جاء وفي يده ورقة، ويريد مُقابَلَة محمد أبو النجا -ضابط نقطة «التتلية»، وهي النقطة التي كانت تتبعها العزبة- ودخل العسكري فسلم ضابطه إشارة تقول بأنه قد تمَّ العثور على قتيلٍ مجهولٍ مُصابٍ بأعيرةٍ ناريةٍ في أحد المساكن...

وقال الكونستابل راغب شنن: «لازم القاتل هوَّ الخُطَّ...»، وتحمَّس هلال أفندي الذي كان مُتوتِّرًا من الانتظار الطويل، وقرَّر أن يقوم فورًا مع ضابط النقطة لمُعَايَنَة الجُثَّة، على أن يكتفيا بثلاثة عساكر فقط لمُصاحَبَتِهِمْ، وتحرَّك الموكِبُ على الفور، غير أنَّه قبل أن يستمرَّ في طريقه اصطدَّمت يده مُصادَفةً برسالة الخُطِّ في جيبه؛ فاكْتَشَفَ الكمينَ الذي كاد يقع فيه، انْضَحَّت المسألة على الفور: إن الحادِثَ كُلَّهُ هو الكمين الذي سُنِفَ في الخُطِّ تهديدَه بقتل الصَّابط.

من إبلاهة أن تتصوَّر بأنه سيهجم على مقرِّك بعزبة خشبة، ومعك ستون رجلًا مسلحًا بأعتى الأسلحة، وإدَّا فلا بُدَّ من مُبرِّرٍ يُخرِجُكَ إلى العراء؛ حيث تكون هدفًا لبندقِيَّته هو، الذي لم يَبْقَ معكَ سوى رجلٍ واحدٍ؛ هو بمثابة كُلِّهِ الأمين أبو الصالحين!

وبمُجرَّد تَكشُّفِ كمين الخُطِّ أمام عين الصَّابط عاد إلى حيث اصطَحَبَ فرقة الموت، بِكُلِّ أفرادها وأسلحتها، وقاد مُظَاهِرَةً مُسلَّحةً صَخْمَةً، أَخَذَتْ تُطَلِّقُ النَّارَ في فضاءِ الحُقُولِ المُلتَحِفَةِ بظلام الليل الدَّامي، كان هدُفه من ذلك كُلِّه أن يُرهِبَ الخُطَّ، وأن يُخيفَه لِيَعْدِلَ عن هُجُومِهِ، ويلوِّدَ بالفرار، وهو يعترف في مُذكراته بأنه كان مُقَصِّرًا في تلك الليلة: «كان في إمكاني أن أقبض على الخُطِّ في تلك الليلة، لولا أن كُلَّ تفكيري كان مُنصبًّا على النِّجاة من حَطرِهِ، لا على الإمساك به».

وعندما وصَلَتِ القُوَّةُ إلى مكان الجُثَّة لم تتعرَّف شَخْصِيَّةَ القتيل، ولا الباعِثَ على قتلِهِ؛ الأمر الذي أكَّد للصَّابط فِكْرَتَهُ أَنَّ العَمَلِيَّةَ كُلَّهَا كانت فَحًا لاصطياده.

وقَتْلُ إنسان بريء لا دخلَ له بالصِّراع هو تَمَودُجٌ لذلك العُنْفِ المُجرَّد الذي أصبح طابعَ الخُطِّ في المرحلة الأخيرة من حياته؛ لقد اختار إنسانًا لكي يَقْتُلَهُ وَيَجْعَلَ مِنْهُ طُعْمًا لأعدائه، هُنا ألقى حَجَرًا كبيرًا في بحر الحماية الواسعة الذي يُحيط به، بحر المُحايدِين من النَّاسِ الذين كانوا لا يَخْلُون من العُطفِ عَلَيْهِ، ولا يَخْلُون عَلَيْهِ بِالحِمَايَةِ والمَعُونَةِ أحيانًا!

ذلك أَنَّ العُنْفَ بلا قِصِيَّةٍ يَتَوَالَدُ ذاتيًّا كخلايا السَّرطان...

الفصل العاشر

بَكَارَةُ مُومِس!

عاد البحث من جديد يدور عن طريقة لاصطياد الخُطَّاء، وقفزت على الفور الفكرة القديمة: «فَتَّشْ عَنْ الْمَرْأَةِ»، وكان الدَّافِعُ لظهور الفكرة من جديد هو أن الخُطَّاء كان قد اتَّخَذَ لَهُ عَشِيقَةً جَدِيدَةً، هي حميدة زوجة مدبولي، خفير وابور مالطي.

وَرَدَتْ أَوَّلُ إِشَارَةٍ إِلَى هَذِهِ الْعِلَاقَةِ فِي حَدِيثِ مُحْرُوسٍ عَازِرٍ، عِنْدَمَا قَدَّمَ تَقْرِيرَهُ الْأَوَّلَ إِلَى مُحَمَّدٍ هَلَالٍ، فَقَدْ ذَكَرَ لَهُ أَنَّ الْخُطَّاءَ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي وَابُورٍ مَالِطِيٍّ لِأَسْبَابٍ؛ كَانَ عَلَى رَأْسِهَا عَرَّائِمُهُ بِحَمِيدَةٍ، وَرَغْبَتُهُ فِي الْإِسْتِقْرَارِ بِجَوَارِهَا.

وَلَمْ تَكُنْ حَمِيدَةُ جَمِيلَةً، كَانَتْ قَدْ جَاوَزَتْ مَرَحَلَةَ الشَّبَابِ، وَيَبْدُو أَنَّ الْخُطَّاءَ كَانَ قَدْ حَوَصَرَ تَمَامًا؛ فَاجْبَرَ عَلَى الْإِكْتِفَاءِ بِامْرَأَةٍ «نَصَفٍ»، بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا -عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الْخَوَاجَةِ مُحْرُوسٍ- الْمَوْجُودَةُ وَالسَّلَامُ!

وَبَسَبَبِ شِدَّةِ الْحِصَارِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى الْهَبُوطِ مِنْ فَوْقِ قِمَّةِ جَبَلِ «الشَّيْخِ بَخِيْتٍ» لِيَلْتَقِيَ بِزَوْجَتِهِ رَشِيدَةٍ فِي مَنْزِلِهِمَا بِدْرَنْكَةِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ فِي الْمَاضِي، وَآخِرَ مَرَّةٍ زَارَ فِيهَا أَسْرَتَهُ كَانَتْ بَعْدَ أَنْ سَقَطَ آخِرُ أَخُوْتِهِ «تَوْفِيقٍ» صَرِيحًا فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ الْبُولِيسِ.

وَكَانَ مَقْتُلُ تَوْفِيقٍ وَاحِدًا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَحْدَثَتْ أَقْسَى التَّطَوُّرَاتِ الَّتِي اعْتَرَتْ الْخُطَّاءَ، وَحَوَّلَتْهُ إِلَى ذَنْبٍ بَشَرِيٍّ حَقِيقِيٍّ. كَانَ تَوْفِيقٌ قَدْ هَرَبَ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ لِيَبْعَدَ قَلِيلًا عَنْ مَطَّارِدَةِ الْبُولِيسِ لَهُ، وَهَرَبَ مَعَهُ أَحَدُ أَعْضَاءِ الْعِصَابَةِ، وَبَوْمًا، وَهُمَا يَسِيرَانِ فِي مِيدَانِ الرَّمْلِ، فَوَجِئًا بِيَدٍ تُوضَعُ عَلَى كَتِفِ كُلِّ مِنْهُمَا، وَمُسَدَّسٍ مُصَوَّبٍ إِلَى صَدْرَيْهِمَا، وَلَأنَّ الْإِسْكَندَرِيَّةَ لَيْسَتْ أَسْيُوطَ فَإِنْ تَوْفِيقٌ لَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ مَدْفَعًا فِي يَدِهِ، وَلَكِنْ هُوَ وَزَمِيلُهُ كَانَا يُخْفِيَانِ مُسَدَّسَيْنِ صَغِيرَيْنِ فِي جَيْبَيْهِمَا، لَكِنْ الْمُفَاجَأَةُ لَمْ تُمَكِّنْهُمَا مِنْ إِخْرَاجِهِ، وَسَقَطَ تَوْفِيقٌ...

وَبِرَغْمِ أَنَّهُ اسْتَسْلَمَ لِلْبُولِيسِ، فَالظَّاهِرُ -عَلَى حَدِّ رَوَايَةِ الْبُولِيسِ نَفْسِهِ- أَنَّهُ حَاولَ الْهَرُوبَ، فَأُطْلِقَ الْبُولِيسُ الرِّصَاصَ عَلَيْهِ وَقَتْلَهُ.

وَلَقَدْ ظَلَّ الْخُطَّاءُ مَا بَقِيَ مِنْ حَيَاتِهِ مُقْتَنِعًا بِأَنَّ الْبُولِيسَ قَدْ اغْتَالَ تَوْفِيقَ، وَدَبَّرَ تَمَثِيلِيَّةَ هُرُوبِهِ لِيَقْتُلَهُ؛ تَخَلَّصًا مِنْ عِزْزِهِ عَنْ تَقْدِيمِ أَيِّ مَبَرَّاتٍ قِضَائِيَّةٍ تَكْفُلُ مُحَاسَبَتَهُ وَعُقُوبَتَهُ وَالْحُكْمَ عَلَيْهِ!

والمدهش في الخُطّ، كان ذلك الحِسَّ القانونيّ الغريب، فقد كان يثور لأنّ البوليس يتجاوز القانونَ ويستخدِمُ العَدْرَ، ولا يحترِمُ ما يزعمُ لنفسه أنّه يحاربُ أبناءَ الليلِ بسببِ الخروجِ عليه.

لقد أحزنه مَقْتَلُ توفيق حُزنًا ثَقِيلًا، وتَقِمَ على البوليسِ إلى حدِّ الجنون. ليلتها هَبَطَ الخُطُّ من فوق قِمَّةِ جبل «الشيخ بخيت»، وكان الليلُ قد انتصفَ، عندما فوجئت أمّه به في باحَةِ الدَّارِ، كان حزينًا كما ينبغي لِرجُلٍ قُتِلَ أصغرُ أشقائيهِ، وأكثرهم تَفَانِيًا في طاعته، وأحبُّهم إلى قلبه، سقط قتيلًا في معركةٍ غادِرةٍ... ومدَّ يده مُعَرِّيًا أمّه، التي قالت: «البركة فيك...».

ودخل ليرى زوجته، وحملت الأمُّ الرَّهيبَةَ مدفع «التومي جن»، وخرّجت كعادتها تحرّسُ البابَ، ولم يَمكُثِ الخُطُّ سوى ساعةٍ واحدةٍ، غادر بعدها الدَّارَ، ولم يَعدْ من يومها، ولم تَرَه رشيدة أبدًا بعد ذلك!

وكانت سميرة قد هاجرت من أسيوط، تَرَكَّتِ الجنيزة إلى غير عَوْدَةٍ؛ فبعد مُقابَلَتِها العاصِفةِ مع قائِديّ فرقةِ المُطاردةِ وَضَعها البوليسُ تحت مُراقَبَةٍ شديدةٍ، حالت دون اتّصال عَشيقها بها، وضاقَت بالمُراقَبَةِ، التي كانت تُهدِّدُ أيضًا مَصدِرَ رِزقها في حيِّ البغاء؛ فانتَهزت فُرصةً تَراخت فيها عيونُ البوليسِ، فهاجرت إلى المنيا، ومن هناك جاءت الأبناءُ بأنّها تَشْتَغِلُ في حيِّ البغاء في المنيا، لدى واحدةٍ من «معلماته»، اسمها زينب!

وتَجَمَّعَ هذه المعلومات في يدِ محمد هلال قرّر أن يُطبّقَ القاعدَةَ الفرنسيّةَ تطبيقيًا خاصًّا؛ سيحاولُ أن يُثيرَ غيرةَ كلتا المَراتِئِ: رشيدة: الزوجة المَهجورة، وسميرة: العشيقة المَهاجرة - من حميدة: عشيقة الخُطّ الجديدة، وساكنةٍ وابور مالطي؛ لعلّ هذه الغيرةُ تدفع واحدةً منهما -أو كليتهما- للانتقام من الحبيب الغادر، يتسلّمه للبوليس، وقرّر أن يبدأ برشيده.

هبط من الجبل يومَ سوق درنكة، ومعه الجاويش «الغول»، أحد أفراد فرقة المطاردة، وقد تنكر في زيِّ أولاد الليل، وعندما اقتربا من المنزل قابلا «خالتي فضّة» التي كانت في طريقها إلى السوق، وعلى رأسها قُفَّةٌ بها أربعُ بَطّاتٍ، فتعَتَّرت في حَجَرٍ، فوقعت منها القُفَّةُ، وهَرَبَتِ البَطّاتُ، فاستغاثت بالغول وهلال اللذين كانا بجوارها، وساعداها على الإمساكِ بِبَطّاتِها الشَّارِداتِ، فأعادتهم إلى قُفَّتها، ومَصَّتْ دون كلمة شُكرًا!

ودَلَفَ الرَّجُلانِ إلى دار الخُطِّ، فوجدا نَفْسَيْهِما وجهاً لِوجهِ أمامِ رشيدة، التي جلست على باب دارها تُرضِعُ طِفْلها هاشم...

قدّم محمد هلال نفسه وزميله باعتبارهما من مطاريد أبنوب، ضاقت بهما الدُّنيا بعد أن قَتَلَتِ الحكومةُ «رَبَّسَهما» في الحوض؛ فجاءا يحتميان في دار الخُطِّ (وكان هذا واحدًا من تقاليد الفروسيّة التي حاقَطَ عليها أولاد الليل)،

واستمرت المُحادثة فترةً، وسألها الرَّجُلان عن الخُطّ، فنظّرت إلى الجبل، وقالت إنها لم تَره منذ شهور.

وبدأ هلال أفندي يطرقُ على الحديد وهو ساخن، قال إن الخُطّ «قلبه جامد»، وأنّه شخصياً برغم مُطاردة الحُكومة له فإنّه لا يطيق بُعدَ زوجته، وألقى بنظرة ذاتِ معنى إلى ملايس رشيدة الفقيرة، وإلى الدار التي كانت تصرخ بالفقر، ثمّ تحدّث عن زوجته التي يُحبّها، ولا يعود من عَزْوَةٍ أو يحصل على إتاوة، أو يشترك في معركة- إلا وجلب لها من نفسه من الغنائم هديةً ثمينةً، لدرجة أن لديها الآن مَصوغاتٍ بمئاتٍ من الجنيهاً. ليس هذا فقط، هو أيضاً ابنُ ليلٍ ناصح؛ فهو يشتري بما يتجمّع لديه من الغنائم أرضاً، يَكْتُبُها باسم زوجته؛ ليضمّن مُستقبلها ورزقَ عيالها!

ثمّ انتقل يُحدّثها بِخُبثٍ عمّا «يُشاع» في أوساط أبناء الليل من أن للخُطّ علاقاتٍ واسعةً بـ«نسوان» كثيراتٍ، وقال بعد لحظةٍ تَمَنّع -كأنّه لا يريد أن يتوسّع في الحديث- إنّهُ سَمِعَ أن للخُطّ «رفيقة»، وهي امرأةٌ ساقطةٌ خائنة، تتجسّسُ للبوليس، ومع ذلك فإنّ الخُطّ يُنفقُ عليها نقوداً كثيرةً، كان ابنه هاشم أولي بها، وهي غير مُخلصةٍ مع هذا؛ فبعد أن عَصَرَت الخُطّ عَصْرًا هَرَبَت مِن أسيوط، وتزوَّجت هنالكِ أحدَ عساكرِ البوليس، وهو يتمنّع الآن بِكُلِّ ثروتها التي جمعتها من بلاهة الخُطّ وتبذيره!

واستمرّ هلال أفندي قائلاً:

- البتّ سميرة دي مُصيبة... إن ماسلُمُش الخُطّ للبوليس أبقي أنا ما اعرفش حاجة.. مش كده والّا إيه يا غول؟

وإذا بالغول يَرُدُّ ردّاً لم يَكُن مُتَوَقَّعًا بتاتاً، قال:

- مضبوط يا افندم.. عندك حقّ يا سعادة البيه!

وكشفت كلماتُ الغول -الذي سَرَحَ أثناء الجلسة- سِرَّ أولاد الليل المُتَنَكِّرين، وبعد فترةٍ من السؤال المُلِحّ من رشيدة، كاشفها محمد هلال بشخصيته، وأخرج من جيبه جُنيهاً دَسَّه في صدرِ هاشم، وبدأ يُحدّثها عن علاقة حميدة بالخُطّ، وكانت تجهلُ سِرَّ هذه العلاقة الجديدة، وقال لها إنّ الخُطّ «مقتولٌ مَقْتُول، أو مَسْجُون مسجون، وأهم شيء الآن هو تأمينُ حياتك أنتِ وهاشم، وأنا أعِدُّك بأن أسعى لتحقيق ذلك لك ولولدك؛ فالخُطّ وهو طليق الآن لن يُفِيدَك في شيء، بل ويَصُرُّك وبُؤْذِك، حتى إنّ الأرملة هي أحسنُ مِنكِ حالاً...».

ولم تَرُفُض رشيدة حديثَ الضابط وهو يؤكّد لها بالمنطق أنّ من الخير لها ولولدها أن يُخْرِج الخُطّ من حياتها؛ فهو يَظْلِمُها بأفعاله، ويَكويها بعاره، ولا

يدفع لها مَلِيَمًا واحدًا من مئات الجنيهاً التي يُحصِّلها، وفضلاً عن ذلك فهو غير مُخْلِصٍ لها؛ لقد عَدَرَ بها وخانها، فلماذا تُخْلِصُ هي له؟!

كان الحديث بِمُجْمَلِهِ يَلْعَبُ علي وتر حسَّاس في نفسها، وهي تتذكَّر المَرَّات الأخيرة التي كان الخُطُّ يَهِيْطُ فيها من الجبل، فيسحبها بلا سَلام ولا كلام إلى الحُجْرة، وفوق مرتبةٍ حَقِيرَةٍ، وحصيرة، يُمارِسُ معها الحُبَّ صَامِتًا، ثُمَّ يَنْصَرِفُ عَائِدًا إلى الجبل دون أن يَتَنَفَّسَ بكلمة؛ ولذلك لم تَنْدَهِشْ أو تَعْتَرِضْ عندما طَلَبَ منها الصَّايِطُ أن تُبْلِغَهُ بأخبار الخُطِّ. إن الطَّلَبَ في حَدِّ ذاته لم يُثِرْ استنْفَارَها، أو يَسْتَفِزَّ عَصَبَها، تَقَبَّلَتْه ببساطةٍ، وأبدت عدمَ قُدْرَتِها على تنفيذه لسبب آخر تمامًا، هو أنها لا تعرف له أخبارًا، ووَعَدَتْ بتقديم هذه الأخبارِ إذا ما وَصَلَتْ إليها!

كان كلا الاثنين -الخُطُّ ورشيده- قد أصبح غريبًا عن الآخر تمامًا.

وصحيحٌ أنَّهما زَوْجان منذ أكثر من عشر سنوات، وبينهما ولدٌ، إلا أنَّ تركيبة الخُطِّ الإنسانيَّة كانت قد اختلفت وتغيَّرت نتيجةً لِغُرْبَتِهِ وتَوَحُّشِهِ. إنه لم يَعدْ هو نفسه محمد الذي رُفِّقَ إليه وهي في النَّاسِعة، والذي لم تَرَفُضْ من سلوكه -وقتها، وبعدها بقليل- شيئًا.

لم تَكُنْ المسألة هي علاقته النسائيَّة، رغم أنها كانت تُقْلِفُها، ولكنها أصبحت حالةً من الانفصام الكامل بينهما، فما أكثر الرِّجال الذين كانوا يتزوَّجون أخرياتٍ في الصعيد، إن هذا لا يبدو سَبَبًا كافيًا لكي تقبلَ رشيده أن تُشاركَ في تسليمه، لكنَّ المسألة كانت أعمَقَ من هذا؛ كانت مَسْأَلَةٌ ذلك الانفصام النَّفْسِيِّ والجَسَدِيِّ الذي عَزَلَ كُلَّ منهما عن الآخر، وبنى بينهما جدارًا من التَّلَج.

كان العُنفُ الواقِعُ على الخُطِّ -والصادر منه- قد جفَر أخاديدَ عميقة في قلبه ووجدانه، وغيرَ من بَنِيَّةِ الإنسانيَّة، ولأنَّ رشيده طَلَّت على ما هي عليه؛ فإنَّها لم تُدركْ أبعدَ ما حدث لزوجها إذا عندما اكتشفتَ تَدْرِجِيًّا أنَّ الذي يُشاركُها فِرَاشَها -في لحظاتٍ مَحْدُودَةٍ- هو شخصٌ غريبٌ تمامًا عنها.

وبرغم أن رشيده كانت مُستعدَّةً نَفْسِيًّا لِلْمُشَارَكَةِ في تسليم الخُطِّ، فإنَّها -واقعيًّا- لم تَكُنْ مُفيدةً؛ فهي غريبةٌ عن الخُطِّ، يَكُلُّ مَعْنَى الغُرْبَةِ، لا تعرفُ شيئًا عنه: أين يُقيم، ومَتَى يَأْتِي، وأي طريق يَسْلُكُ...

وفي زيارته الثانية لها -وكانت يومَ السُّوقِ التَّالي- جاء هلال أفندي وحده، لم يَكُنْ قد حَقَّقَ طَوَالَ أسبوعٍ كاملٍ أيَّ تَقَدُّمٍ؛ فقرَّر أن يُحاولَ مَرَّةً أخرى مع رشيده؛ لعلَّها كانت تَمَكُّرُ به، أو رُبَّمَا كانت تُخْفِي شيئًا.

وفي النَّاسِعة صباحًا كان واقفًا أمامَ دار الخُطِّ، ودخل، طَرَقَ أذنه بُكَاءُ هاشم، وصوت رشيده تقول غاضبةً ومُحنَّقةً: «اُنْسَدِّ يا ابن الكلب.. مَرَّرت

عِشْتِي.. إِلَهِي يَعْطُوا عَلَى أَبوكَ! وتَفَاءَلَ بِالسَّبَابِ، وبِمَا يَعْكِسُهُ مِنْ عِلَاقَاتٍ مُهَشَّمَةٍ بَيْنَ الْخُطِّ وَزَوْجَتِهِ، وَبَعْدَ لِحْظَاتٍ كَانَ يَجْلِسُ مَعَهَا عَلَى بَابِ الدَّارِ. كَانَتْ أَتَعَسَ حَالًا مِنْ الْمَرَّةِ الْأُولَى الَّتِي زَارَهَا فِيهَا، قَالَ لَهَا فِي مِرَارَةٍ:

- أَنْتِي رَشِيدَةٌ؟! أَنْتِي مَرَاتِ الْخُطِّ الَّتِي عَامِلَ نَفْسِهِ سَيِّدَ الرَّجَالَةِ! مَشْ لَاقِيَةٌ هِدْمَةً تُسْتُرُكَ!.

وَجَرَتْ دُمُوعُ رَشِيدَةٍ وَهِيَ تَقُولُ:

- تَصَدَّقْ بِاللَّهِ... أَنَا لَوْ أَلَاقِي تَمَنَ السَّمِّ لَاسِيَمُهُ هُوَ وَأُمُّهُ قَصَّةٌ!

وَوَجَدَ نَفْسَهُ يُرَدِّدُ بِلَا وَعْيٍ:

- سِيَمٌ؟ عَاوِزَةٌ سِيَمٌ تَقْتُلِي الْخُطَّ!

وَشَرَّدَ الصَّابِطُ بِفِكْرِهِ بَعِيدًا... إِنَّهَا طَرِيقُهُ سَهْلَةٌ وَمَضْمُونَةٌ: زَوْجَةُ الْخُطِّ تَصْعُ لَهَ السَّمِّ فِي الطَّعَامِ، وَلَكِنْ هَلْ يُوَافِقُ الْمَسْئُولُونَ عَلَى ذَلِكَ؟ وَهَلْ يُمَكِّنُ دَسُّ السَّمِّ لِلْخُطِّ بِمُوَافَقَةِ الْحُكُومَةِ، وَتَحْتَ إشرَافِ صَابِطٍ مِنْ صُبَّاطِهَا؟ وَمَا مَدَى مَشْرُوعِيَّةِ هَذِهِ الْوَسِيلَةِ؟!

وَأَفَاقَ مِنْ شُرُودِهِ عَلَى صَبِيٍّ يَنْدَفِعُ مِنَ الْبَابِ، وَيَهْمِسُ لَأُمِّ هَاشِمٍ بِشَيْءٍ ثُمَّ يَنْطَلِقُ خَارِجًا فِي لَمَحِ الْبَصَرِ... وَوَقَّفتْ رَشِيدَةٌ وَهِيَ تُرَدِّدُ فِي قَرَعٍ:

- مُحَمَّدٌ جَايٌ... مُحَمَّدٌ جَايٌ.

كَانَتْ فِي حَالَةٍ عَصَبِيَّةٍ قَطِيعَةٍ، وَبِسُرْعَةٍ وَقَّفتِ الصَّابِطُ وَسَأَلَهَا عَنْ حُجْرَةِ الْخُطِّ، فَأَشَارَتْ إِلَيْهَا، فَدَخَلَ مُسْرِعًا، وَكَمَنَ خَلْفَ الْبَابِ، وَبَدَأَ يُخْرِجُ مِنْ جَيْبِهِ مُسَدَّسَهُ الصَّغِيرَ سَرِيعَ الطَّلَاقِ.

وَوَضَعَ الصَّابِطُ وَاقِفًا لِحْظَاتٍ يَدَتِ كَعْمَرٍ كَامِلٍ؛ لَمْ تَكُنْ ثِقْتُهُ بِرَشِيدَةٍ مُطْلَقَةٍ، فَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ كُلُّهُ أَنْفَعَالًا طَارِئًا، وَمَاذَا يَحْدُثُ لَوْ فَاجَأَتْ رَشِيدَةُ الْخُطِّ عِنْدَ دُخُولِهِ قَائِلَةً: «حَاسِبْ يَا مُحَمَّدٌ.. فِيهِ وَاحِدٌ وَاقِفٌ لَكَ وَرَا الْبَابِ»؟!

عَلَى أَنَّ الْمَوْقِفَ لَمْ يَطُلْ، فَبَعْدَ لِحْظَاتٍ قَصِيرَةٍ دَوَّى طَلْقُ نَارِيٍّ، ثُمَّ جَاوَبَتْهُ طَلَقَاتُ سَرِيعَةٍ مَكْنُفَةٍ، وَسَادَ الصَّمْتُ بُرْهَةً، ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يَجْرُونَ نَحْوَ مَصْدَرِ الصَّوْتِ، وَخَرَجَ هَلَالُ أَفْنَدِيٍّ، فَوَجَدَ صَبِيًّا فِي الْخَامِسَةِ عَشْرَةِ مُصَابًا بِعِيَارِ نَارِيٍّ فِي ذِرَاعِهِ، وَكَانَ يَهْدِرُ مُهْدِّدًا شَخْصًا صَعْدَ -فِيْمَا يَبْدُو- قِمَّةَ جَبَلٍ «الشَّيْخَ بَخِيتَ».

وَكَانَ الْخُطُّ قَدْ قَتَلَ أَخَاهُ الْأَكْبَرَ، فَأَقْسَمَ أَنْ يَثَّارَ لَهُ، وَلَمْ يَتَصَوَّرِ الْخُطُّ -وَلَا أَيُّ إِنْسَانٍ آخَرَ- أَنَّ الصَّبِيَّ الَّذِي لَمْ يَتَجَاوَزِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ يُمَكِّنُ أَنْ يُفَكِّرَ فِي هَذَا، أَوْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ الْعُلَامَ ظَلَّ يَتَرَصَّدُ الْخُطَّ فِي حَقْلِ الذَّرَةِ، إِلَى أَنْ شَاهَدَهُ يَهْبِطُ مِنَ الْجَبَلِ لَزِيَارَةِ زَوْجَتِهِ، فَفَتَحَ عَلَيْهِ النَّارَ، وَلَقْلَقَةَ خَبْرَتِهِ فَإِنَّهُ لَمْ

يستطع أن يصيبه، وطلنَّ الحُطَّ -غالبًا- أنَّ هناك كَمِينًا كبيرًا في الدَّرَّة، فبادر بالفرار، والعودة إلى الجبل.

ولم يجد الصَّايطُ مُبَرَّرًا للعودة إلى دار رشيدة؛ فعاد إلى فكرة عشيقته، وبرغم أنه أنفَعَلَ قَرِحًا بمحاولة الصَّبِيِّ الصغير الفاشلة، فإنَّ المُشكِلة كانت ما تزال قائِمةً: إن رشيدة التي أبدت استعدادًا نفسيًا لتسليم زوجها، ليست هي الكَمَّاشَة المُلَائِمة، والحُطَّ بعدَ مُحاولَة غُلَام درنكة سيعتيرُ أن قريته لم تُعد دار أمانٍ، ولن يهبطَ من الجبلِ مرَّةً أخرى إلا بعد شهور.

وإدَّا... فما العمل؟

سَميرة!

وبعكس رشيدة، فإن ملكة الجنيزة كانت أكثر قُرْبًا من الحُطَّ، واتِّصالًا به، وإذا كانت الزَّوجَةُ مُستَعَدَّةً إلى هذه الدَّرَجَة لتسليم زوجها، فما بالك بالعشيقة! إنها على الأقلِّ لَيْسَتْ «سَيِّدَة مصوَّتا»، وأخلاقها هي ذلك النوع من الأخلاق الذي يَسْمَحُ لامرأةٍ بأن تبيعَ جَسَدَها في سوق المُتعة.

إلى المنيا ساقَر هلال أفندي، ومن مَحطَّتها استقلَّ عربة «كارو»، وطلب من سائقها أن يذهبَ به إلى بيت المعلمة زينب، فابتسم السَّائِقُ بِخُبثٍ، وفي الطريق تَوَقَّفَ لحظاتٍ ريثما عاد بعدد أرطال اللحم، وفواكه، وزجاجة كونياك. واستقبلته المعلمة باعتباره زبونًا طيِّبًا، تدلُّ على ذلك هيئته، وما جاء به! وجاءته سميرة، التي بُهِتَتْ عندما رآته بعد اللقاء الحاد الذي كان بينهما بأسيوط.

وحاول أن يجسَّ تَبَصَّها:

- أجب لك ويسكي؟

- اللي تشوفه؟

- لسه بتحبِّي الويسكي؟

- أبدًا.. أشرب كونياك.. نبيت.. بوظه.. اللي انت جايه دلوقت!

كان واضحًا أنها انكسرت شيئًا ما، وإدَّا فقد أضحت كالأخريات، بعد أن هجرها الحُطَّ. وفكر أن يستمرَّ في إذلالها، لكنَّه رأى أن ذلك لن يُفيدَ حُطَّته، وفصل أن يَغْمُرَها بَعَطَاياه، وأن يُقدِّمَ دَلِيلًا على كَرَمِه، ويهيئ الفرصة للمُفاوِضة، وأخرج الجُنِيَّهات الخَمْسَة وطلبَ من المعلمة أن تشتري زجاجة ويسكي.

وفي ظلّ الجوّ الطيّب الذي انتشر بعد خروج المعلّمة لشراء الويسكي بدأ المُناقشة معها، وطلّب منها بصراحة أن تُساعِدَ الحُكومة في القبض على الخُطّ، وبنى طلبه على أنّ الخُطّ قد أكلها لحمًا ورمًاها عَظْمًا، ودَكَرَ لها أنباءَ غرامه بحميدة، وإقامته في وابور مالطي بجوارها، وأنها ستكسب نقودًا من هذه العملية حوالي خمسمائة جنيه، تستر بهم نفسها، وتعيش في أمان.

وكان منطق سميرة واضحًا وبديهيًا، قالت إنّ الحُب والكراهية من أمور القلب؛ فليس يديها أن تُحب الخُطّ أو تكرهه؛ لأنّ الذي قرَضَ عليها هذا الحُب هو قلبها.

واعترضت على وصف الصّابط له بأنّه مُجرِم، قائلةً إنها لم تُحبّه بشروط؛ فلا شروط في الحُب، لقد أحبته «والسّلام». صحيح أنّها لم تُحبّه بسبب إجرامه؛ إذ لو كانت تسعى وراء مُجرمين لَمَّا عَزَّ عليها أحدهم، ولَنَالَتْ منهم الكثير، وأكثر من الكثير، ولكنها أيضًا ليست ضدّ هذا الإجرام؛ لأنها تُحب الخُطّ بكلّ عيوبه ومَحاسينه.

وعن الإجرام تحدّثت سميرة ببساطةٍ وصدقٍ، وقالت إن الحياة إجرامٌ من البداية إلى النهاية، وأنّ الناس مُجرِمون، ولكنهم يختلفون في نصيبهم من الكذب، باختلاف قدرتهم على إخفاء جرائمهم وسرّ إجرامهم، والسبب في شهرة الخُطّ الإجرامية -دون غيره- أنه مُجرِمٌ صادقٌ، صريحٌ، لم يطل حقيقة بمادّة الكذب، ولم يُحاول إخفاء شخصيته.

ودُهِشَ الصّابط لمنطق سميرة البسيط. والواقع أنّ كائنًا مثلها لا بُدَّ له أن يعي الحياة بهذا المنطق العميق في تلقائيتها.

وكان مُحتمًا -وهي التي طُحِتَ تمامًا في معركة الحاجة، إلى الدّرجة التي اضطرّت فيها لبيع جسدها، وأصبحت عبدةً بكلّ معنى الكلمة- أن تكون لها مفاهيمٌ مُختلفةٌ للخير والشرّ غير تلك التي يُروّج لها قاهروها؛ ولذلك رَقَصَت سميرة بكبرياء وأتفة أن تُشارك في الإيقاع بالخُطّ، وقالت إنه شابٌ طيّبٌ، فيه دَخيرَةٌ وفيرةٌ للرّجولة النّادرة، وأنه عَطُوفٌ ورفيقُ القلب، وأنّه كان صادقًا في حُبّها؛ كان يغازُ عليها، وكم بكى وبلّلت دُموعه عَتَبَاتِ دارها، شأنه شأن الحبيب الذي يشعُر ويحسُّ.

وفشلت كلّ مُحاولات محمد هلال لإغرائها بالمال، وبينما هو يُفكّر كيف يُغلق بابَ المُفاوضة دون أن يدعّاها تشعُر بأنّه هُزِمَ -جاءت المعلّمة.

وربّما هي الحُمر، وقد تكون لفتةً من لَفَتَاتِ المعلّمة، أو كلمة من شلال الكلمات الفاضحة التي تسَلَّت من قِمْها... شيءٌ غير مفهوم حدّث؛ جعل الصّابط يحاول مرّةً أخرى، وجعل مُحاولته هذه المرّة مع المعلّمة.

فجأةً، وبلا مُقدّمات، توجّه إلى المعلّمة زينب سائلًا:

- يامعلّمة يا ثَقَّاح خالِص.. تَحَبِّي تكسبي حُمسمة جنيه؟

ويبدو أن العُنفَ يَنعَكِسُ على النَّاسِ بشكلٍ مُتفاوتٍ. إِنَّهُ يُحَدِّثُ عُنفًا بَدِيلًا في كُلِّ الأحوال، ولكنَّ اتِّجَاهَ العُنفِ هو الذي يَخْتَلِفُ، فبينما وَعَّتَ سميرَةُ حَقِيقَةَ العُنفِ الذي وَقَعَ عليها؛ يَما جَعَلَهَا تَعتبرُ نَفْسَها حَلِيقَةَ الحُطِّ، فإنَّ عُنْفَ المَعلِّمةِ كانَ تَوَعًّا من الكَراهِيَةِ العامَّةِ لِكُلِّ النَّاسِ، والسَّبقُ للإِضرارِ بِهِمِ والكسبِ من ذلك... تَوَعُّ من المَوْتِ الكاملِ لِلضَّميرِ والا إحساسَ بالمسؤوليَّةِ.

وشرح هلال أفندي للمعلّمة ما يريد منها؛ أَنَّهُ يريد أن يَقترِضَ منها سميرة لمدَّة ثلاثة أَيَّام.

كان هُناكَ «مُولِدٌ» لأحد الأولياء يُقام في إحدى القُرى القَريَّةِ من جَهدٍ، وكانت حُطَّةُ الصَّايِطِ تقوم على أساسِ استغلالِ المولد ليكون كميًّا لاصطياد الحُطِّ، سوف يُقيمُ حَيَمَةً وقَهوَةً في المولد، تَرُقُصُ فيها سميرة، وسيَعرِفُ الحُطُّ طَبْعًا أن عَشيَقَتَهُ -التي يُحِبُّها- تَرُقُصُ على مَقَرَبَةٍ مِنْهُ؛ فيتركُ وأبور مالطي، وبأتي ليراها- وتلك هي الفُرصةُ الدَّهِيَّةُ لاصطياده والقضاءِ عليه!

ومن المستحيل أن تَنجَحَ حُطَّةُ مُحَكَّمَةٍ كهذه دون مَعوَنَةِ سميرة!

وبكبرياءٍ أعلَّنت سميرة أَنها لن تَفعَلَ شَيئًا من هذا، وَأَنَّ ما يَطلبه الصَّايِطُ من المُستَحِيلاتِ، ولن يَحْدُثَ، حتَّى ولو رأى نَجومَ الظَهرِ... ونظر الصَّايِطُ للمعلّمة، وكَثَّرَ الحَدِيثَ عن الجَنِيَّاتِ الخَمسمائَةِ، وقالت المعلّمة:

- يا بَتَّ يا مُغفَلَةً.. إيه عاجبك في العيشة المَنيَّلَة دي! حُمسمة جنيه يا مجنونة! أكسيكي.. أَصَيِّعُكَ.. أَجَوِّزُكَ، وأُكُتِبُ لَكَ نُصَّ البَيتِ...

بَكَتَ سميرة:

- يا نِيَّتِي مستحيل.. مش مُمكن يَهُونَ عَلَيَّ الحُطُّ.. إمسكوه بعيد عني.. إقتلوه.. إدبحوه بعيد عَنِّي.. مستحيل يا نِيَّة!

وهي تقول كَلِماتِها الأخيرةَ صَارِخَةً وبأَكْبَرَةٍ قَامَتِ إلى حَقِيبَةٍ صَخَمَةٍ، وَأَخَذَتِ تُكَوِّمُ مَلايِسَها فيها، مُعلِنَةً أَنَّها سَتَرَخَلُ، وَأَنَّها تُفَضِّلُ الجوعَ والعِيشَ بلا عَمَلٍ أو رِزقٍ على ما يُطَلَبُ منها...

وكان رَدُّ المَعلِّمةِ أن أَطَلَقَتِ من حَلِيقِها صَوْتًا إباحيًا يَطفَحُ بالسُّخْريَّةِ، وفي لحظةٍ واحدةٍ انقلبت سِحتُها انقِلابًا مُروِّعًا، أَصَبَحَتِ لَبوَةً هائِجَةً وثائِرَةً، تُهَدِّدُ بوحشيَّةٍ، وتَنتَظِقُ بِكَلِماتٍ فَطِيعَةٍ عن الحُطِّ وسميرة، وتُوكِّدُ استعدادَها لاستِئْجارِ قَحْلٍ آخَرَ يُرضي نوازِعَ سميرة بدلًا من الحُطِّ الذي لا تَستطيعُ أن تَستغني عنه.

وفي لحظاتٍ اختطفت المعلمة كُرباجًا أسودَ، وكشّرت عن أنيابها، وانقضت على الجسد الرّخص اللّين، جذبت سميرة من شعرها جذبةً ألقت بها على الأرض في غنْفٍ، ورَفَعَت الكُرباجَ الأسودَ، ووطّئت الصّدر الرّقيق الفاتِنَ -الذي طالما تعبّد فيه العاشقون- بأقدامها الوحشيّة، ورَفَعَت يَدَها بالكُرباج ليرسلَ فحيحًا في الهواء، ثم ليهوي على بَدَنِ سَمِيرَة...

وكما يتحمّل المُتصوِّفُ عذابَ الجَلْدِ من أجل ما يعشقون، تَحَمَّلَت سميرة العذابَ صابِرَةً، وظلّت مُصِرَّةً على مَوْقِفِها.

ووقَفَ محمد هلال صامِتًا، رغمَ أَلَمِه. كان لا بُدَّ مِنّا ليس منه بُدٌّ، فكَّرَ لحظةً في أن يحتجَّ على وحشيّة المعلمة، لكنَّ احتجاجه لم يتجاوزَ خلايا مُخِّه، وفكَّرَ -حائِرًا- كيف أن البنت قد حَجَلت من كلمات المعلمة، وعلت مَلامِحَها السَّمراءَ حُمرةً حَجَلٍ، شأنَ مَنْ ينظر لهذه العلاقة نظرةً تَقديسٍ.

ولأنَّ العُنفَ -عندما يكون بلا قضية- يتوالدُ ذاتيًا كخلايا السرطان، فإن الحدودَ فيه تنمحي بين رَجُلِ القانون والخارجِ عليه، وبين حَقْطَةِ الأمن والعائِثين به... وهكذا وقف محمد هلال يُشاهدُ عمليّةَ تَعذيبِ بَشِيعَةِ إنسانٍ مَطْحُونٍ، يجري على رِزْقِه، مُتَحَمِّلًا عذابَ بَيْعِ النّفس والغرائز والرَّغبات -يُشاهدُ كُلَّ هذا صامِتًا، ومُقِرًّا، دون أن يتدخَّلَ أو يمنع كما يَقْتَضِيهِ واجِبُه، والقَسَمُ الذي أقسمه عندما دخل في سبيلِ البوليس. وكان ذلك كله قاسيًّا؛ فخلالَ هذه المعركة الدَّاميّة فكر -وهو ضابط بوليس ورجل قانون- أن يَسُمَّ الحُطَّ وأَمُّه، ويَصْرِفَ النّظَرَ عن أن هذا عملٌ غير قانوني بالنّسبة للحُطَّ نفسه، فإنَّه كان جريمةً مُتكامِلَةً الأركان بالنّسبة لـ«خالتي فضّة»؛ إذ ما دَنَبُها لكي يُفكر في تسميمِها... إنها بريئةٌ تمامًا أمام القانون.

ليس هذا فقط، بل إنه فكر أيضًا في الاستعانة بزوجة الحُطَّ في الإيقاع به، وفي ذلك قسوةٌ بالِغة؛ ذلك أن قواعِدَ القانون في المُجتمعات المُتَحَصِّرة كانت تُحرِّمُ دائِمًا سَماعَ شهادة أحد الرّوَجِئِ ضد الآخر، والأبناء ضد الآباء؛ حمايةً لعلاقات الرّجَم، وحِفظًا على وشائج القُرْبى.

لكن يبدو أن المسألة كُلَّها أن أحدًا لم يَكُنْ يَحْتَرِمُ حرّيّة الإنسان أو كرامته أو حقوقه، وحقوق الأبرياء تمامًا -بلا أيِّ شُبّه- تُهدَّرُ علنًا كلَّ يوم، فهل تنتهي به مُطارداتُه للحُطَّ إلى أن يُصيحَ «حُطّا» آخر، من ناحية الجَوْهَرِ على الأقل؟!!

كانت البنت ما زالت تصرخُ وقد مَرَّقَ السَّوْطُ ثوبَها، وكشَفَ عن جُزءٍ من فخذها الأسمر الجميل، ومَدَّت يَدَها تُغطيه بالثوب -حياءً أو وقايةً- من جلدَتَيْن من جلدات المعلمة، فأصابت الثَّانيّة كَفَّها التي كانت تَقْبِضُ على طَرَفِ الثوب، ودُمُوعُها تَسحُّ في تَدَفُّقٍ غريب من عيونها الرّرقاء الجميلة...

وأخيراً قالت البنت:

- طيّب.. أرقص.. سيبيني وأنا أرقص...

خَرَجَ الصَّابِطُ من جموده وسارع بكتابةِ صَكٍّ^٤ بالخمسمائة جنيه، مَضمُومُهُ أَنَّ المعلمة زينب وسميرة كان لهما القَصلُ في الإرشاد عن مخبأ الخُط؛ ولذلك فإنَّهما يستحقَّان نصفَ المُكافأة التي عَيَّنتها وزارةُ الدَّاخِلِيَّة لِمن يُرشدُ عنه.

وانطلق الصَّابِطُ من جموده، وكان ما زال خاضِعًا لإحساسه المُرِّ بالمَهانةِ لَمَّا حَدَّثَ أَمَامَهُ، وكانت البنتُ -المُومِسُ، التي بلا عرض ولا شَرَفٍ- تشعرُ بأنَّها أقوى منه برغم كلِّ ما حدث لها، وقد وَصَفَ هذه اللَحَظَاتِ المَريرةَ قائلاً: «كان الظلامُ حولنا والصَّمْتُ بيننا. كنتُ أعاني أَلَمًا نَفْسِيًّا مَريِّرًا. أعاني خَجَلًا شديدًا من مَوقفي إزاءَ سميرة. لم يَكُنْ كُرباجُ المعلمة زينب أداةً جَلَدٍ، بل كان عَلَمًا في مَمْلَكَةِ العبودِيَّة، كان يَعْنِي أن سميرة إِنَّمَا هي جارية للمعلمة زينب؛ تتصرَّف في بَدَنِها كيفما تشاء: تهديه للرجال، أو تَجِلِّدُهُ بالسَّياط!»!

وأخَرَجته سميرة من خَواطِرِهِ بِكلماتٍ كالسَّياط التي انهالت عليها، قالت:

- كُلُّكم مُجرمين.. الدُّنيا كُلُّها: الخُط، وانت، وغيركم... بس الفرق بينك وبين الخُط إِنَّهُ مش كَذَّاب...

في المولد أقامت فرقة الموت خِيمةً صغيرةً لسميرة لتكونَ محلَّ إقامَتِها، ووُزِّعت حولها حراسَةٌ خفيفةٌ لمُراقبَتِها، وأَعِدَّتْ خِيمةً أخرى كبيرةً واسعةً لتكونَ مكانًا للمَقْهي والمَرَقَص، وفي رُكنٍ منها أقيمت «نَصَبَةٌ» لأدوات الشاي والقهوة والدَّخان، وغيرها من الطَّلَبَات، وفي صدرِ الخِيمةِ كانت هناك خَشَبَةٌ صَغيرةٌ للمسرح، رُصَّتْ أَمَامَها الدَّكَّ والكِراسي في صفوف مُتراصَّة.

واستخدَمت «فرقة الموت» فرقةً موسيقيَّةً من أَفضلِ وأرقى فِرَقِ المولد بالصَّعيد، وعلى النَّصَبَةِ وقف أحدُ الكونستابلات يُعِدُّ الطَّلَبَات، وتَطَوَّع أحدُ العساكرِ بابنه ليكونَ صَبِيًّا يُوزِّع الطَّلَبَات، وفي وسط المُتفرِّجين كان هناك باستمرارٍ عشرون من أفراد الفرقة اندسُّوا بين الرُّوَاد في أزياء الأهالي المُتبايئة، وكان محمد هلال بين هؤلاء...

في الليالي الثلاثة الأولى عَيَّنت سميرة ورَقَصَت، وأشار عليها هلال أن تنزِلَ إلى الصَّالة لِجَمْعِ النُّقُوط؛ أسوَّةً بغيرِها من راقصات المولد.

وفي الليلة الرابعة تَزَلَّت تَجَمَّعُ النَّقُوطُ، وهلال أفندي جالِسٌ يُدَخِّنُ
«كُرسِيًّا» من «المعسل»، ويبدو أنه كان من النوع الحامي؛ فأثار سُعالَه الحادَّ،
وقام خارجًا من الخِيَمَةِ لِيَشُمَّ بعضَ الهواءِ.

وفي الليلة الرابعة تَغَيَّرَت سَمِيرَةٌ تمامًا؛ كانت في لياليها الثلاثة الأولى
تُغَنِّي أغنياتٍ حزينةً، وكان صَوْتُهَا الشَّجِيُّ مَلِيْنًا بِرَنَّةٍ شَجَنٍ وهو يُغَنِّي:
«اللِّي ماداقش الحُب يسألني وأنا أقوله
أنا اللِّي دُفَّت الدُّلَّ وشربِت كاس مُرَّه»...

وفجأة تَغَيَّرَت نَعْمَةُ الغناء من الليلة الرابعة، تَحَوَّلَت سَمِيرَةٌ فجأةً لطفلةٍ
مَرِحَةٍ تَعَبَتْ وَتَهَرَّجَ، ومن المواويل والغناء الحزين انتقلت إلى المنولوجات،
وحَزَمَت وسطها بِشالٍ مُلَوَّنٍ، وأَحَدَت تَرْقُصٌ كما لم ترقص طولَ عُمرِها على
كلماتٍ تقول:

«وأقول له يا شاويش.. رَقَّصني يا شاويش... عَ الواحدة يا شاويش.

رَقَّصني يا شاويش.. عَ الواحدة يا شاويش...

قام الشاويش ساب ده وده..

شاف مَرِّيكا بتدُق.. انْحَرِّم..

قال رَقَّصني يا شاويش.. عَ الواحدة يا شاويش».

وبينما كانت الخيمة كلها تَرْقُصُ على كلماتها، كان هلال أفندي دَهَشًا
يَتَغَيَّرُ حال البنت، ولم يُدْرِكْ -إلا فيما بعد- أنَّ سَمِيرَةَ كانت بهذا المَوَّالِ تُدَشِّنُ
أَنْتِصَارَها عليه، وتقود رُؤَاةَ مَقَهَاها في أغنيةٍ تَسَحَّرُ من الشاويش، من
السُّلْطَةِ، والباشاوات والأعيان، وَمَنْ يَخْدُمُونَ أَهْدَاقَهُمْ بلا ضَمِيرٍ تحت دعوى
حمايةِ الأمن العام.. أَمِنْ مَنْ؟! أين هو «الأمن العام» حَقًّا في كُلِّ ما تفعلون؟
هل حَاقَطُوا عليه يَوْمَ داسَ الفَقْرُ على عَرْضِها وسَفَحَ حَجَلِها وإحساسِها
بالكَرَامَةِ؟ وَمَنْ الذي كان يستطيع أن يُعَاقِبَ عبد الله بن محمد بن علي
لَطَمَتِهِ الوَحْشِيَّةَ على وجه صَيَّادٍ فقير؟!

وما حدث حَدَثٌ في الليلة الثالثة، فبعد أن خرج هلال أفندي مباشرةً من
الخيمة يستنشق الهواء انْحَنَّت سَمِيرَةٌ تَأْخُذُ النُّقُودَ مِنَ الرَّجُلِ الذي يجلس
بجواره، لم يَكُنْ سوى «أبو الصالحين» كَشَّافِ الخُطِّ ودَلِيلِهِ، وآخر مَنْ بَقِيَ
معه من الرِّجال، أرسله الخُطُّ لِيَسْتَكَشِفَ له الجَوَّ قَبْلَ أَنْ يُخَاطِرَ وينزل
بنفسه إلى المولد...

وفي كلماتٍ قلائِلَ هَمَسَت سَمِيرَةٌ لأبو الصالحين بكلِّ شيء، طَلَبَتْ منه
أن يُحَدِّرَ الخُطَّ، وأن يَمْنَعَهُ من الحضور...

وَقَرَّ الْعُصْفُورُ... ضَحَّتْ سَمِيرَةٌ بِوَعْدِ الْمَعْلَمَةِ: الْخَمْسَمِائَةُ جَنِيهِ، وَنَصَفَ
الْمَنْزِلَ، وَالزَّوْجَ الَّذِي سَيَسْتُرُهَا. وَانْطَلَقَتْ تُغَيِّي:

«قَامَ الشَّاوِيشُ سَابَ دَه وَدَه

سَمِعَ مَرْيَا يَتَدَقُّ اتَحَرَّمَ قَالَ

رَقَّصَنِي يَا شَاوِيشَ عَلَى الْوَاحِدَةِ يَا شَاوِيشَ...».

الفصل الحادي عشر

يا «كايد» الحكومة!

كان كُلُّ يومٍ يَمُرُّ والخُطُّ ما زال حيًّا يَصْعُ الحكومةَ في مَازٍ جديد... وما أَكْثَرَ المَازِيقِ الَّتِي كانت الحكومة المصرية تُعَانِيهَا أَيَّامَهَا! كانت أحزاب الأقلِّيَّة قد أَفْلَسَتْ، وأَعْلَنْتِ إِفْلَاسَهَا رَاسِمِيًّا عندما سَلَمَتْ برلمانها لإسماعيل صدقي لِيحْكُمَ بِمَقْتَضَاهُ، وهو المستقلُّ الذي لا حِزْبَ لَهُ، ولا رصيد سياسي لشخصه في أي قلب، بل إن العلاقات بينها وبينه كانت علاقات عداٍ مُسْتَحْكِمَةٍ، وبرغم كُلِّ ذَلِكَ قَبِلَتْ رِئَاسَتَهُ للوزارة، وَمَنَحَ مَجْلِسُ نُوابِ الأقلِّيَّاتِ ثِقَتَهُ؛ حرصًا على العهد كُلِّهِ من السقوط.

وكان الشارع المصري قد انفجر يَغْلِي ضِدَّهُ عندما اتَّضَحَتْ مؤامراته لِجَرِّ مصر للارتباط بالأحلاف الاستعمارية، وَيَمَكِّنُ الصَّعَالِيكُ وشُبَّانُ المُدُنِ من إجهاض المحاولة. وفي حَمَلَةٍ ضَارِيَةٍ حَطَّ صدقي على جميع الذين قاوموه، وَنَقَلَهُمْ إلى السجون في ليلةٍ واحدة.

والغريب أن البوليس الذي نَفَّذَ هذه الحملة بنجاح تامَّ ضَدَّ خصوم صدقي السياسيين من الكُتَّاب والصَّحَفِيِّين وغيرهم من أَلْعَنَاصِ الوَطَنِيَّةِ - هذا البوليس نفسه كان يُعَانِي هَزَائِمَ مُتَوَالِيَةً في مَعَارِكِهِ ضَدَّ أولاد الليل!

وكانت المَسْأَلَتَانِ مُرتَبِطَتَيْنِ بِشَكْلٍ ما؛ ذلك أن «الأمن السياسي» كان يحوز دَائِمًا كُلَّ الاهتمام، وَيَخْرُجُ ضُبَّاطُهُ وَحَتَّى مُخْبِرِيهِ بِنَصِيبِ الأسدِ من المُكَافآت والرُّتَبِ، يَعْكُسُ رُؤْمَالُهُمْ في الأمن الجنائي، وكانت السُّلْطَةُ المصرية -قبل الثورة- تَعْتَبِرُ أن أعداءها السياسيين -برغم سلمية أساليبهم وديمقراطيَّتها في الغالب- هُمُ الأعداء الأساسيون، بل هم -برغم أسلوبيهم الهادئ- أخطر على العهد بِمُجْمَلِهِ؛ لأنهم أكثر تأثيرًا وفاعليَّة.

وبرغم هذا فإن الخُطَّ سَبَّبَ قَلَقًا شديدًا للسُّلْطَةِ المصرية بِمُجموعها، وبدأ يُحْدِثُ تناقُضاتٍ بين أَجْنَحَةِ الدَّوْلَةِ الواحدة، والفكرة التي كانت وراءَ رسالة «المُدَنِّسَةِ» الَّتِي كَتَبَهَا ضابطٌ منفلوط تَعَكِّسُ شَكْلًا من أشكال هذا التناقُض. كان ضُبَّاطُ البوليس قد أَصْبَحُوا في «وجه المدفع»؛ يتأمر الأعيانُ على حياتهم بِحِمَايَتِهِمْ لأولاد الليل واستخدامِهِمْ لهم. وبرغم أن ضُبَّاطُ البوليس هم جُزءٌ من جهاز الدولة، هذا الجهاز الذي يخدم هؤلاء الأعيانَ، فإن الأعيان قد تَخَلَّوْا عنهم وسَلَمُوهم غَنِيمةً بارِدةً لأولاد الليل!

ففي خلال شهور الصيف قُتِلَ أكثر من ضابط من ضبَّاط البوليس في معارك مع أولاد الليل، فقتلت عصابة الأعمى الملازم أول رمضان الطيلي، من ضبَّاط مركز أحميم، عندما كان يشارك بعض القوَّات في هجومها على العصابة. وقُتِلَ كونستابل وجندي في هجوم على عزة الزهيري، في مركز البداري، قتلها هاشم الزهيري، واحد من أبناء الليل الذين بلغت شهرتهم الحد الذي أطلق فيه الناس اسمه على العزة.

وقد سجَّل التقرير الذي كتبه أحد مُفتِّشي وزارة الداخلية عن حادث مقتل الملازم رمضان الطيلي -بأسفٍ- أن التحريات قد «دلت على أن رئيس العصابة قد لجأ إلى منزل أحد الوجَّهَاء وبات عنده ليلة اغتياله الصَّابط، وعقب ارتكابه الحادث مباشرةً، ولكي يُمكنه من الهرب ألْبَسَه بعض الملابس الأفرنجية، وبها اختفى عن أعين البوليس»!

وأدَّى قتل البوليس المتوالي إلى ظهور نعمة من الاستهانة به، والسُّخْرية منه، وتضاعفت النعمة حتى وصلت إلى الشارع، وفقد الناس تمامًا أيَّ ثقة في قوَّات الأمن.

وكان أقسى رمزٍ لهذه الاستهانة ما فعلته «جُلَّشان» في ابن عمها «أبو هاشم»!

وكان أبو هاشم واحدًا من أشهر أولاد الليل وأذكاهم، وموطنه الأصلي هو جرجا، وقد بدأ حياته في الجبل بجريمة تار، كغيره من أولاد الليل، واستطاع في فترة قصيرة أن يؤكِّد مكائنه، وأن يُجبر كلَّ الرؤوس على الانحناء له في خشوع.

وجنَّد أبو هاشم أسرته لحمايته، إلا أن خلًا حادًا نشب بينه وبين أولاد أحد أعمامه -هم أشقاء جُلَّشان- وانتقم ابنه من واحدٍ منهم، ثم آخر؛ فقتله أولاد العم الخصوم، وردَّ أبو هاشم على ذلك بقتل والدهم، وهو والد جُلَّشان، ثم قتل واحدًا من أولاد عمِّ ثالث، وكان العمُّ وابنُ العمِّ الثالث اللذان قتلهما يمثَّان بأوثق الصَّلات لابنة عمِّه جُلَّشان؛ فالعمُّ الذي قُتِلَ هو والدها، وابن العم هو زوجها...

وثارت جُلَّشان لوالدها وزوجها، وحلَّعت ثياب النساء، و«استرجلت»، وخرَّجت لتصبح «ابنة ليل»، تطارد أبو هاشم في كلِّ شبرٍ من الأرض، وبنت عيونها تتبعه في كلِّ مكانٍ يذهب إليه، وتعاوَّت مع البوليس في ذلك.

ويومًا جاءتها إخبارية بأن أبو هاشم ورجاله يتمركزون في نقطةٍ مُعيَّنة من البحر الأخضر، فذهبت بنفسها إلى ديوان مديرية المنيا، وقابلت مُديرها (كان اسمه عبد الرحمن عمار بك)، وطلَّبت جُلَّشان من المُدير أن يضع تحت

إِمْرَتِهَا بَعْضَ قُوَّاتِهِ، عَلَى أَلَّا يَسْأَلَهَا أَحَدٌ عَنْ وُجْهِتِهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَتَّقُ بَأْنَ مَا لَدَيْهَا مِنْ مَعْلُومَاتٍ لَا يُمْكِنُ الْحِفَاطُ عَلَيْهِ بَيْنَ قُوَّاتِ الْمَدِيرَةِ!

وَبِالْفِعْلِ انْضَمَّتْ قُوَّةٌ مِنَ الْبُولِيسِ إِلَى قُوَّاتِهَا، وَحَاصَرَتْ الْقُوَّاتُ الْمَشْتَرَكَةُ بِقِيَادَةِ جَلِشَانِ مَنَاطِقَةَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ لِمُدَّةٍ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، تَشَبَّهَتْ خِلَالَهَا مَعْرَكَةُ ضَارِيَّةَ، قُتِلَ خِلَالَهَا خَمْسَةُ مِنْ عَصَابَةِ أَبُو هَاشِمٍ، وَقُبِضَ عَلَى أَرْبَعَةٍ آخَرِينَ...

إِلَى هَذَا الْحَدِّ كَانَتِ الثَّقَّةُ فِي الْبُولِيسِ مُتَدَهَوْرَةً، وَإِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ قَبِلَ الْبُولِيسُ عَدَمَ ثِقَّةِ النَّاسِ فِيهِ، وَسَلَّمَ قِيَادَةَ قُوَّاتِهِ لَامْرَأَةٍ تَطْلُبُ ثَأْرًا، وَلَا تَسْعَى لِعَدْلِ -بِالْمَفْهُومِ الْقَانُونِيِّ-، وَرَبَّمَا كَانَ الْأَصَحُّ فِي كُلِّ هَذَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْبُولِيسَ نَفْسَهُ كَانَ قَدْ فَقَدَ الثَّقَّةَ بِنَفْسِهِ، وَبِالنِّظَامِ الَّذِي يَخْدُمُهُ!

وَقَدْ انْتَهَى هَذَا كُلُّهُ بِأَقْسَى ضَرْبَةٍ وُجِّهَتْ إِلَى النِّظَامِ الْقَدِيمِ عَشِيَّةَ سُقُوطِهِ، وَهِيَ إِضْرَابُ صُبَّاطِ الْبُولِيسِ، الَّذِي بَدَأَ مَحْدُودًا فِي نَهَايَةِ عَامِ 1947، وَعَمَدَتِ زُرَّاءُ الثُّقَرَاثِيِّ بَعْدَ انْتِهَاءِ هَذَا الْإِضْرَابِ الْمَحْدُودِ إِلَى تَشْتِيتِ قَادَتِهِ، وَتَبَاطُاتٍ فِي تَنْفِيزِ مَطَالِبِ الصُّبَّاطِ، يَرْفَعُ أَجُورَهُمْ؛ وَهُوَ مَا أَذَّى إِلَى تَجَدُّدِ الْإِضْرَابِ -مُوسَّعًا- مَرَّةً أُخْرَى فِي رَبِيعِ 1948؛ لِتَاكِيدِ الْمَطَالِبِ الَّتِي رَفَعُوها بِزِيَادَةِ مُرْتَبَاتِهِمْ، وَإِعَادَةِ زُمْلَانِهِمِ الْمَنْقُولِينَ، وَقَدْ شَمِلَ هَذَا الْإِضْرَابُ جَمِيعَ الصُّبَّاطِ، مَا عَدَا صُبَّاطَ الْقِسْمِ السِّيَاسِيِّ، الَّذِي لَمْ يَجْرُؤُوا عَلَى الْإِقْتِرَابِ مِنْ مَقَرِّهِ بِنَادِي صُبَّاطِ الْبُولِيسِ؛ لِكِرَاهِيَةِ جَمِيعِ الصُّبَّاطِ لَهُمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ لَشَأْنِهِمْ.

وَخَرَجَ جُنُودُ الْبُولِيسِ يَتَظَاهَرُونَ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمُ الطُّلُبَةُ وَالْعُمَّالُ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ الْمَالُوفُ أَنْ يُوَاخِجَ جُنُودَ الْبُولِيسِ الطُّلُبَةَ بِالرِّصَاصِ عِنْدَمَا يَتَظَاهَرُونَ؛ سَارَ الْجَمِيعُ فِي مُظَاهَرَةٍ وَاحِدَةٍ تُعْلِنُ تَأْيِيدَ الشَّعْبِ كُلِّهِ لِمَطَالِبِ الْجُنُودِ وَالصُّبَّاطِ!

وَكَانَ أَغْرَبَ مَا فِي هَذِهِ الْمُظَاهَرَةِ أَنْ الْمُتَظَاهِرِينَ مِنَ الْجُنُودِ كَانُوا يَحْمِلُونَ عَصِيَّهِمُ الشَّهِيرَةَ (أَدَاةُ تَشْتِيتِ الْمُظَاهَرَاتِ) وَقَدْ رَفَعُوهَا لِأَعْلَى بِالْأَرِغَقَةِ، لِيَكُونَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ شَعَارُ الْإِضْرَابِ!

وَكَانَ هَذَا الْإِضْرَابُ هُوَ الْإِنْفِجَارُ الْحَادُّ لِلتَّنَاقُضَاتِ دَاخِلَ جِهَازِ الدَّوْلَةِ، الَّذِي كَانَ قَدْ أَتَخَنَ بِالْجُرُوحِ حَتَّى فِي أَجْهَزَتِهِ الَّتِي اصْطَفَاهَا وَرَبَّاهَا وَعَدَّاهَا لِتَقْوَمَ بِقَهْرِ الْجَمَاهِيرِ، فَزَعَتِ عَصِيَّهَا تَطْلُبُ الرِّغْفَ!

وَالْوَاقِعُ أَنَّ مَعَارِكَ أَوْلَادِ اللَّيْلِ ضِدَّ الْبُولِيسِ -بِمَا كَشَفَتْ عَنْهُ مِنْ نَتَائِجِ- تَطَرَّحَتْ عَلَى الْفُورِ تَسَاؤُلًا هَامًا وَأَسَاسِيًّا حَوْلَ طَبِيعَةِ «الْمَرْكَزِيَّةِ» الَّتِي أُعْطِيَتْ الدَّوْلَةُ هَيْمَتُهَا الرَّهْبِيَّةَ عَلَى النَّفْسِ الْمَصْرِيَّةِ، فَالْمُتَوَاتِرُ عِلْمِيًّا أَنَّ نَهْرَ الْبَيْلِ بِسَبَبِ طَبِيعَتِهِ كَمَصْدَرٍ لِلرِّيّ الصَّنَاعِيِّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى شَبَكَةٍ هَائِلَةٍ مِنْ الْقَنَوَاتِ وَالشَّرْعِ وَالْمَصَارِفِ؛ فَقَدْ اسْتَتَبَعَهَا نُشُوءُ سُلْطَةٍ مَرْكَزِيَّةٍ قَوِيَّةٍ وَثَقِيلَةٍ

الوَطْءِ لِحِمَايَةِ هَذِهِ الشَّبَكَةِ الْأَخْطَبُوطِيَّةِ، وَهُوَ مَا انْتَهَى إِلَى إِنْ أَصْبَحَ لِلدَّوْلَةِ -أَوْ «الحكومة»- نُفُودٌ وَاسِعٌ وَقَوِيٌّ، أَيًّا كَانَ شَكْلُهُ، وَأَيًّا كَانَ حَظُّ الْأَسْلُوبِ الَّذِي تَحْكُمُ بِهِ مَنْ رَضِيَ الْمَحْكُومِينَ أَوْ قَبُولِهِمْ.

والاهتزاز الذي تَعَرَّضَتْ لَهُ السُّلْطَةُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ مِنْ مُجَرَّدِ اضْطِرَابَاتٍ أَخَذَتْهَا عَدَدٌ مِنْ أَوْلَادِ اللَّيْلِ، يَطْرُحُ نَتِيجَةً مُخْتَلِفَةً لِهَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ الصَّحِيحَةِ؛ فَالتَّخَاذُلُ وَالْقَسْلُ الْكَامِلُ يُؤَكِّدُ أَنَّ قُوَّةَ وَهَيْمَتَهُ هَذِهِ الدَّلَالَةُ هِيَ قُوَّةُ نَفْسِيَّةٍ أَكْثَرُ مِنْهَا فِعْلِيَّةٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَانَتْ قَدْ اسْتَنَامَتْ لِزَهَبَتِهَا التَّارِيخِيَّةِ فِي النُّفُوسِ، فَفُوجِئَتْ بِهَذِهِ الْمُقَاوَمَةِ الَّتِي شَتَّاهَا عَدَدٌ مَحْدُودٌ مِنْ أَوْلَادِ اللَّيْلِ، كَانُوا بِالْفِعْلِ يَحْكُمُونَ الصَّعِيدَ، بِرَغْمِ أَنْفِ الْحُكُومَةِ الرَّسْمِيَّةِ، وَ«عَلَى عَيْنِكَ يَا تاجر»!

وَمِمَّا يَلْفُتُ النَّظَرَ أَيْضًا أَنْ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَشْقِيَاءِ لَمْ يَسْقُطْ إِلَّا بِمَعُونَةٍ مِنْ دَاخِلِ صُفُوفِهِ، وَيَنْدُرُ أَنْ نَجِدَ مِنْ بَيْنِهِمْ أَحَدًا اسْتَطَاعَتْ رِصَاصَاتُ الْبُولِيسِ أَنْ تُرْدِيَهُ.

وهنا يَبْرُزُ الدَّوْرُ الْخَاصُّ الَّذِي لَعِبَهُ الْعُمَدُ وَالْمَشَايخُ فِي حِمَايَةِ أَوْلَادِ اللَّيْلِ وَتَأْكِيدِ سُلْطَتِهِمْ، ثُمَّ فِي إِسْقَاطِهِمْ، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ.

وَالْوَقْعُ أَنَّ الْعُمَدَ وَالْمَشَايخَ -الَّذِينَ يُشْتَرَطُ فِي تَوَلِّيَتِهِمْ لِهَذِهِ الْمِهْنَةِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ نِصَابٌ مُعَيَّنٌ مِنَ الْمِلْكِيَّةِ الزَّرَاعِيَّةِ- كَانُوا جُزْءًا مِنَ الْقَوَى الْمُسَيِّطَةِ فِي الزَّرِيفِ، وَكَانَ تَحَالُفُهُمْ مَعَ أَوْلَادِ اللَّيْلِ وَحِمَايَتُهُمْ لَهُمْ هُوَ جُزْءٌ مِنْ تَنْفِيزِ لِمَطْلَبِ الْأَعْيَانِ، وَتَطْبِيقِ لِسَعْيِ كِبَارِ الْمُلَاكِ لِتَكْوِينِ جُيُوشٍ غَيْرِ قَانُونِيَّةٍ تَنْتَقِمُ لَهُمْ مِنْ مُنَافِسِيهِمْ، وَتُسَاعِدُهُمْ ضِدَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِسِينَ، وَهَكَذَا كَانُوا أَوْلَادِ اللَّيْلِ وَدِيعَةً أَمِينَةً، تَرَكَهَا الْأَعْيَانُ فِي يَدِ الْمَشَايخِ وَالْعُمَدِ!

غَيْرَ أَنَّ طَبِيعَةَ عَمَلِهِمْ -كَجُزٍّ مِنْ جِهَازِ الدَّوْلَةِ الْبُولِيسِيِّ- سَهَّلَتْ لَهُمْ دَائِمًا تَقْدِيمَ خَدَمَاتٍ فَعَّالَةٍ لِأَوْلَادِ اللَّيْلِ، وَعَلَى رَأْسِهَا: إِخْفَاؤُهُمْ، وَتَحْذِيرُهُمْ مِنَ الْهَجَمَاتِ الْمُفَاجِئَةِ، ثُمَّ إِنَّهَا فِي النِّهَايَةِ كَانَتْ قُطْبَ الْتِنَاقُضِ الْآخِرِ، الَّذِي يَقُودُ هَؤُلَاءِ الْعُمَدُ وَالْمَشَايخُ إِلَى تَسْلِيمِ أَوْلَادِ اللَّيْلِ وَالتَّخْلِى عَنْهُمْ عِنْدَمَا يَفْقِدُونَ قُوَّتَهُمُ الْفِعْلِيَّةَ، أَوْ تَنْتَهِي الْخَدَمَاتُ الَّتِي يُؤَدُّونَهَا لِكِبَارِ الْمُلَاكِ، أَوْ يَتَجَاوَزُونَ مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُمْ.

وهكذا سَلَّمَ شَيْخُ مَوْشَا عَوَّادَ، وَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يُسَلَّمَ عُمَدُهُ جَحْدَمَ الْخُطْ...

ويبدو أَنَّهُ كَانَ مُقَدَّرًا لِحَيَاةِ الْخُطِّ الْعَنِيفَةِ الْعَاصِفَةِ أَنْ تَبْدَأَ بِشَيْخِ خُفْرَاءِ، وَأَنْ تَنْتَهِيَ بِعُمَدَةِ!

بدأ الفصل الأخير في حياة الخطّ بصوت تَفير سَيَّارةٍ وَصَلَ إلى سَمع محمد هلال، الذي كَانَ يَتَجَرَّعُ الإحساسَ بالخَيبة؛ لَأَنَّهُ خَرَجَ من «المولد بلا حُطّ»! وخرج لِيَجِدَ اللّواء عبد الحق الرفاعي مأمور منفلوط وقتها.. كان اليومُ أَحَدَ الأَيَّام العَشْرة الأخيرة من رمضان، وَشَعَرَ المأمورُ أَن ضابطَه مَأزومٌ؛ فَطَلَبَ منه أَن يُرِيحَ نَفْسَه في إِجازةٍ قصيرة، وَخَرَجَا مَعًا إلى سَيَّارةِ المركز، التي انطَلَقَت بهما في طريقها إلى منفلوط.

قُبِيلَ الغُروب بِقَلِيلٍ مَرَّت السَيَّارةُ بِقريةٍ على حافة الصحراء، وقال السَّائِقُ -ليسلي صيامه فيما يبدو:-

- يا سعادة البيه «دي جَحدَم»...

وكانت الكلمة بدايةً لآخرِ مُغامرات محمد هلال...

بعد تَفَاهُهم قصير مع المأمورِ إِنَحَرَّتِ السَيَّارةُ إلى جَحدَم، إلى القرية التي تَضُمُّ حَمْدِي خليفة، حليف الخطّ، وحاميه، والتي تَضُمُّ أيضًا وابور مالطي؛ مَقَرَّه الحصين، وَغُشَّ غَرايمه: حميدة...

كان النَّاسُ في شوارع القرية يَسْتَنِيمُونَ لِلحِظَاتِ السَّابِقِ لِلطَّعام التي تَسْبِقُ أَذانَ الإفطار، وَوَقَّعت السَيَّارةُ أمام دَوَّارِ العُمْدَة، الذي كان جالِسًا وسطَ مَجْموعَةٍ من أعيان البلد وشيوخها، وَرجالِها الطَّاعِنين في السَّن، وقد جلسوا على دِكْكٍ مَفْرُوشَةٍ بِشَرائطٍ من الصُّوف، يَغْلُبُ عليه اللونُ الأحمر والأصفر، وقد أَمْسَكُوا بِمَسَاجِهم يُتِمِّتُونَ بِذِكرِ الله.

وهَبَّ الجَمِيعُ واقفين، وسارَعَ العُمْدَةُ وَرَحَّبَ بالمأمور، وَقادَه هو ومُرافقُه إلى داخل الدَّار، وعلى الفور بدأ تَنفيذُ الخُطة.

كان العُمْدَةُ مُنْهَمِكًا في التَّرحيب بالمأمور الذي أَشْعَلَ سيجارَتَه مع أَذان المغرب، وحاول العُمْدَة -مُنافقًا- أَن يَلْفِتَ نَظْرَه إلى أَيْنٍ «شُرِب الدُّخان على الرِّبْق» مُضِرٌّ، فلم يَلْتَفِتْ إليه، وَرَقَصَ كُوبَ الكَرَكديه الذي قَدَّمَه إليه، بِأَنْفَةٍ...

وكانت الخُطة التي اتَّفَقَ عليها الصَّائِطان تَقُومُ على أَن يأخذا الموضوع بِجَدِّيَّة تامَّة، وَأَن يُعامِلَا العُمْدَة مُعامَلَةً رَسميَّة: يرفضُ طَعامَه وَتَرحيباتِه، وَيُعامِلُاهُ بِاعتبارِه عُمْدَةً يُخفي مُجرِمًا وَيَتَّحالفُ معه ضِدَّ البوليس، الذي يَعْمَلُ به كَواجِدٍ من حَفَظَةِ الأمن، وسارَت الخُطةُ كما رُتِّبَت.

دَهَبَ العُمْدَة إلى دار الحريم -المُواجهَة للدَّوَّار- وعاد وَخَلَفَه شابٌّ يَحْمِلُ عددًا من الصَّواني، وبدأ يَعزُمُ على ضيوفه، الذين رَقَضُوا بِعَجَرَفَةٍ وَكِبَرياء، وَلِفترةٍ طَلَّ العُمْدَة أَن أَصناف الطَّعام المُقَدَّمة لم تعجب «الْبهوات»، وأخيرًا وَضِعَتِ النقطُ على الجُروف؛ انفَجَرَ فيه الصَّائِطُ المُرافِقُ للمأمور -والذي لم يَكُن يَعرفه حتَّى تلك اللَّحظة- قائِلًا:

- اسمع يا عُمدة.. لم تحضر هنا لنأكل، فالأكل في كل مكان، والذي يصوم للمغرب يقدر أن يصوم للعشاء، ونحن في طريقنا إلى بلاد أخرى، ثم إلى المركز، وسنجد في كل مكان طعامًا نعرف مصدره على الأقل، طعامًا حلالًا، شريفًا، يمكن أن يكون أنظف من طعامك.. اعتبر نفسك من رجال الأمن فقط، وتحن الآن لسننا في منزلك، وإنما في منزل الحكومة ومضيفتها... وتدخل المأمور على الفور مُكملاً:

- يا عُمدة.. اعتبر نفسك من الأهالي، وأن لا سلطة لك ولا سلطان عليهم، وأنت إنسان عادي مُتهم أمامنا أنك خنت وظيفتك، وأنت تأوي مجرمًا وتخفيه بعيدًا عن الحكومة...

والتفت المأمور إلى محمد هلال أمراً:

- يا حضرة الضابط، اكتب فوراً تقريراً يطلب إيقاف العُمدة، وسوف أرفعه للباشا المدير الليلية، وعليك أنت أن تنتظر هنا، وسأرسل لك القوة اللازمة للمحافظة على الأمن... يظهر أن هذه البلد يجب حُكمها بالسَّياط!

وانهار العُمدة تماماً... اقترب من المأمور مُتكس الرأس، وطلب منه أن يخبره بسبب هذا الإجراء، وما هي الجريمة التي ارتكبها، وما سِرُّ هذه الأزمة التي لا يفهم عنها شيئاً؟ فقال المأمور:

- الخطأ!

وأقسم العُمدة أنه لا يعرف عنه شيئاً، وقال إن الخطأ من بلد آخر غير جحدم، ولو كان في بلده لاختل الأمن، لكن «الأمن في بلدنا أربعة وعشرين قيراط...»

قال المأمور:

- خلاص يا عُمدة... اكتب التقرير دلوقت يا حضرة الضابط...

وبدأ العُمدة يُغلق باب الحقيقة حتى لا يراه الناس، وكانت فترة كافية لكي يتفق الضابطان على تعديل الخطأ، والاكتفاء بأخذ العهد على العُمدة بأن يُساعد في صَبط الخطأ، باعتبار أن هذا أقصى ما يمكن الحصول عليه منه...

وهكذا أقسم الثلاثة على المصحف أن يتعاونوا معاً في صَبط الخطأ...

وقبل العُمدة الحل سعيداً به، وبعد القسم أكل الضابط والمأمور، ثم اقترح الضابط بعد الإفطار أن يصطحبه العُمدة لزيارة وابور مالطي... واتسعت عين العُمدة خوفاً، وكان أحد أبنائه ساعته يحمل صينية الإفطار من أمام الصيقيين، وقال العُمدة بصوت عالٍ:

- عايز تزور وابور مالطي؟ وماله.. نزوره...

- دلوقت.

- أمرك...

وألقى ابنُ العُمدة صينيةَ الطعام في منزله، وقَفَرَ فوق ظهرِ حمارِه سريعا، وانطلق إلى وابور مالطي ليحذر الخط...

وخرَج الصَّايطُ راكبا حمارَه وأمامه العُمدة، وما أن دخل الجماران زمامَ البحر الأخضر حتى أخرج الصَّايطُ بُندقِيته ووضَعها في ظهرِ العُمدة، وهَدَدَه بأنه سيطلقُ عليه الرصاصَ فوراً عند أول حركةٍ منه، أيّا كانت، ولأيّ سبب!

وبدأ الرَّجلان طريقَ «الرَّجل الواحد»، وأصبع الصَّايط على زنادِ بُندقِيته، مُستَعِدّا في أيّ لحظةٍ لإفراغ إحدى عشرة رصاصةً في ثايّة واحدة.

وانتهى بهما الطريق الخانيق إلى ساحةٍ واسعةٍ تُحاصِرُها عيدانُ الدُّرة من كلّ جانب، ويربُضُ فيها بناءٌ عتيقٌ، ينبعثُ منه ضوءٌ خافتٌ يتراقصُ في ظلامِ الليل... هذا هو وابور مالطي!

وفي سُرعةٍ خاطفةٍ ترك الصَّايطُ ظهرَ الحمار، وجرى إلى حمارِ العُمدة فأوقفه هامسا به أن ينزل صامتا، وبمجرد نزوله تَأَبَّط ذراعَه اليمنى، بحيث أصبح مُلاصقا تماما له...

كان بابُ الوابور مُواربا، وفي سُرعةٍ مُفاجئةٍ خَلَعَ هلال أفندي ذراعَه من ذراعِ العُمدة، ودَخَلَ وأغلق الباب، تاركا العُمدة في الخارج، وإستطاع أن يلمحَ السِّلَمَ الحلزونِيّ الذي يُؤدِّي إلى الدَّور الثالث، برغمِ الظلام، وفي خِفةٍ وسُرعةٍ كان على قِمَّتِه...

في صالة الدَّور الثاني، وعلى ضوءِ لَمَبَةٍ جاز ريفيّةٍ لَمَحَ ثَلَاثَةُ رجال وامرأة، رَفَعَ بُندقِيته مُهدِّدا كلَّ مَنْ يتحرَّك، وفي ثايّة تَبَيَّنَ ملامِحُ أحدِ الرِّجالِ الثلاثة؛ كان شابا أصفرَ الشعر، ذهبيَّ الشَّارب، أزرق العيَّين... وبسرعةٍ خاطفةٍ انقضَّ عليه وعرَّسَ أصابعه العشرة في عُنُقِه...

وكانت اللّحظاتُ الثَّالِيَةُ غَريبةً؛ ذلك أن أصابعه على رَقَبَةِ الخطِّ كانت قد أصبَحَت لا تتلقَّى أوامرَها من رأسه، ووجهُ الشابِّ يكتسي بِصُفْرَةِ المَوْتِ، وارتَفَعَ صَوْتُ ضُراخِ نِسائيٍّ كالرَّعد:

- جالاي يا ولاد... إلحجوا ابن العُمدة...

وانفلتَ أحدُ الرِّجلَيْنِ الآخَرَيْنِ هاربا، وفي هُروبه قَتَحَ بابَ الوابور، الذي كان الصَّايطُ قد أغلقه تاركا العُمدة في العراء، وتعلّق الرَّجلُ الباقي بِذراعِ هلال أفندي؛ يُحاولُ تَخْلِيصَ رَقَبَةِ الشابِّ من بين أصابعه، وصَعَدَ حمدي خليفة مُرتاعا، ورنَّ أكثرُ من صوتٍ في أذنِ الأصابعِ المُتَشَجَّة؛ فَخَفَّ تَشَجُّجُها!

كان الشابُّ هو ابنُ عُمْدَةٍ جَـحْدَم، وكان يُشَبِّهُ الخُطَّاءَ في مَلامِحِهِ
الإِجْرامِيَّة!

وجلسَ الجَمِيعُ يَسْتَرِيحُونَ من تَوَثُّرِ اللَّحْظَاتِ السَّابِقَةِ، وَبَيْنَمَا كانَ الخَفِيرُ
مَدْبُولِي يُدَلِّكُ رَقَبَةَ ابنِ العُمْدَةِ قَامَتِ حَمِيدَةٌ لِتَصْنَعَ الشَّاي... وعندما أَقْبَلَتِ
بالشَّاي تَفَحَّصَهَا الصَّابِطُ... نعم؛ إِنَّهَا دَمِيمَةٌ، عَجَفَاءُ كَالْمَعْرَةِ، وَلَكِنَّهَا -بِلا جِدَالٍ-
امْرَأَةٌ عَاشِقَةٌ، أَلَا إِنَّ نَظْرَةَ وَاحِدَةٍ إِلَيْهَا تَكْفِي لِصَبْطِ أَدَلَةِ العِشْقِ فِيهَا. كانتِ
مُهِيَّاءَ بِزِينَتِهَا كَأَنَّهَا عَرُوسٌ: كَحَلَّتْ عَيْنُهَا بِطَرِيقَةٍ يَعْتَبِرُهَا الكَثِيرُونَ فِي الصَّعِيدِ
لَا تَلِيقُ إِلَّا بِالسَّاقِطَاتِ مِنَ النِّسَاءِ، وَكانتِ عُصْبَةُ رَأْسِهَا حُمْراءَ، مَائِلَةً عَلَى
جَبِينِهَا، وَشَعْرُهَا نَظِيفًا يَلْمَعُ من كَثَرَةِ تَنْظِيفِهِ بِالْجَارِ، وَكانتِ تَلْبَسُ «شَبِشَبًا»
وَكَعْبُ رِجْلِهَا يَبْدُو مِنْهُ نَظِيفًا من كَثَرَةِ حَكِّهِ بِالْحَجَرِ وَغَسْلِهِ بِالماءِ؛ وَهذه
عَلَامَاتٌ لَا تَخِيبُ عَلَى أَنَّهَا عَاشِقَةٌ...

وبَيْنَمَا هُم يَشْرَبُونَ الشَّايَ كانَ الخُطَّاءُ واقِفًا وراءَ مَبْنَى الوابورِ، وَمَعَهُ
بُنْدُوقِيَّةُ الخَفِيرِ، كانَ قد قَرَّرَ أَنْ يَقْتُلَ الصَّابِطَ بِمَجَرَّدِ أَنْ جَاءَتْهُ إِخْبَارِيَّةُ العُمْدَةِ
بأنَّهُ قد قَرَّرَ زِيَارَةَ الوابورِ، وَتَرَصَّدَهُ خَلْفَ المَبْنَى لِيَصِيدَهُ بِالرَّصَاصِ عِنْدَمَا
يَصِلُ إِلَى بابِهِ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ الخَفِيرُ مَدْبُولِي فَيَعْتَرِفُ بِأنَّهُ القَاتِلُ، وَيُبْرِزُ فِعْلَتَهُ بِأَنَّهُ
ظَنَّ القَادِمَ لِيَصَّا أَرَادَ أَنْ يَسْرِقَ شَيْئًا من أَدْوَاتِ الوابورِ... وَقَشَلَتِ الخُطَّةُ
لِسَبَبٍ وَاحِدٍ: هُوَ هَذِهِ الذَّرَاعُ الَّتِي تَأْبِطُ بِهَا الصَّابِطُ ذِرَاعَ العُمْدَةِ مُلتَصِقًا بِهِ؛
فقد خَشِيَ الخُطَّاءُ أَنْ يَتَحَرَّكَ حَرَكَةً مُفَاجِئَةً فَتُصِيبَ الرَّصَاصَةُ خَلِيفَهُ عُمْدَةً
جَـحْدَم.

وحتى هذه اللَّحْظَةُ، وَبَرغمِ قَسَمِ المُصَحِّفِ المُغْلَطِ، فَإِنَّ عُمْدَةَ جَـحْدَمَ لَمْ
يَكُنْ قد قَرَّرَ بَعْدُ أَنْ يُسَلِّمَ الخُطَّاءَ، بِالْعَكْسِ من ذَلِكَ؛ إِنَّهُ قد تَأَمَّرَ مَعَهُ عَلَى حَيَاةِ
الصَّابِطِ، وَيَبْدُو أَنْ قَشَلَ الخُطَّاءُ فِي اغْتِيالِ الصَّابِطِ قد حَطَّ مِنْ شَأْنِهِ أَمَامَ
خَلِيفِهِ...

وَكانَ وَضْعُ الخُطَّاءِ قد تَأَزَّمَ تَمَامًا؛ لَقَدْ أَفْقَدَهُ الحِصَارُ كُلَّ مَوَارِدِهِ، وَتَبَدَّدَتِ
العِصَابَةُ تَحْتَ التُّرَابِ قَتْلَى، أَوْ وَرَاءَ الأَسْوَارِ مَسْجُونِينَ، وَقَفَدَ حُبَّ النَّاسِ، بَعْدَ
أَنْ طَاشَ رِصَاصُهُ قَتَلَ الأَبْرِيَاءَ وَالضُّعَفَاءَ وَمَنْ لَا يَعْرِفُهُمْ، أَصْبَحَ وَحِيدًا
وَضَعِيفًا: وَحِشًا حَبِيسًا فِي وَابورِ مالِطِي.

وَإِذَا نَ فَلَماذا لَا يُسَلِّمُهُ؟ إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ مُفِيدًا، وَقَدْ يَكُونُ مُضِرًّا...

لَحِظَتْهَا قَرَّرَ حَمْدِي خَلِيفَةُ أَنْ يَعْتَرِفَ بِالحَقِيقَةِ كَامِلَةً، وَتَوَجَّهَ فَقَابَلَ مُحَمَّدَ
هَلالَ، وَاعْتَرَفَ لَهُ اعْتِرَافًا صَرِيحًا بِأنَّهُ يَعْرِفُ الخُطَّاءَ، وَأَنَّهُ يَأُوبِهِ وَيَحْمِيهِ، وَلَمْ
يُنَاقِشْ الصَّابِطَ مَا مَضَى. قالَ:

- اللَّي فَات مَات.. واحنا ولاد النَّهَارَدَه.. وعلى الْعُموم كَوَيْس إِنَّكَ تعرفه؛ ده يَسْهَلْ لَنَا حاجَات كَثير.

وَأَوَمَّا الْعُمْدَةُ مُوَافِقًا، وَقَالَ إِنَّ لَدِيهِ خُطَّةً لِلإِيقَاعِ بِالْخُطِّ، وَمَا كَادَ يَشْرُحُهَا حَتَّى اكْتَشَفَ الصَّابِطُ أَنَّ الْعُمْدَةَ لَمْ يَأْتِ بِمَشْرُوعٍ لِلْمُنَاقَشَةِ، وَلَكِنْ بِخُطَّةٍ كَامِلَةٍ، مَدْرُوسَةٍ بِدَقَّةٍ، بَلْ وَبَدَأَ بِالْفِعْلِ فِي تَنْفِيزِ بَعْضِ خُطَوَاتِهَا.

وَنَاقَشَ هَلَالَ أَفْنَدِي الْعُمْدَةَ فِي كُلِّ التَّفَاصِيلِ، ثُمَّ عَرَّضَ الْخُطَّةَ عَلَى مَأْمُورٍ مَنفْلُوطٍ، فَعَدَّلَ فِيهَا بَعْضَ الشَّيْءِ، وَبَدَأَ التَّنْفِيزَ...

ذَهَبَ عُمْدَةُ جَحْدَمٍ إِلَى الْخُطِّ فِي وَلِبُورٍ مَالِطِيٍّ، وَدَاعَبَ فِيهِ تَوَازَعَ الْحَاجَةِ، هُوَ الَّذِي تَدَهَوَّرَتْ حَالَتُهُ الْمَالِيَّةُ لِقِلَّةٍ مَا لَدِيهِ مِنْ عَمَلِيَّاتٍ، وَحَرَّضَهُ عَلَى خَطْفِ صَبِيٍّ صَغِيرٍ اسْمُهُ «شَوْقِي عَوْض»، وَوَعَدَهُ بِأَنْ يَتَوَسَّطَ لَهُ عِنْدَ أَهْلِ الصَّبِيِّ لِلْخُصُولِ عَلَى فِدْيَةٍ كَبِيرَةٍ، وَوَاقَقَ الْخُطَّ؛ كَانَ جَائِعًا لِلْمَالِ بِشَكْلِ لَمْ يَحْدُثْ لَهُ إِلَّا أَيَّامٌ كَانَ يَعْمَلُ صَيَّادًا لِلسَّمَكِ...

وَرَتَّبَ الْعُمْدَةُ أُمُورَهُ مَعَ شَقِيقِ الطِّفْلِ الْأَكْبَرِ، قَبْلَ الشَّقِيقِ أَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ وَشَقِيقَهُ لِهَذِهِ الْمُخَاطَرَةِ، وَأَطْلَقَ الطِّفْلَ وَسَطَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ، وَالتَّقَطَّهُ الْخُطَّ، وَطَلَّبَ الْخُطَّ مِنَ الْعُمْدَةِ مَا يُتَّى جَنِيهِ فِدْيَةً، وَعَادَ حَمْدِي خَلِيفَةً يَقُولُ إِنَّ أَهْلَ الطِّفْلِ لَا يَمْلِكُونَ سِوَى مَائَةٍ وَخَمْسِينَ فَقَطْ، وَقَبْلَ الْخُطِّ الْمُخَاطَرَةِ، وَأَطْلَقَ الطِّفْلَ وَسَطَ الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ، وَالتَّقَطَّهُ الْخُطَّ، وَطَلَّبَ الْخُطَّ مِنَ الْعُمْدَةِ مَا يُتَّى جَنِيهِ فِدْيَةً، وَعَادَ حَمْدِي خَلِيفَةً يَقُولُ إِنَّ أَهْلَ الطِّفْلِ لَا يَمْلِكُونَ سِوَى مَائَةٍ وَخَمْسِينَ فَقَطْ، وَقَبْلَ الْخُطِّ، وَتَحَدَّدَتِ سَاعَةُ الْاسْتِلامِ!

وَحِفَاطًا عَلَى أَمَانِ الطِّفْلِ فَإِنْ فِي الْفَتْرَةِ الَّتِي قَضَاهَا فِي وَابُورٍ مَالِطِيٍّ كَانَ فِي حِرَاسَةِ أَبْنَاءِ الْعُمْدَةِ، الَّذِينَ انْتَقَلُوا لِلْإِقَامَةِ فِي الْوَابُورِ لِهَذَا الْعَرَضِ.

وَجَاءَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ 8 أَغُسْطُسَ 1947...

لِيلَتِهَا تَسَلَّلَتْ فِرْقَةُ الْمَوْتِ بِكَامِلِ أَفْرَادِهَا إِلَى الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ، وَقَبَعَ رِجَالُهَا كَالْمَوْتَى الْأَحْيَاءِ فِي قَلْبِ الدَّرَّةِ.

وَمَا أَنْ جَاءَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ حَتَّى سَمِعَ الرِّجَالُ دَوِيَّ إِحْدَى عَشْرَةِ رَصَاصَةٍ، ثُمَّ ظَهَرَتْ أَقْدَامُ رَجُلَيْنِ، فَتَحَتَ عَلَيْهِمَا الْقُوَّةُ نِيرَانُهَا، وَحَوَّلَتْ جَسَدَيْهِمَا إِلَى مَزْرَعَةٍ لِلرَّصَاصِ!

وَأَعْلَنَ حَمْدِي خَلِيفَةً أَنَّ الْخُطَّ هُوَ الَّذِي مَاتَ، وَجَاءَتْ «خَالَتِي فَصَّة» وَقَالَتْ كَلِمَتَهَا الْفَاصِلَةَ...

الفصل الثاني عشر

بعد السقوط

كان سقوط الخُطِّ هو بداية النهاية لدولة أولاد الليل.

فعلى امتداد السَّنوات القليلة النَّالِيَةِ سَقَطَ مُعْظَمُهُمْ في يد البوليس: قتلى أو مُعْتَقِلِينَ، وكان قَحْطُ الْحَيَاةِ فِي الصَّعِيدِ قَدْ خَفَّ قَلِيلًا بَعْدَ الثَّوْرَةِ، كَمَا أَنَّ قُوَّاتِ الْأَمْنِ قَدْ دُعِّمَتْ هُنَاكَ، وَهَكَذَا انْتَهَتْ تَدْرِيجِيًّا سُلْطَةُ أَبْنَاءِ اللَّيْلِ إِلَى أَنْ أَصْبَحَتْ مِنَ الظُّوَاهِرِ النَّادِرَةِ الَّتِي لَا تَحْدُثُ إِلَّا مَرَّةً كُلَّ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ.

وكانت مُحتَوِيَّاتِ جِوِبِ الخُطِّ غَرِيبَةً كَحَيَاتِهِ الْعَاصِفَةِ، الَّتِي لَمْ تَتَجَاوَزْ ثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ عَامًا، لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ؛ وَجَدُوا فِي جَبِيهِ سِتِّينَ قَرَشًا فَقَطْ، وَمُصْحَفًا عَلَيْهِ اسْمُهُ، وَسَاعَةٌ، وَثَلَاثَةُ أَحْجَبَةٍ، وَصُورًا فُوتُوغْرَافِيَّةً لِفَتَاةٍ فِي زِيٍّ غُرْسِيهَا، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا اسْمُهَا، وَهُوَ «عَايِدَةُ رِيَاضُ دُوس»، مِنْ الْمِنْيَا-وإِمْسَاكِيَّةٍ شَهْرَ رَمَضَانَ. كَانَ الخُطُّ مُتَدَيِّنًا غَمِيقَ النَّدَى؛ كَانَ يُصَلِّي وَيَصُومُ، وَيَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ دَائِمًا لِمَقَامِ سَيِّدِي «الشَّيْخِ بَخِيْت»، وَكَانَتْ الْأَحْجَبَةُ هِيَ بَعْضُ هَدَايَا عَشِيقَتِهِ حَمِيدَةَ؛ فَقَدْ أَقْنَعَتْهُ بِأَنْ يَحْمِلَ حِجَابًا ضِدَّ الرَّصَاصِ، وَاسْتَحْضَرَتْ لَهُ وَاحِدًا أَكْثَرَ أَنْ مَنْ يَحْمِلُهُ فِي جَبِيهِ لَا يَمُوتُ قَتِيلًا.

وَأَنْهَمَتْ «خَالَتِي فَصَّة» الْبُولِيسَ بِأَنَّهُ سَرَقَ الخُطَّ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَقَالَتْ لِلْأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ حَسَنِينَ هَيْكَلٍ (الَّذِي كَانَ الصَّحْفِيُّ الْوَحِيدَ الَّذِي قَابَلَهَا):

- أَيْنَ أَمْوَالُهُ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُ عِنْدَمَا ضَرَبُوهُ؟!

وَقَالَ لَهَا إِنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمَعْقُولِ أَنْ يَسْرِقَ الْبُولِيسُ الخُطَّ، فَقَالَتْ:

- سَرَقُوهُ.. وَحَيَاةِ الْمُصْحَفِ.. وَإِلَّا: أَيْنَ تَطَارَّتْهُ الْمُعْظَمَةُ؟!

وَوُثِّقَتْ الْجُنَّةُ إِلَى الْمَدِيرِيَّةِ لِاسْتِكْمَالِ التَّحْقِيقِ، وَأُنْهَمَ عُمْدَةُ حُجْدَمٍ بِقَتْلِ الخُطِّ، وَبَدَأَ يُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهِ بِاعْتِبَارِهِ كَانَ فِي حَالَةٍ «دِفَاعٍ شُرْعِيٍّ» عَنْ النَّفْسِ، وَخَاصَّةً بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ أَنَّ الرَّصَاصَاتِ الْإِحْدَى عَشْرَةَ الَّتِي أُطْلِقَتْ قَبْلَ أَنْ يَسْقُطَ الخُطُّ قَدْ اسْتَقَرَّتْ فِي جَسَدِ اثْنَيْنِ مِنْ أَقَارِبِ الطِّفْلِ الَّذِي اسْتُخْدِمَ كَطُعْمٍ لَهُ؛ فَقَدْ قَابَلَهُمَا صُدْقَةً، وَظَنَّ أَنَّهُمَا اللَّذَانِ يَحْمِلَانِ الْفِدْيَةَ، وَكَانَا خَالِيَّ الدَّهْنِ تَمَامًا عَنِ الْمَوْضُوعِ؛ فَاسْتَفَرَّهُ تَجَاهُلُهُمَا وَاسْتِهَانُهُمَا؛ فَأَفْرَغَ فِيهِمَا آخِرَ رِصَاصٍ لَهُ فِي الْحَيَاةِ!

وَأَصْرَّ الْبُولِيسُ عَلَى أَنْ يُدَشِّنَ انْتِصَارَهُ عَلَى الخُطِّ بِشَكْلِ لَا يَخْلُو مِنْ تَشَفٍّ، فَأَمَرَ «عَبَّاسُ بَكْ عَسْكَر» حَكِمْدَارَ أَسْيُوطَ بِإِعْدَادِ سَيَّارَةِ «لُورِي» مِنْ سَيَّارَاتِ الْبُولِيسِ، وَضَعَتْ فِيهَا الْجُنَّتَانِ (الْخَطَّ وَصَالِحِينَ)، وَمَعَهُمَا «خَالَتِي

فَصَّة» ورشيده (وكانت تحمل هاشم على ذراعيها)، وركبَ الحكمدار، ومعه عبد الحق الرفاعي مأمور منفلوط في سَيَّارَةٍ تَقَدَّمت «اللوري»، وخلفَ الموكبِ سَيَّارَةُ «لوري» كبيرة تَحْمِلُ فرقةَ المَوْتِ بِكُلِّ سلاحها.



المصري 10 أغسطس 1947

وسار الموكبُ في شوارع أسيوط الرئيسية، وميادينها الكبيرة، والناس يقفون على جانبي الطريق يشهدون زفافَ الخُطِّ للموت!

وانتقلت الجُثَّةُ إلى درنكة، وتصادفَ أن يكونَ يومُ مَوْتِ الخُطِّ هو يوم عيدِ العذراء، وكان أهالي النَّاحية -مسلمين وأقباطًا- قد تَجَمَّعوا حول الدَّيْبِ يحتفلون بالعيد، وكانت هُنَاكَ جُمُوعٌ لا حَصْرَ لها من أهالي البلادِ المُجاوِرة تَمَلًّا طُرُقَاتِ القرية، فشاركَت في جنازة الخُطِّ، وأُطلِقَت كثير من الأَغْيَرَةِ النَّارِيَّةِ فيها.

كانت جِنَارَةُ الخُطِّ قَحْمَةً كما يليقُ بِرَجُلٍ من رُعماءِ أولاد الليل، وليس المُهمُّ: هل هذا التَّجْمُّعُ يُعبِّرُ عن حُزنِ الفراق، أو تَشَفُّ في مَوْتِهِ؛ فهذه نُقْطَةٌ لا يُمكنُ الجَزْمُ بها بالدَّقَّةِ الواجِبَةِ.

خلف جُثَّتِهِ كانت «خالتي فصَّة» تُطَلِّقُ صُراخَهَا، مُنْعَمَةً تَشِيدُهَا الجَنائِزِيَّ في وِداعِ ابنِها:

- يا أزرق العيَّتين يا كايِد الحكومة يا محمد...
وأطبَقَ ظَلامُ القَبْرِ على الخُطِّ.

وكانت «خالتي فضة» قد أدلت بحديث للأستاذ محمد حسنين هيكل أكدت فيه أن الخُطَّ سيُسَلَّمُ نَفْسَه، وأنها تَصَحَّتْ بِذلك، إلا أنه كان يَخَافُ المَصِيرَ الذي لَقِيَه أخوه توفيق، بعد أن دَبَّرَ رجالُ البوليسِ مُؤامرةً للخَلاصِ منه، وقتلوه عندما لم يستطيعوا تقديم أدلةٍ للنِابةِ ضِدَّه!

وملأت أخبارُ الخُطِّ الصُّحُفَ. وما يَلِفُ النَّظَرَ فيها جميعًا أن رواية مَقْتَلِ الخُطِّ - كما دُكِرَتْ وقتها - تَخْتَلِفُ اخْتِلافًا جَوْهريًّا عَمَّا ذَكَرَه المُلَازِم محمد هلال بعد ذلك في مُذكراته؛ فالصُّحُفُ تَروي القِصَّةَ التي سَجَلَتْ أمامَ النِّابةِ وقتها، والتي تقول:

«وفي الصَّباح خرج الخُطُّ إلى رأس الطريق، ينتظر الفِدْيَةَ، فوجَدَ أخو الفتى المخطوف، فسألها - ولم يَكُن العُمدة قد أخبرها - قَطَنها مُؤامرةٌ عليه، وساقهما أمامه في حقل الدُّرة، ورآه راعٍ من الرُّعاةِ قَطارَ إلى عُمدة جحدم، فسارَعَ العُمدةُ إلى هناك ومعهم عَدَدٌ من أقاربه، وبينما هم في الطريق سمعوا الرِّصاصات التي أطلقها الخُطُّ على الأَخَوَيْنِ من على بُعْدٍ 800 متر فأرداهما قَتيلَيْن، ووصلوا إلى ناحيته، ثم أطلق الخُطُّ رِصاصَه فغاص العُمدةُ في حقل الدُّرة ومعهم أولاده وأقاربه، وانتظر الخُطُّ أن يَخْرُجوا من الناحية الأخرى من حقل الدُّرة، لكنهم لم يَخْرُجوا، بل كَمَنوا في الدُّرة، ثم أطلقوا هم عليه الرِّصاص...».

وتقول روايةٌ أخرى قَريبَةٌ من تلك الروايةِ إنه: «وبينما كان الخُطُّ يَقِفُ أمامَ العُمدةِ أطلق ابنُ العُمدةِ النَّارَ على الخُطِّ فسَقَطَ قَتيلًا، وأطلق العُمدةُ النَّارَ على رَميله صالحين فسقط يَتَخَبَّطُ في دَمِهِ».

وعلى أيِّ الأحوال، فإن الذي شاع وقتها أن العُمدة هو قاتِلُ الخُطِّ، وعلى هذا تَغَنَّتْ «الخالة فضة» في جِنَازةِ ابنها قاتِلَةً:

- يا اللَّيَّ كِدَتْ الحكومة.. وما طالَتْكَش يا محمد!

وبالطَّبع، فإنَّ التَّفْسيرَ الوحيدَ لهذا التناقُض هو أن البوليسِ آثر أن يتحمَّلَ عُمدة جحدم مسؤوليَّةَ دَمِ الخُطِّ وحده؛ باعتبار أنه قَتَلَه في حالة «دفاعٍ شرعيٍّ»، بعد أن كَثُرَ استخدامُ البوليسِ نَفْسَه لهذا التعبير لتبرير عَجْزِه عن الحُصولِ على مُتَّهَمين أحياء، وتقديمهم للقضاء، وتَفْضيله دائِمًا أن يَعِدِمَهم بِحُجَّةٍ أنه في حالة دفاعٍ شرعيٍّ.

وبرغم هذا، فإن البوليسِ لم يَسَلِّمْ من أَلْسِنَةِ الصُّحُفِ، وَعَلَّقَتْ جريدة «السواري» على التَّحقيق الذي يُجْرَى مع عُمدة جحدم لإثبات قَتْلِ الخُطِّ وهو في حالة دفاعٍ شرعيٍّ، فقالت إن الخُطَّ قد «قُتِلَ بِيدِ العُمدة وأقاربه بِطريقةٍ

تَنَاهَتْ فِي الْبَسَاطَةِ، بَعْدَ أَنْ دَوَّخَ بُولِيسَ مَصْرَ بَضْعَ سَنِينَ»، وَذَكَرَتْ أَنَّ الْمَدِيرَةَ سَارَعَتْ بِكَتَابَةِ تَقْرِيرٍ فِي الْحَادِثَةِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ الْمَامُورُ «فَأَكَّدَ فِي تَقْرِيرِهِ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ مَكَانَ الْخُطِّ، وَكَانَ يُرْسِلُ إِلَيْهِ الْعُيُونَ وَالْأَرْصَادَ، وَهُوَ الَّذِي مَهَّدَ لِلْعُمْدَةِ السَّيْلَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَزُورُهُ فِي نَفْسِ اللَّيْلَةِ، وَلَكِنَّ الْعُمْدَةَ لَمْ يُفَاتِحْهُ بِنِيَّةِ الْقَتْلِ...» وَيُنْهِي الْمَامُورُ تَقْرِيرَهُ بِقَوْلِهِ بِأَنَّهُ «يَتْرُكُ لِلدَّاخِلِيَةِ «تَقْدِيرَ مَجْهُودِهِ»... وَعَلَّقَتْ «السَّوَارِي» عَلَى الْخَبَرِ سَائِلَةً الدَّاخِلِيَةَ:

«يَا دَاخِلِيَّةُ: هَلْ لِلْمَامُورِ تَقْرِيرٌ وَاحِدٌ قَالَ فِيهِ حَاجَةٌ مِنْ دِي قَبْلَ مَا يَتَقَاتَلُ الْخُطُّ؟»»!

وَفِيمَا بَعْدُ أَصْبَحَ الْخُطُّ مُوَضَّوعًا لِعِدَّةِ أَفْلَامٍ سِينِمَائِيَّةٍ، اسْتَلْهَمَتْ قِصَّةَ حَيَاتِهِ الْعَاصِصَةِ، كَانَ أَوَّلُهَا: «الْخَارِجُ عَنِ الْقَانُونِ»، وَقَدْ مَثَّلَ فِيهِ فَرِيدُ شَوْقِي دَوْرَ الْخُطِّ، ثُمَّ: «الْوَحْشُ»، وَمَثَّلَ دَوْرَهُ فِيهِ «مَحْمُودُ الْمِلْجِي»، وَفِي كِلَا الْفِيلْمَيْنِ أَدْمَجَ دَوْرُ «سَمِيرَةَ» بِدَوْرِ «حَمِيدَةَ»، وَلَعِبَتْ الدَّوْرَ فِي الْفِيلْمِ الْأَوَّلِ مُمَثِّلَةً لَمْ تُمَثِّلْ غَيْرَ هَذَا الْفِيلْمِ، اسْمُهَا «مُونَا فَوَاد»، أَمَّا فِي «الْوَحْشِ» فَقَدْ لَعِبَتْ هَذَا الدَّوْرَ الْمُدْمَجَ الرَّاقِصَةُ «بِيَامِيَّةُ جَمَال». وَاسْتَلْهَمَتْ فُصُولَ أُخْرَى مِنْ حَيَاةِ الْخُطِّ فِي فِيلْمِ «سُلْطَانِ»، الَّذِي مَثَّلَهُ فَرِيدُ شَوْقِي.

وَقَدْ عَالَجَتْ هَذِهِ الْأَفْلَامُ الْقِصَّةَ كُلَّهَا مِنْ وَجْهَةٍ تَنْظُرُ ضُبَّاطُ الْبُولِيسِ، دُونَ أَيِّ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّنَافُذِ إِلَى عُمُقِهَا الْإِنْسَانِيِّ، فِيمَا عَدَا بَعْضَ اللَّمَحَاتِ الْمُضِيئَةِ فِي «الْوَحْشِ»، الَّذِي رَبَطَ بَيْنَ نَشَاطِ الْخُطِّ وَبَيْنَ أَعْيَانِ أُسَيُوطِ.

وَقَدْ كَتَبَ سِينَارِيُو هَذَا الْفِيلْمِ الْكَاتِبُ الْكَبِيرُ نَجِيبٌ مَحْفُوظٌ، وَكَانَ مِنْ بَوَاكِرِ الْمَرْحَلَةِ الْوَاقِعِيَّةِ فِي حَيَاةِ الْمُخْرَجِ «صَلَاحُ أَبُو سَيْف».

عَلَى أَنَّ الشَّهْرَ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ الْخُطُّ قَدْ شَهِدَ تَصَاعُدًا مُسْتَمَرًّا فِي الْإِهْتِمَامِ بِهِ، وَسَارَعَتْ الصُّحُفُ الْمُؤَيَّدَةُ لِلْحُكُومَةِ تَسْتَغْلُ الْحَادِثَ لِلْهَجُومِ عَلَى «الْوَفْدِ» الَّذِي كَانَ فِي الْمُعَارَضَةِ آنَذَاكَ، وَتَسَخَّرُ مِنْ أَسْلُوبِهِ فِي مُعَالَجَةِ مَسَائِلِ السِّيَاسَةِ الْمَصْرِيَّةِ، وَكَانَتْ الْمَحَاكِمُ الْمِصْرِيَّةُ مَشْغُولَةً أَيَّامَهَا بِنَظَرِ قَضِيَّةِ «قَنَايِلَ 6 مَآيُو الَّتِي اتُّهِمَ فِيهَا عَدَدٌ مِنَ الشُّبَّانِ الْمُتَّصِلِينَ بِالْوَقْدِ بِأَنَّهُمْ أَلْقَوْا عِدَدًا مِنَ الْقَنَايِلِ عَلَى مَرَكِّزٍ تَائِعٍ لِلْجَيْشِ الْبَرِيطَانِيِّ، وَطَالَبَتْ الْحُكُومَةُ بِتَطْهِيرِ الْبِلَادِ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّقَّاحِينَ.

وَرَدَّتْ صُحُفُ «الْوَفْدِ» بِأَنَّ الْحُكُومَةَ تَفْتَعِلُ كُلَّ هَذِهِ الصَّنَجَةِ لِتَبِيعِ اسْتِقْلَالَ مِصْرَ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ السَّقَّاحِينَ أَبْرِيَاءُ إِلَى أَنْ يُدَيَّنَهُمُ الْقَضَاءُ.

وَكَانَ رَئِيسُ الْوُزَرَاءِ وَقْتُهَا (مَحْمُودُ فَهْمِي النَّقْرَاشِي) قَدْ قَطَعَ الْمُفَاوَضَاتِ وَسَاقَرَ لِيَعْرَضَ قَضِيَّةَ اسْتِقْلَالِ مِصْرَ عَلَى مَجْلِسِ الْأَمْنِ، وَثَارَ

الْوَفْدِيُّونَ، وأعلن مصطفى النَّحَّاس أنَّ النَّقْرَاشِيَّ يَحْكُمُ ببرلمان مُزَيَّفٍ، وَيَفْتَقِدُ لثَقَّةَ الْأُمَّةِ، وأنه ليس من حَقِّ رئيس وزراءٍ لا يَنَالُ ثِقَّةَ مُوَاطِنٍ وَاحِدٍ في الْبَلَدِ أَنْ يَعْرِضَ قَضِيَّتَهَا عَلَى الْمُجْتَمَعِ الدَّوْلِيِّ، وأرسل تَلْغَرافًا شَهِيرًا بهذا المعنى إِلَى الْأَمَمِ الْمُتَّحِدَةِ...

وثارت ضُحْفُ الْحُكُومَةِ، انْتَهَمَتِ النَّحَّاسَ بِخِيَاةٍ قَضِيَّةٍ مِصْرَ، بعد أن خان «مَلِيكُهُ الْمُفَدَّى» في حادث 4 فبراير، وَعَيَّرَتْهُ بِأَنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي يَكْرَهُ الْعَرْشَ. وَقُتِلَ الْخُطُّ فِي نَفْسِ الْأُسْبُوعِ الَّذِي كَانَ النَّقْرَاشِيَّ يَخْطُبُ فِيهِ فِي مَجْلِسِ الْأَمْنِ.

وكانت «آخر ساعة» و«أخبار اليوم» من «ضُحْفِ السَّرَايِ»، الْمُدَافِعَةُ عَنِ الْحُكُومَةِ، وَالْمُنْتَصِرَةِ لِمَوْلَانَا عَلَى مصطفى النَّحَّاسِ؛ بِاعْتِبَارِهِ رَجُلًا «تَعَوَّدَ قِلَّةَ الْأَدَبِ فِي حَقِّ الْمُلُوكِ»، وكانت ضُحْفُ «الوفد» تَتَحَدَّثُ عَنْ أَنَّ الْحُكُومَاتِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى بَرْلَمَانَاتٍ مُزَيَّفَةٍ تُفْسِدُ أَخْلَاقَ الْأُمَّةِ؛ فعندما يَسْرِقُ النَّوَّابُ مَقَاعِدَهُمْ بِالْغِشِّ وَالتَّدْلِيْسِ، فمعنى هذا أَنَّ السَّرِقَةَ مَشْرُوعَةٌ؛ لِأَنَّ وَاحِدَةً مِنَ السُّلْطَاتِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ -وهي السُّلْطَةُ التَّشْرِيعِيَّةُ- أَهَمُّ هَذِهِ السُّلْطَاتِ- تَقُومُ عَلَى السَّرِقَةِ.

لَكِنَّ هَذَا كُلُّهُ لَمْ يُعْجِبْ ضُحْفَ الْحُكُومَةِ، الَّتِي انْتَهَزَتْ فُرْصَةً مَقْتَلِ الْخُطِّ لِتَسْخِرَ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ «الوفد» يُمَثِّلُهُ: ثِقَّةَ الْأُمَّةِ، وَالِدِّفَاعَ عَنِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ... وَهَكَذَا أَحَدَتْ «آخر ساعة» تُنَدِّدُ بِكُلِّ مَا تَقُولُهُ ضُحْفُ «الوفد»؛ فَتَنْشَرَتْ صَفْحَةٌ جَعَلَتْ عُنْوَانَهَا: «بِأَسْلُوبِ الضُّحْفِ الْوَفْدِيَّةِ»، قَلَدَتْ فِيهَا -بِأَسْلُوبِ سَاخِرٍ- بَعْضَ الزَّأْوِيَا الثَّابِتَةِ، الَّتِي تَوْجَدُ -عَادَةً- فِي أَيِّ صَحِيفَةٍ وَفْدِيَّةٍ، وَتَخَيَّلْتُ كَيْفَ سَتَكْتُبُ ضُحْفُ «الوفد» عَنْ حَادِثِ مَقْتَلِ الْخُطِّ؛ قَالَتْ فِي الْإِفْتِتَاحِيَّةِ:

«... أَرَادَ الْعَهْدُ الْحَاضِرُ أَنْ يُحَوِّلَ الْأَنْظَارَ عَنْ مُؤَامَرَةِ النَّقْرَاشِيَّ بِأَشْيَاءَ مَعَ الْإِنْجِلِيزِ فِي نِيُويُورِكْ، فَصَدَّرَ الْأَمْرُ لِيُولِيْسَ أُسْيُوطَ بِأَنْ يَضْرِبَ الْخُطَّ فِي ظَهْرِهِ فَيُرْدِيهِ قَتِيلًا، وَلَيْسَ الْيَوْمَ مَحَلُّ مُحَاسَبَةِ الْحُكُومَةِ عَلَى ارْتِكَابِ هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ التَّكْرَارِ فِي وَضَحِ النَّهَارِ، وَالدُّنْيَا هِيَامٌ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ... لَيْسَ الْيَوْمَ مَحَالُّ مُحَاسَبَةِ الْحُكُومَةِ عَلَى طَرِيقَةِ مُعَامَلَتِهَا التَّعَسُّفِيَّةِ لَخُصُومِهَا، فِي وَقْتٍ تَدَّعِي فِيهِ أَمَامَ الْعَالَمِ أَنَّهَا حُكُومَةٌ دِيمُقْرَاطِيَّةٌ، وَلَكِنَّا تَنعَى عَلَى الرِّمِيلَاتِ أَنْ تَتَسَرَّعَ وَتَنْتَهَمَ حَضْرَةَ صَاحِبِ الْعِزَّةِ الْخُطِّ بِكَ بِأَنَّهُ مُجْرِمٌ أَثِيمٌ، بَرِغْمَ أَنَّ الْقَضَاءَ لَمْ يُصْدَرْ كَلِمَتُهُ بَعْدُ فِي هَذِهِ التَّهْمَةِ الَّتِي تَصِيدُهَا الْبُولِيْسُ؛ لِيَلْصِقَ الْعَارَ بِأَبْنٍ مِنْ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ...»!

وكان عمود «الرئيس الجليل» بَابًا ثَابِتًا فِي كُلِّ الصُّحُفِ الْوَفْدِيَّةِ، يَنْشُرُ مُقَابَلَاتٍ وَاجْتِمَاعَاتِ رَئِيسِ «الوفد» مصطفى النَّحَّاسِ، وَكَانَ الزَّعِيمُ الرَّاحِلُ مَعْرُوفًا بِالْمَجَامَلَةِ الشَّدِيدَةِ؛ إِذْ كَانَ لَا يُفَوِّتُ قَرَحًا دُونَ أَنْ يُهْنِيَّ أَصْحَابَهُ، أَوْ مَاتَمًا بَغِيرَ أَنْ يُشَارِكَ بِالْعَزَاءِ فِيهِ؛ وَلِهَذَا تَنْشَرَتْ «آخر ساعة» فِي صَفْحَتِهَا

الساخرة (بأسلوب الصحف الوفدية) تحت عنوان «عمود الرئيس الجليل» ما يأتي:

«وأوفدَ الرَّئيسُ الجليلُ الأستاذَ علي قشاشة سكرتيرَه الخاصَّ إلى أسْرَةِ قَقيدِ الوَطَنِ، المَغفورِ له، صاحِبِ العِزَّة: الحُط بك؛ لإبلاغ أفرادِ الأسْرَةِ عِزاءَ مَقامِهِ الرَّفيع في القَقيدِ الكَرِيم!»



آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

وفي نفس الصَّفحة تَشَرَّت «آخر ساعة» قصيدةً ساخرةً، تَسَحَّرَ فيها من مَدح أعضاء «الوفد» لَزَعيمِهِم، وجَعَلَتْها على لِسَانِ الأستاذِ حَسَنِ يَاسِين، وكانَ عضوًا بمجلسِ التَّوَاب، وزَعيمًا لشبابِ «الوفد»، ومنَ أَخْلَصِ أنصارِ النَّحَّاس وأقربِهِم إليه، ومنَ المُحتمَل أن يكونَ صاحِبُ هذِهِ القَصيدةِ «الحَلَمَتِيشِيَّة» هو الشَّاعرُ الرَّاجِلُ كاملُ الشَّناوي، الذي كانَ يَراسُ تحريرَ «آخر ساعة» وقتَها...

وتقول القصيدة:

«قصيدة أمير شعراء الوفد الأستاذ حسن يسن:

قَتَلُوا الحُطَّ أو رَمَاه الرِّصاصُ

فَعِزَاءً يا مُصطَفَى «النَّحَّاسُ»

وَعَزَاءَ رِجَالٍ وَفِدٍ إِذَا وَقَفَتْ
سَاعَةً مِصْرَ وَغُطَّلَ الرَّقَاصُ
أَوْ تَرْضَى حُكُومَةً فِي شُعُو-
بِ الْأَرْضِ فِيهَا لِلنَّابِغِينَ اقْتِنَاصُ؟
أَوْ يُرْمَى الْخُطُّ الْعَظِيمُ جَهَا-
رًا وَنَهَارًا، فَأَيْنَ الْقَصَاصُ؟
لَيْسَ فِي الْكَوْنِ مِثْلَهُ سَرَّ-
اقٌ عَبْقَرِيٌّ، وَلِلدَّمَ مَصَّاصُ
مَجْلِسَ الْأَمْنِ كَيْفَ لَا تَتَدَخَّلُ-
لُ؛ لَيْسَ مِنْ ذِي التَّدَخُّلاتِ مَنَاصُ
هَجَصُ مَا «إِدَّعَوْهُ»، فَهُوَ بَرِي-
ءٌ... إِنَّ رَامِيَهُ كَاذِبٌ هَجَّاصُ
لَكَ يَا صَاحِبَ الْمَقَامِ الرَّفِيعِ ال-
فَخْرُ وَالصَّبْرُ وَالرَّضَى... وَخَلَّاصُ»

الباكي الحزين «حسن يسن».

وفي العدد التالي من «آخر ساعة» نشرت المجلة أنها تجري استفتاءً حول آراء قُرَّائِها في المصير الذي يجب أن يؤول إليه ابن الخط، وأبناء أسرته كذلك، ودعتهم إلى الإدلاء بهذه الآراء عبر البريد.

وَكَتَبَ الأستاذ مُحَمَّدٌ حَسَنِينَ هَيْكَلٍ فِي هَذَا الْعَدَدِ يَطْرَحُ مُشْكِلَةً هَاشِمِ ابْنِ الْخُطِّ، وَاقْتَرَحَ أَنْ تَتَوَلَّى الْحُكُومَةُ تَرْبِيَّتَهُ فِي أَحَدِ مَلَاجِيْهَا، وَأَنْ تُنْفِقَ عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّهُ؛ لَكِي لَا يَظَلَّ فِي أَسَارِ «خَالَتِي فَصَّة»؛ فَتُدْفَعَهُ لِلنَّارِ لِأَبِيهِ، وَتَتَكَرَّرَ الْمَأسَاءُ، وَاقْتَرَحَ أَيْضًا أَنْ تَدْفَعَ وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ إِعَانَةً لِأَسْرَةِ الْخُطِّ. وَعَلَّقَ الْكَاتِبُ الْكَبِيرُ تَوْفِيقُ الْحَكِيمِ عَلَى هَذَا الْاِقْتِرَاحِ قَائِلًا:

«لَيْسَ مِنَ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَنْ تَحْمِلَ خِزَانَةُ وَزَارَةِ الْأَوْقَافِ الْمُخَصَّصَةَ لِمُعَاوَنَةِ مَنْ أَخْتَى عَلَيْهِمُ الدَّهْرُ مِنْ دَوَى السَّيْرَِةِ الْحَسَنَةِ، الَّذِينَ لَمْ يَعْتَدُوا عَلَى الْمُجْتَمَعِ، وَلَمْ يَخْرِقُوا الْقَانُونَ- لَتُعِينَ أَسْرَةَ مُجْرِمٍ اعْتَدَى عَلَى الْقَانُونِ، وَكَانَ عَدُوًّا لِلْمُجْتَمَعِ، وَإِذَا جَارَ لِلْحُكُومَةِ أَنْ تُقَدِّمَ مِثْلَ هَذِهِ الْإِعَانَةِ فَأُولَى بِهَا أَنْ تُقَدِّمَهَا بِادِيٍّ الْأَمْرِ إِلَى أَسْرِ شُهَدَاءِ ثَوْرَةِ 1919، وَإِلَى ضَحَايَا الْغَارَاتِ فِي الْحَرْبِ، وَإِلَى عَائِلَاتِ الْجُنُودِ الْمَصْرِيِّينَ، الَّذِينَ اسْتُشْهِدُوا فِي الدَّفَاعِ عَنْ قَنَاةِ السُّوَيْسِ، وَفِي مَعَارِكِ الْحُدُودِ الْمَصْرِيَّةِ سَنَةِ 1940 وَ1941، أَوْ مِنْ بَابِ أُولَى

مَرَّةً أُخْرَى إِلَى أَسْرَ رِجَالِ الصَّبْطِ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُؤَدُّونَ وَاجِبَهُم الرَّسْمِيَّ فِي حِفْظِ الْأَمْنِ الَّذِي كَانَ الْخُطُّ تَفْسُهُ أَكْبَرَ خَطَرٍ يُهْدِّدُهُ...

ومع ذلك، فإن الرأي الآخر، وهو تعليم أولاد المجرم حتى ينشأوا نشأة أخرى لها مثلُ غُلبا، تنفِرُ من الاعتداء على المُجْتَمَع والقانون- هو رأيٌ مَحْمُودٌ، والطريقُ العَمَلِيُّ إليه هو أن تَلْجَأَ إلى وَرَازَةِ الشُّؤُونِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَتَطْلُبُ إِلَيْهَا تَطْبِيقَ قَانُونِ تَرْعِ الْوَلَايَةِ الْأَبَوِيَّةِ عَنْ أَوْلَادِ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ؛ لِنَنْزِعَهُمْ مِنَ الْوَسْطِ الْمَوْبُوءِ، وَالْبَيْتَةِ الْإِجْرَامِيَّةِ الَّتِي يَتَنَفَّسُونَ فِيهَا، وَنَنْقُلَهُمْ إِلَى جَوٍّ آخَرَ يَمُنُّ عَلَيْهِمْ حَيَاةٌ أُخْرَى جَدِيرَةٌ بِالْمُوَاطِنِ...».

وكتب اليوزباشي محمد سعيد هلال ضابط نُقْطَةً بِنِي قَرَةِ -التي عاد إليها بعد سقوط الخُطِّ- يَرُدُّ عَلَى اسْتِفْتَاءِ «آخِر سَاعَةٍ»، قَائِلًا:

«أَسْتَطِيعُ مُنْذُ الْآنَ أَنْ أَتَوَقَّعَ الْحَرْبَ الَّتِي سَتَنْدَلِعُ نِيرَانُهَا بَيْنَ دَرَنكِه وَبَيْنَ حَاجِمٍ عِنْدَمَا يَكْبُرُ هَاشِمٌ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي أَقُولُهَا صَرِيحَةً وَاضِحَةً: وَمَا دَنْبُ هَاشِمٍ؟! إِنْ الْحُكُومَةُ يَجِبُ أَنْ تَتَبَّاهُ...».

وكتب الدكتور إبراهيم سلامة الأخصائي في علم النفس يقول «لنفتَحْ مَدْرِسَةً تُسَمِّيْهَا مَدْرِسَةُ حَاجِمٍ، وَنَخْصِّصُ فَصْلًا وَاحِدًا كَامِلًا مِنْهَا لِأَطْفَالِ عَائِلَةِ الْخُطِّ (وَكَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ طِفْلًا، هُمْ أَوْلَادُ الْخُطِّ وَأَوْلَادُ أَشْقَائِهِ)، وَنَجْعَلُ بَاقِيَ الْفُصُولِ لِأَطْفَالِ غَيْرِهِمْ ذَوِي حَالَاتٍ مُسْتَعَصِيَّةٍ مِنَ النَّاحِيَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَلِنُحَاوِلَ -عَلَى هَدْيِ عِلْمِ النَّفْسِ- أَنْ نَجْعَلَ مِنْهُمْ مُوَاطِنِينَ صَالِحِينَ...».

وتحمَّسَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ عَبْدِ الْمَحْسَنِ الْخَشَّابُ (الأمين بمصلحة الآثار) لفكرة تقديم إعانةٍ لَأُمِّ الْخُطِّ وَرَوْجِيَّتِهِ وَابْنِهِ؛ «لِتَبْدِيَ الْحُكُومَةُ لُطْفَهَا، وَتَمْسَحَ مِنَ الْقُلُوبِ أَنَّهَا تَحْمِلُ الْحَقْدَ لِلْبَرِيءِ».

وكتب أحدُ أُمَنَاءِ دَارِ الْكُتُبِ مُعْتَرِضًا عَلَى هَذَا كُلِّهِ، مُتَبَيِّنًا نَظْرِيَّةَ أَنَّ الْجَرِيمَةَ وَرَاثَةً، فَرَوَى عَنْ حَكِيمِ إِيرَانِيٍّ قِصَّةَ قَاطِعِ طَرِيقٍ دَوَّحَ إِيرَانَ، فَاحْتَالَ بِهِ الْمَلِكُ حَتَّى قَبِضَ عَلَيْهِ وَقَتْلَهُ، وَتَشَفَّعَ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ لِطِفْلِهِ الصَّغِيرِ، فَأَخَذَهُ وَرَبَّاهُ الْعُلَمَاءُ لِطِفْلِهِ الصَّغِيرِ، فَأَخَذَهُ وَرَبَّاهُ حَتَّى كَبُرَ، ثُمَّ سَمِعَ الْمَلِكُ يَوْمًا أَنَّ الطِفْلَ قَتَلَ الْعَالِمَ، فَقَالَ:

عُدِيَّتْ بِدَرِّنَا وَنَشَأَتْ فِيْنَا

فَمَنْ أَتَبَاكَ أَنْ أَبَاكَ ذِيْبُ؟

إِذَا كَانَ الطَّبَّاعُ طِبَّاعَ سَوْءٍ

فَلَا أَدَبٌ يُفِيدُ وَلَا أَدِيبُ!



وَسَخَّرَ مَوْظِفٌ مِنْ دَبْرُوطَ مِنْ هَذَا كَلِّهِ، وَكَانَتْ الصُّحُفُ أَيَّامَهَا تَتَحَدَّثُ عَنْ شَيْءٍ اسْمُهُ «التَّنْسِيقُ»، يَرْقُعُ مُسْتَوَى مُرْتَبَاتِ الْمُوظِفِينَ، وَقَالَ المَوْظِفُ:

«يُقَالُ إِنَّ الحُكُومَةَ سَتَتَبَّيْ ابنَ الحُطِّ... أَهْوَ تَنْسِيقُ الْمُجْرِمِينَ؛ شَمِلَ الحُطُّ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى؟ وَهَلْ أَطْمَعُ أَنْ يَشْمَلَنِي فِي الدَّرَجَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ كَادِرِ الجَرِيمَةِ؟! عَلَى أَيِّ حَالٍ، لَنْ أَيْأَسَ، وَعِنْدَمَا تَدْلَهُمُ الْأُمُورُ بِي سَوْفَ أَذْهَبُ إِلَى عُمْدَةٍ جَحْدَمَ لِيَقْتَلَنِي وَأَتْرُكُ أَبْنَائِي لِلْحُكُومَةِ»!

وَتَلَقَّتْ «آخِرُ سَاعَةٍ» أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَمِائَةِ إِجَابَةٍ عَلَى الاسْتِفْتَاءِ، وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنَّ حَوَالِي نَصْفِهَا قَدْ رَفَضَ أَصْحَابُهَا أَنْ تُقَدَّمَ الدَّوْلَةُ أَيَّ مَعْوَنَةٍ لِتَبْنِي هَاشِم!

وَأَكَّدَتْ نَتِيجَةُ الاسْتِفْتَاءِ أَنَّ ثَمَّةَ شَيْئًا مِنَ الْقَسْوَةِ يَمَلَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُلُوبِ...

كَانَ الْعُنْفُ الَّذِي نَاءَ عَلَى النَّفْسِ الْمَصْرِِّيَّةِ يَخْلُقُ رُودَ أَعْمَالِهِ الْمُتَبَايَةِ وَالْمُرْبَكَةِ، وَهَكَذَا، فَإِنَّ بَعْضَ الْمُسْتَزْعَفِينَ وَالْفُقَرَاءَ وَالْبَاحَثِينَ عَنْ «التَّنْسِيقِ» وَ«الْأَنْصَافِ»- قَدْ تَطَوَّعُوا لِلْإِفْتَاءِ بِخَوَازِ جِرْمَانِ هَاشِمِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَتَأْثِيمِ الحُطِّ وَأَسْرَتِهِ وَتَسْلِيهِ، كَأَنَّ الْفُقَرَاءَ وَالصُّعْفَاءَ قَدْ خُلِقُوا لِيَكُونُوا خُطَاةً، كَفَّارَةً عَالَمٍ غَارِقٍ فِي الْإِثْمِ حَتَّى رَأْسِهِ: يُخَوَّلُ، وَيُسْمَلُ، وَيَعِظُ!

وتلك ظاهرة من ظواهر مَوْجَةِ العُنْفِ الَّتِي شَهِدَتْهَا مِصْرُ فِي نَفْسِ السَّنَوَاتِ الغَرِيبَةِ...

ولعلَّ هناك سَبَبًا آخر لهذه النَّتِيجَةِ الغَرِيبَةِ لاستفتاء «آخر ساعة»، تلك أنَّ قُرَاءَ الصُّحُفِ والمَجَلَّاتِ هم في الأساس أبناءُ تلكَ الشَّرَائِحِ الدُّنْيَا مِنَ الطَّبَقَةِ الوُسْطَى، هؤلاء الذين تَضِيقُ رُؤْيُتُهُم للعالم، وَيَضِيقُ أَفْقُهُم أحيانًا لِدَرَجَةِ أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى نِظَامِ يَطْحَنُهُمْ وَيَدُوسُهُم بالتَّعالِ وَيُحِيطُ كُلُّ آمَالِهِمْ؛ لِمَجَرَّدِ حُلْمٍ -لا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِأَفْدَحِ التَّضَحِيَّاتِ- أَنْ يَرْكَبُوا يَوْمًا قِمَّتَهُ...



آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

على أَنَّ المُشْكِلَةَ لَمْ تَكُنْ مُشْكِلَةَ هاشم وحده، لَمْ تَكُنْ مُشْكِلَةَ الخَارجِينَ عن القانون؛ لأنَّ القانونَ لِكِي يُحْتَرَمَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ إنْسانِيًّا، واحْتِرَامُهُ رَهِيْنُ بَأَنْ يَصُوغَ وَيَحْمِيَ عَلاَقَاتِ إنْسانِيَّةٍ بَيْنَ النَّاسِ، عَلاَقَاتِ لَيْسَ فِيهَا جَوْعٌ وَلَا قَفَرٌ، وَلَا لَطَمَاتٌ ظَالِمَةٌ...

ولم يَكُنْ هاشم وَحْدَهُ الَّذِي تُحَلُّ مُشْكِلَتُهُ بِتَطْبِيقِ «قانون سَلْبِ الوِلايَةِ»؛ كانت مِصْرُ كُلُّهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَطْبِيقِ هَذَا القانونِ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ أُمُورَهَا رَغْمًا عَنْهَا؛ لِكِي يَتَنَفَّسَ كُلُّ أُنْيائها هَوَاءً تَقِيًّا، وَيَنْتَقِلُوا إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى تَلِيْقُ بِالْمُوَاطِنِ...

حياة بلا أفيون...

ولا عُنف...

ولا بنادق...

شُكْرٌ وَامْتِنَانٌ

حين شَرَعْتُ في إعداد هذا الكتاب للنشر، واستكمال فصوله من بين أكوام من المَلَفَّات التي تركها خلفه «صلاح عيسى» - انتابتنِي حَشِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَرْقَنِي قَلَقٌ مُمِضٌ. أَمَّا السَّبَبُ فهو: أن صلاح قد اعتاد في تَشْرِيرِ كُتُبِهِ على أن يقوم بتنسيقها بنفسه، والمشاركة في إخراجها، وَجَمْعُ صُورِ الشَّخْصِيَّاتِ التي وَرَدَ اسمها في الكتاب، والأماكن، والملابس وشكل الشوارع والميادين التي تجري فيها الأحداث، والخُلِيِّ المُسْتَحْدَمَةِ، والمَوْضِعِ السَّائِدَةِ، وغناء العصر وشِعْرِهِ وأدبه وَكُتَيْهِ الدَّائِعَةِ، والعُمَلَةُ المُتَدَاوِلَةُ فيه، وأفِيشَاتِ الأفلام المعروضة- بمعنى آخر: كان يجعل من الكتاب -فضلاً عن مُتَعَةِ القِراءة- مُتَعَةً بَصَرِيَّةً فَاتِنَةً.

كان هذا جُزْءًا من منهج «صلاح عيسى» في العمل بشكل عام: البحث المُضْنِي عن المعلومة في شَتَّى مَصَادِرِهَا المكتوبة، وتدقيقها، مع شهادات حَيَّةٍ مَمَّنْ عاصروها، والانشغال بكافَّةِ التفاصيل التي تُضِيءُ المعنى، وربما تضيف إليه، أو تتوصل لمعنى جديد في سياق البحث والتحرِّي؛ لكي يحوِّل أحداث التاريخ الصَّمَاءَ إلى حكاياتٍ شَيِّقَةٍ، وإلى بَشَرٍ من لَحْمٍ وَدَمٍ، ينبضون بالحياة.

لَكِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يُخَفِّفَ عَنِي الضُّغُوطَ التي تراكَمَت فوق رأسي، وأخافتنِي من الشعور بالتقصير والعجز عن الوصول بالكتاب إلى بعضٍ من المستوى الرفيع، الذي كان يقوم به صلاح في إعداد كُتُبِهِ للنَّشْرِ، حين ظهر في الصُّورَةَ -بمبادَرَةٍ شَخْصِيَّةٍ منه- الابن الغالي والصديق الوفي «وليد حسن»؛ أَحَدُ مُحِبِّي «صلاح عيسى»، والمتابعين بدقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ لإنتاجه الفِكْرِي والتاريخي والثقافي والأدبي، منذ بداياته، والعارفين بِفَضْلِهِ. لَعِبَ هذا الظُّهُورُ دَوْرًا في تَغْيِيرِ الوَضعِ بين لَيْلَةٍ وَصُحَاها، وتَخْفِيفِ حَالَةِ القَلَقِ والخوفِ من عَدَمِ القُدْرَةِ على الإنجاز. وبالتأكيد فإن مَلَفَ الصُّورِ الذي يحتويه هذا الكتاب يَدِينُ للمجهودِ التَّطَوُّعِيِّ الكَبِيرِ الذي بذله «وليد حسن»؛ مَحَبَّةً لَصَلَاحِ عَيْسَى أَوَّلًا، وَنِيَابَةً عَنِّي ثَانِيًا؛ للبحث عنها في أماكنها المُشْتَتَّةِ والمَبْعَثَةِ في كُلِّ مَكَانٍ: من دار الكتب والوثائق، إلى الجمعية التاريخية، ومن صحيفة الأهرام إلى أرشيف صحيفة الأخبار، ومنهم إلى دار الهلال، وجمعهم وتصويرهم بطريقةٍ تُيسِّرُ على الجهاز القَنِّيِّ في دار المحروسة فُرَصَ الاستفادة منها في إخراج وتوضيب هذا الكتاب، ولهذا؛ فَالشُّكْرُ والامتنان له بلا حدود، ولجهدِهِ الذي طَوَّقَ عُقْنِي، وأعانني حين كُنْتُ في أَشَدِّ الحَاجةِ طَلَبًا للمُساعدَةِ واحتياجًا لذلك العون. والشكر موصول أيضًا للأصدقاء في دار المحروسة

الذين جعلوا أمر إصدار هذا الكتاب ميسورًا، بالجهد المبذول في المراجعة والتدقيق والإخراج الفني.

أمينة النقاش

بضعة إيضاحات

ألف صلاح عيسى كتاب «أفيون وبنادق» سنة 1973. ونشر فصوله مُسَلَّسَة في مجلة 23 يوليو الأسبوعية سنة 1979 التي كانت تُصدَّر في العاصمة البريطانية لندن. والمجلة أسَّسَهَا ورأس تحريرها الكاتب الكبير «محمود السعدني». وكتب صلاح في المجلة -بجانب ذلك- عددًا من التحليلات السياسية، باسم مُستعار، هو «صادق عنان»، وهو الاسم الذي كان صلاح يُوقع به مقالاته في عددٍ آخر من الصُّحف العربية في عهد الرئيس السادات، بعدما كان قد تمَّ التحقيق معه -بجانب آخرين- أمام المُدَّعي الاشتراكي بتهمة كتابة مقالات في الصحف الخارجية تُضُرُّ بِسُمعة البلاد.

شرح «محمود السعدني» شرحًا وافيًا، في واحدٍ من أهمِّ كُتبه، وأكثرها اقترابًا وقَهَمًا للسياسات العربية، التي أعقبت اتفاقيات كامب ديفيد، وتوقيع الرئيس السادات لمعاهدة الصُّلح مع إسرائيل -قصة إصدار تلك المجلة، التي كانت تستهدف بالأساس مواجهة التُّطبيع مع إسرائيل، وتسليط الضوء على مخاطر الحلول المنقرِدة معها. كما بيَّن المناورات والألاعيب التي قادت إلى إغلاقها وتوقفها بعد صدور نحو 40 عددًا منها فقط، ونوعية المشاكل التي صاحبت الصدور، والعراقيل التي أجبرتْها على التوقف. والكتاب بعنوان «الولد الشقي في المنفى»، وهو كتابٌ ينطوي على دروس بالغة الأهميَّة لمن يسعى لفهم موقف الدول العربية من النظام المصري في عهد الرئيس السادات، والتي بادرت بقطع العلاقات معه في قمة بغداد الشهيرة عام 1979، وتقل الجامعة العربية والمنظمات الجماهيرية التابعة لها من مصر إلى خارجها؛ عقابًا لها على توقيع اتفاقيات كامب ديفيد!

وبجانب الرؤية الثاقبة التي قدَّمتها «السعدني» لموقف النظام العربي من النظام المصري في عهد السادات، كشف الكتاب -بجسارة- أمراض المعارضة المصرية في الخارج لنظامه، التي تحوَّلت لدى البعض إلى مجالات للترُّج والاسترزاق، وحتى الثراء الفاحش، بزعم التصدِّي لكامب ديفيد، والصلح المنفرد مع إسرائيل!

وكتاب «أفيون وبنادق» الذي يؤرِّخ فيه «صلاح عيسى» لحياة «محمد منصور»، المشهور بـ «خُطِّ الصعيد»، ربما يكون -في حدود علمي- من أوائل الكُتب التي تُقدِّم رؤية اجتماعيَّة وسياسيَّة شاملة لظاهرة أولاد الليل في صعيد مصر في العهد الملكي. قبله عالجت السَّينما المصريَّة القضية في فيلم «الوحش»، الذي أخرجه صلاح أبو سيف عام 1954، وشارك نجيب محفوظ في كتابة سيناريو وحوار الفيلم، وقام ببطولته: محمود المليجي وأنور

وجدى وسامية جمال وعباس فارس وسميحة أيوب. ويحكي الفيلم قصة مجرم هارب من العدالة يُلقب بـ «الوحش»، ويفرض سيطرته على الجميع في إحدى قرى الصعيد، وينهب الزرع ويستوقف القطارات ليسطو على البضائع، ويخطف الأبناء لطلب فدية، ويهدد الأهالي ورجال الشرطة، وينعم بحماية العمد والباشوات الذين يستخدمونه للتخلص من خصومهم ومنافسيهم في الانتخابات العامة. ويستمر حال القرية على هذا المنوال، إلى أن يتمكن ضابط جسر من إقناع الأهالي بالتضامن معه، وعدم الخوف من التعاون مع البوليس؛ لتخليص القرية من الوحش، وينجح في ذلك، ليعلن الرواي في نهاية الفيلم بلهجة خطابية لا تخلو من لطف: «ما أهدأ العيش في ظل الأمن والاستقرار». وكانت أحداث الفيلم هي بالضبط قصة «خط الصعيد»، الذي كان «محمد حسنين هيكल» قد حقق وقائعها ونشرها على صفحات مجلة «آخر ساعة» في أواخر عام 1947.

ولعل مشاركة نجيب محفوظ في كتابة فيلم «الوحش» هي التي ألهمته في عام 1961 كتابة روايته «اللص والكلاب»، التي استلهم أحداثها من واقعة ما كان يُعرف آنذاك بقضية السقّاح «محمود أمين سليمان»، الذي أصبح في الرواية: «سعيد مهران»؛ اللص الذي خرج من السجن وقتل أكثر من واحد، وهرب من ملاحقة البوليس، وبات مُحملًا بذكري الزوجة التي طلقته وتزوجت من شريكه، وذكرى الابنة التي حُرِم منها منذ كانت طفلة، ورغبة لا تنطفئ للانتقام من خيانة وحرمان وتزوير الحقائق، وانتهازية الذين صدوا وأثروا على حساب الآخرين، وتذكروا له. وتقوده دائرة الانتقام إلى أن يلقي مصرعه في نهاية المطاف، بعد أن بات ضحيةً لماض فشل في تجاوز محنه، ولواقع خارجيٍّ قَط، افتقد لميزان العدل والإنصاف، ولم يمنحه الفرصة للعيش بتوازنٍ في حاضره.

ولعل رواية نجيب محفوظ «اللص والكلاب» تكون قد ألهمت قد «صلاح عيسى» وشجّعته على تحقيق وتقصي حالة «خط الصعيد»، والكشف عن الدوافع النفسية، والعوامل الخارجية السياسية والاجتماعية التي ساهمت في بروز تلك الظاهرة التي تتحدّى سلطة الدولة وسلطة القانون، وتهز الاستقرار المجتمعي، وتزعزع سلطة من يديهم إنفاذ القانون وحفظ الأمن. وهي ظاهرة -كما يكشف الكتاب- لا تعيش وتنتعش وتتمدد سوى بالتواطؤ المجتمعي والفساد المالي والإداري والسياسي.

أمنية النقاش

ملحق الوثائق

العدد ١٠٠٠
١٩٣٧
١٩٣٧
١٩٣٧

١٩٣٧
١٩٣٧
١٩٣٧
١٩٣٧

١٩٣٧
١٩٣٧
١٩٣٧
١٩٣٧

القضية المصرية

في إطار محلة برقيانية كبيرة

في الموقف السياسي

بريطانيا تحاول التخلي في دوائها بشرعية معاهدة ٢٢
مصر ترفض الذهاب الى محكمة العدل الدولية

حوادث واحاديث

الاستاذ الكبير سلامة موسى

بريطانيا تسعى الى ازالة مصر من اقاليم الانتداب... في إطار محلة برقيانية كبيرة... القضية المصرية... في إطار محلة برقيانية كبيرة...

القضية المصرية

بريطانيا تسعى الى ازالة مصر من اقاليم الانتداب... في إطار محلة برقيانية كبيرة... القضية المصرية... في إطار محلة برقيانية كبيرة...

حوادث واحاديث

الاستاذ الكبير سلامة موسى... حوادث واحاديث... الاستاذ الكبير سلامة موسى...

أسواق الذهب

وجوب انتاج الدول عن دخولها

في الموقف السياسي

بريطانيا تحاول التخلي في دوائها بشرعية معاهدة ٢٢
مصر ترفض الذهاب الى محكمة العدل الدولية

حوادث واحاديث

الاستاذ الكبير سلامة موسى

أسواق الذهب

وجوب انتاج الدول عن دخولها... أسواق الذهب... وجوب انتاج الدول عن دخولها...

في الموقف السياسي

بريطانيا تحاول التخلي في دوائها بشرعية معاهدة ٢٢
مصر ترفض الذهاب الى محكمة العدل الدولية

حوادث واحاديث

الاستاذ الكبير سلامة موسى

اجتماع الوفد المصري أمس



اجتماع الوفد المصري امس برئاسة السيد جمال باشا في فندق هيلتون بالقاهرة

وكانت الجلسة برئاسة السيد جمال باشا في فندق هيلتون بالقاهرة

هل يؤيد جروميكو مصر في مسألة السودان؟

مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

موقف امريكا من القضية المصرية

رغمنا في تسوية المشكلة وديا

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

لندن تتوقع ثورة عصفية في مصر

أوحرب عصابات خطيرة اذا فشلت قضية الوادي في مجلس الامن

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

نقص احتياطي الذهب

والبولارات الامريكية في بريطانيا

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

الخطر السلافي يعود الى الظهور في البلقان

تهديد تركيا واليونان - هل تنقطع روسيا علاقاتها بعربيا

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

روسيا تهتم امريكا

بالاعتناء على حقوق الانسان

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

٣٩ مليون دولار

مزاينة هيئة الامم المتحدة

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟



مرد في افريقيا

امريكا ترفض مشروع روسيا

للاشراف على اتفاقية المديرة

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

ظهور الغام

في ساحل ليبيا

لندن ٨ - في برلين (البرلين) - تم في اجتماع مجلس الاستشاري في برلين امس في مسألة جروميكو مصر في مسألة السودان؟

[illegible][illegible][illegible][illegible]

يعتبر أعظم مجموعة من الباعث
السموية التي تحدثها في العالم
بأخيرة شهر رمضان المبارك
وعيد الفطر المبارك

فی تہذیب و شرح و تفسیر د مع املہ سند ۱۹۳۶

(الآنكم تريدون مصر مستقلا تماما والمعادلة لا تحقق استقلالها التام، وان كنتم تريدون مصر ان تنضم بتخوفا للممتلكات البريطانية (الامبريون) للمعادلة فانكم تريدون هذه الحقوق، وانتموهوا .. وان تريدون تغيير الحالة التي وسماها دون اتمام برنامج هذا التغيير، لعل الحركة برتبة ١، اذن فانكم تريدون المعادلة على ان تدل انهم على مستقنع ديللا زيل ما يامن مسائل باستقلال مصر)

الهيئة العامة للغذاء والدواء
الطبعة ١٠٠٠
الطبعة ١٠٠٠

- ١- هذه التي أسموها معاهدة الشرف والاستقلال هي وثيقة الحماية والاحتلال
- ٢- النحاس باشا كان قد أخذ على عاتقه اقتناع الأمة بتساهله فيها
- ٣- مصر كانت ترى في ضميرها أن هذا التساهل تهاون في حقونها
- ٤- ليس لبريطانيا سند إلا من أقوال النحاس باشا وحده
- ٥- معاهدة سنة ١٩٣٦ تحصل السودان بريطانيا أو غير مصرى على الأقل
- ٦- أتوني إذن كان يعطى إشارة تهديدية لزعماء مصر إذا لم يوقعوا المعاهدة

[illegible][illegible][illegible]

٢-١

والله اعلم
بما فيه الغيبات

٥٠

[illegible]

لقد كنت أظن أني قد وجدت من قبل في القلوب
قلوباً من غير النجاسة من عرف قسرون القبط لهم وأعلم -

[illegible][illegible]

ووجه النظرية بحدوث كل اضطراب، واضطراب في
التوضوح العمري، ان تكون دولة مسخرة لاحتلال مجيها، ولا
البلية - الصلابة (الابا)

[illegible]

بعد أن كانت اسمي المسمرات الثلاثة وبعد أن كانت عام الحكم
القول (الفروروت) من أجل من السمرات الثلاثة والحقائق
وتعتبر في الأوقات الأخيرة في وقت في 1999م والى
في 1999م حيث كانت تسمى (الفروروت) في وقت في 1999م
في وقت في 1999م حيث كانت تسمى (الفروروت) في وقت في 1999م
في وقت في 1999م حيث كانت تسمى (الفروروت) في وقت في 1999م

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَدَأَ الْحَرْثَ إِثْرَ الْحَرْثِ يُخَالِطُ أَهْلَ الْمَدِينِ

[illegible][illegible]

فَسَاءَ مَنْ عَمِلَ كَبِيرَةً يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ أَجِبُّ الْمَجْرُمِ وَعَاسِرُهُ!

والعزب وطلب عشاء
ونضات العزبة في تقديم العشاء
له ، وحضر الرسل من البلاد المجاورة
حاملين له الهدايا والبقود ، وبنوع
من الفضول السائى وجرأة للفناء
القاهرة المتعة نزلت وقابلته

آنندری من هو یاسیدی .. إنه
 محمود محمد منصور .. لا ندعی عدم
 العرفه به ، فانت تعرفه ، وکل قرائک
 يعرفونه ، وأجمل الجمله فی مصر
 يعرفه .. من هو محمود محمد منصور ؟
 إنه حبیبي ، ولکمک تطلقون علیه
 إسماً آخر .. انکم تسمونه (الخط)
 ولعد — یاسیدی — بلدشا

فقد نزلت إليه وحادثته .. كم من
الجيل أن تحدث إلى المشاهير
والكبار ..

وطلنا نحدث.. واقتضى السام
كله وبقيت أنا وهو، وطال بنا
الحديث وتشعب .. حدثني عن
مغامراته وعن مظاهراته، وعن
الجرائم التي ارتكبها، والجرائم
النسوبة اليه زورا وبهتانا .. حدثني
عن البالي الخفيفة بين عيدان القدرة
العالية ..

حدثني عن مطاردة من رجال
البوايس ، في بينهم السلاح وعصى
لقانون ظهورهم إذا قتلوه ..

وحدثني عن مطاردة من أهالي
لدهته .. وطال بنا الحديث ولم نشعر
لا ونحن في الصباح

وتكرر حضور هذا الرجل
في يده خبز رنة كما لو كان آمناً في
بيته وليس من المطاردين

وكان الرجال بسلاحهم يخشون
غيره

في الساعة الثامنة من مساء الجمعة الماضي ، وصل الى إدارة روز اليوسف خطاب بالبريد التسجل عليه ختم مكتب بريد مغفوط ... وكان الخطاب يحمل شكوى فتاة الى محرر باب (جراح قلب) تحترف له فيها بأنها تحب عمود محمد منصور الشير بلطوط ... والذى اصنعه بعض الصحف « ذئب الجبال » .

وفي صباح اليوم التالي من وصول الخطاب - أي يوم السبت - أذيع خبر مقتل الخط .. وأسرعنا إلى أرييف جراح قلب واستخرجنا الخطاب الذي كان ينتظر الرد عليه في المند القبل ... وأعدنا قراءته مرة ومرات ... قبل هناك علاقة بين مقتل الخط وهذا الحب الضيف للذي تروي قصته الفتاة التي اختارت أن توقع خطابها بماء « مدنية » ؟ .. إنها تقول إنها من عائلة من أكبر عائلات مغلو قبل تدخل ثورة هذه العائلة شرقها والرغبة في الأخذ بالثأر ، في مقتل الخط ؟ ثم ما هو سر الصداقة العجيبة التي أوحى إلى هذه الفتاة أن تسكب خطابا في غس اليوم الذي قتل فيه الخط وبما كتبه قبل مقتله بساعات ؟ إنها لا يمكن أن تكون بمن مبدقة ... بل لا بد أن الأمر - سراً غامضاً مثيراً عجباً ، سرا ربما كان للبليس قصة مبرح على إخاله - حفظا لكرامة وسمعة العائلة التي تنتمي إليها هذه الفتاة ...

ونحن ننشر الخطاب الذي وصلنا بنسخة، كما ننشر صورته الزئكوغرافية تأكيداً للخبر الذي قد تعجز بعض الأقول عن تصديقه ..

سیدی محرم « جراح قلب »
 إن لی قصة بإسیدی واقیة
 الأسف ، أروجو أن لا تخسر منها
 إن فی واقعیتها مأساة یعجز أی کاتب

وأدور أحب به فی أرجاء الأرض ،
 وکت أصادق الفلاحات وأقوم بأی
 نى ، لئلا یلک ذلک الضیق وهذا اللل
 وفی أصدی الاممات .. وآه

یاسیدی من امیات الریف ، انک
 لا تمستطیع أن تصورها وأن
 بالقاهرة ، فی إحدى هذه الاممات
 حضر شخص اعزث لی الحقول

سیدی محرز « جراح قلب »
 إن لی قصة بإسیدی واقعة
 لأسف ، أرجو أن لا تخر منها
 إن فی واقعها مأساة عیزر أی کاتب
 من کتابة القصة أن یأتی بتتلها
 أنا بإسیدی قصة فی الحادثة
 العشرين نلت قسطا من التعلیم
 فلو أن عنه ایه التعلیم الثانی لفتیات
 الطبقة العالیة التي أسمى الهی
 ومنذ ثلاثة شهور أحببت بما
 نلت أنه حب

وكان البطل في من قتيان
طبقة الرافية يجيد الرقص والتحدث
لغة العرنسية واستمال أحدث أنواع
الرياضة

وسمع والذي بانتماعي مع هذا
فحق اكثر من اللازم فما كان منه
لا أن أرسلني إلى الريف .. وفي
ريف بدأت مأساتي .. لا ياسيدي
ل بدأت حياتي ..

إنك تستطيع أن تصور حياة
ثمة مثل في الرف .. كنت أحاول
في أغلب المرات ، فأذكر جوداً

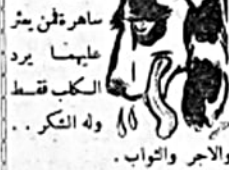
صدر في مكة - صباح الثلاثاء
 الثاني من شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٠
 وافق عليه المجلس
 إيفاء
 محمد روز اليوسف
 سنبه

أخيه الموت والدمع
من شانه ودمع
منه
صورة الخطاب الذي وصلنا من القاعة المبهلة قبل مقتل الخط بساعات
وعليه طابع برود مفلووط ...

وظائف خالصة

اعلانات مبوبة

كلها وزوجها



أسى في حفلة
ساهرة فتن يثر
عليها يرد
الكل قسط
وله الفكر ..
والاجر والثواب ..
حكيم معروف فقد نقته بنفسه
من بعدها تصل به في جريدة الكتلة
وله مكافأة ..
ابراهيم عبد الجواد قد حفظه
وبها عشرون قرشا واوراق مبهمة
جدا لقاية من يجد الحفظه يرسل
له العشرين قرشا ويحفظ بالأوراق
الهامة لنفسه !!

يرغب التبادل مع ناظر محطة طنطا
الخابرة كنيايا !!
جامعي مستعد لتأجير غشه مدة
السيوف بقيمة القسط التثقي عليه من
الصروفات المستحقة ..
أحمد الأتني عطية .. عدلى
حزبك ولنسى ما مضى إن الكتلة
حزينة من أجلك وزعيمك في انتظارك
« مكرم »

اختام وأشيء مفقودة
جانبك كلارك فقدت الهامة لنفسه !!

(ملحوظة) ستشعر أسماء الزوار
في الصحف الوفدية مسبوقة بلقب
أستاذ !!
• هارب من لبنان طره منذ
أسبوع ، يطلب عملا جديدا في الليل !
• احمد عبود صاحب صالون
الوطنية يعلن انه غير احمد عبود صاحب
لللايين الذي يثي به السورد
كيلرن ، فتم التنبؤ !!
• طيب بشرى مستعد لاستبدال
زياته بزبان طيب يعطى مع دفع
خلو رجل مناسب !!
• بك معروف بمحطة اذاعة مصر

• مجلة وفدية في حاجة الى وكلاء
بالأقاليم لقراءتها ... وترسل لهم
المجلة مجانا !!
ملحوظة : لا يشترط في الوكيل
أن يكون مسلما بالقراءة والكتابة
• حزب الوفد
في حاجة الى
زوار لمقابلة
الرئيس الجليل
بالمسرب أو
العمولة ولا
تشرط أى
مؤهلات خاصة أو عامة .. !



الوحيد الذي وجدته هنا ولم آخذ
ورقا من مكتب العزبة حتى لا افصح
نفسى وأفصح والدى
(روز اليوسف) قل محمد
محمد منصور الشير بالخط ، ولا نظن
أن صاحبه هذا الخطاب في حاجة لأن
تساعدنا ، بعد أن ساعدنا الله ..
فأراحنا من حبها العجيب ..

ولكى ياسيدى لا اريد أن
أموت لأنى أخشى الموت ولكن
لأنى لا اريد أن أبتعد عنه ..
ياسيدى ساعدنى فرجا كان في
كلماتك شفاى وخلصى
«مدنسة»
اعذرني إذا لم استطع ان اكتب
اليك في ووري أفضل فهذا هو النوع

منعته من الحضور إلى ، لأذهب
أنا اليه ، كنت أخرج ، وعندما أدخل
في بحر الثروة الحقم يتقابل أحد
رجاله ويوصلنى حتى أجد نفسى بين
ذراعيه ..
في بعض الليالي تستيقظ في نفسى
القناة القاهرية الشككة ، ويشدنى
الحين إلى الارزوناومارلى والأويرج
وأور وتشتد في الثورة حتى أحاول
أن أخلص نفسى من هذا الجحيم
ونوتسبت في مذبحه ولكن سرعان
ما تستيقظ في نفسى المرأة فأخرج لأنى
نفسى بين ذراعيه وكى في ذلك من
مغامرات لذيذة .. !!

فتشا ، وأخيرا شعرت أنه ذو سلطان
على لا يقاوم .. واعتزفت بينى وبين
نفسى بأنى أحبه
قد تقول إنى أحببت الجرعة ،
وشعقت السلال ولكن لا يسيدى
إنى ما أحببت فيه إلا جمال الرجولة
إن المرأة تحب الجرأة والشجاعة
ولأننى هناك رجلا توافرت في هذه
الترويض أكثر منه .. من حبيبى
محمد .. لىك ياسيدى كنت امرأة
حتى أستطيع أن أشرح لك سحر
هذا الرجل ، أوليتى كنت رجلا
حتى أستطيع أن أفك طلاسم سحره
ولعد مرة ثانية لحدثنا
إنى أحببتك كما قلت لك ، ولكنى
لم أحاول أن أنزل من علياى لأفهمه
أنى أحبه

الجمعية التعاونية للبترول

ت ٥٠٤١٣ شارع مظلوم رقم ١ ت ٥٦٦٤٨
غاز ، ديزل ، بترين ، سولار (زيوت معدنية)
محطات خدمة لسياراتكم
القاهرة: شارع جامع جرcks - شارع الملك - شارع شبرا -
ميدان الجزيرة
اسكندرية : طريق - فؤاد الأول ميدان محطة مصر

ولكن الذى حدث ياسيدى أن
هذا المجرم الحبيب أهتمنى بأدب قاتل
أنه يعيدنى ، ويشقى وأنه يضع رقبته
بين يدي بحضوره كل ليلة ليرانى
وأن في هذا محاطرة كبرى بالنسبة
اليه وذلك لأنه وبالفرة ، يحبنى ..
فأطلق أكثر من هذا ياسيدى وتهاوت
سيدى .. إن مشكلتى هى نفس
الشككة القديمة بين العقل والقلب ،
ولكى لا أفردى لمن ستكون القلبة ؟
أرجوك ياسيدى ، حاول أن
تساعدنى ، وإعنى لى من علاج فان
عقلك ، وانت بيد عن سيطرة هذا
الوحش العيسود ، يستطيع أن يدلى
الى أين أذهب ؟ أظن أنه لا خلاص
لى من هذه الحياة الدنسة المتعة الا
إذا تخلفت من حياتى نفسها ..



سرا على نعل فو قعانة دابة
يدية .
أضحو بالراحة قلبه ، خال
هذه حتى لانت هوى السيم
قنب الوليد .
أنشروا الصنف حول الأرملة
عربية حتى لا تسكب في قلب
مصر من فيض قلعا القوم
ينوا الجماعه الصورة الجملة
رولة بعد الدبتم لها الصورة
سائرة .
لقد فكرت اوس بما ولوج ان
ال تغديركم
كود محمد الحسن الحجاب
الامين بمصلحة الانار

قلت : آخر ساعة « هذا الخطاب :
« أخيراً وبعد صراع طويل
عنيف سقط « الخط » مغلوب
سبعة رجل خالداً أمام الحكومة
ودرع الأهلين .
سقط الخط بعد أن حشدت
إليه الحكومة جسدتها وبعد أن
بدأت في سبيل أصحابه الكثير
من مائها .
كثيرون هم الذين نظموا وكتبتون
تواصمهم في سبيله .
انتهى الحفظ ولكنه خلف
« بقرة » قد تلتهم الرطب بعد
أما :
« بقرة » قد تلتهم الرطب بعد
أما :
« بقرة » قد تلتهم الرطب بعد
أما :

ورث : أخضر سامة : بن

خلف نساء « هانس » ولد
بعد الحشد إلى قلبه فينشر
سحرة طوبى .
في حين أن أغلب إلى الحكومة
تتوجه إلى « هانس » بحرية
طوبى لمن الضم يزع الحشد
في قلبه .
تحتل الحرسه وتنتقل به
رما بعد فوجته فينبقى له من
التي تسمى التتالي .

عقاب يعزى فكرة تسليمه
ن موضع بحث فرفضه على
سناد توفيق الحكيم ..
وكتب الأستاذ توفيق الحكيم
...
ليس من العدالة الاجتماعية
تجمل حركة وزارة الأوقاف
بمساعدة لمعاونة من اخني طعيم
من من نوى السيرة احسن
هم لم يصدروا على المجتمع ولم
فروا القانون لتعين اسيرة محرم
سدى على القانون وكان عدوا
مم

[illegible]

انطى مصرعه .. وتارعه بكسبه
لا تلامه فام نفس سبه فله
اي حاتم ونفس القروا 1

ثم يأتي بعده ذلك أن تقول ان
الرائي الذي يستسي اليه غالبية
الاعراف سوف يشاهد آخر ساعة
وتدغم من اجله حتى يستعمل ..
وتحب .. آخر ساعة .. في نفس
الوعسان يعرض الحقائق الخردية في
فرد بالكلية ..

انه اذا اتروا هاتين من الخائفتين
فمنه فان ذلك سيذكر حنوها
ويؤجج النار التي منبها في
قلوب آحادها!

- ٢ -
ان اخوة الخط - امام هاشم
- مانوا جميعا قتل في نفس
بعض الاجرام الذي قتل فيه

- 8 -
ان خاتني و فمة : لا تمكنا
... و هي الان المسئول
الاول من حمة عنتر طفلا و حسن
راميل .. سواها من ا



ما هو مصر : خالتي لطفه
مه .. وما هو مصر الإسرائيلي
المعنى ... هذا اذا انتهيها من
تدبير مصر الاشغال الحسنة



٥ - ي -
 في خاتمة قصة تقول -
 الصيغة سليمة - وصحة قول -
 من تأخذ من الخط طول حياته
 من حبه واحد اشترت به طرفة
 بفتح طاء -
 وتقول خاتمة قصة -
 الصيغة سليمة - وصحة قول -
 يريد ان يفسر الخط لولا انه كان
 مختلفا ان يتم الخط في الحاضر
 بقية آخوه - فليس في الخط
 حال التوليى مزايا للخط
 - وهو - وكان هذا هو
 على حال -
 وهو خاتمة قصة -
 لم يفسر الخط لولا انه كان



طاعية الصبيد .. ذوالشعر الأصفر والفيون الزرقاء!

«لقد قبل الخط»
 هذا هو جن الإسماء التليفونية
 التي تلتها آخر سانه ..
 وبعد ساعات فلان كان سانسارة
 من طراز - جبب - تسق طرغها
 إلى صافوط ومن صافوط تسق
 عرض التواقي إلى حسن الجبس
 على خط الصخراء ماره بالهجرين
 والشوج والتكون التي كان الخط
 يتخطها مسرعا لانه الإضره ..
 وكان في مسيرته «الخط»
 الإسماء معده حستنت حستنت
 المرد ياخر سانه والإسماء كمد
 يوسف كير مصوري «ياخر الجبار
 اليوم» ..

الرصاصة الأخيرة:
 ان الرصاصة الأخيرة في قصة
 «الخط» لم تطلق بعد ..
 انها رصاصة بداية مصيرة
 لطفل صغير عمره الآن من
 حستنت .. ولا يمكن أن تحسن حركة
 منهية من ساقط هذه الرصاصة
 مستقر في قلب الطفل التوري
 الذي يحس في الناس بشدة
 وهو لا يعرف مصيره ولا يعرف
 أي خط سيترك في قلبه مسية
 الآن لكي يكبر ويأخذ بنات أبيه ..
 والطفل هو حاتم .. والآن هو
 «الخط» ..
 ان هذا الطفل الصغير الضليل
 هو الرصاصة الأخيرة التي في قصة
 «الخط» وليس هناك شيء في أن
 لغة وحده مستعجل ناره لانه
 منه الآن رصاصة حستنت
 الآن الخط والكراهية والعدوية
 هذه حقيقة يصنعها كل الناس
 ويعلمها أيضا لو كانت الجبس قنوا
 «الخط» .. ومن هذا كانت
 الرصاصة الأخيرة ..

حالي قصة:
 ومع أن «حالي قصة» لم
 «الخط» .. كما يتبعها أحزان
 فركلة .. تعبر عن أي شيء لا ..



رشيده وحاتم .. تزوجها في
 ولا شيء .. ولكن نكاح الصبح وراء
 الدجوج والشبح فوة الأصحاب
 والهرم الأكيه على أن السائر أن
 يس ..
 وهي .. رشيده .. زوجة
 والخط .. الصاب الحليفة التي تزوجها
 وهي في السابعة من عمرها ولم
 ترمع لانسو زوجها أكثر من عشر
 مرات .. صاب الصاب هو الأخرى نكاح
 تسق في صابها فلان الصبر كمد
 الحنة عند ما يكبر أبناها وصبر
 ركة ..
 انها لم تعرف زوجها كسابح
 ومع ذلك قالت هو الشار ..
 حستنت في شريعة ركة ..
 وأخذ على «الخط» أن جعل
 الطور عدا ركة .. ثم فر وعاد
 ليصبح عدا ركة ولم ..



حالة اليوم: ذوالشعر الأصفر والفيون الزرقاء!

ففرقة الموت وراء " الخط " طاغية الصعيد



• لقد كنت أكبر أجداد الخط
على العالم 11

باسلوب الصحف

الوفدية



منها اذا اعلنت على حرية الصحافة
وحرية الانتخابات وسائر

الحرية ...
صحيح انها لم تصدر صحيفة
وفدية واحدة ولكنها استطاعت
بوسائلها الخفية ان تسحق القراء
من شراد الصحف الوفدية التبرعة
المصلحة المتعصبة الثانية على

مصلحتها ...
عظمت نفاق نشر عهود الرئيس
الخطي كن يوم وترفع ان تشتم
مكاته عهود اعلانات أين تعجب
هذا الساء !

ومستلث الايام ان القاعة كنز
لا يفي ولواحتضت جميع الصحف
الوفدية من الصدور

الحاج فراح يطوف على اعيان
أسوط بظالمهم بأن يتبرعوا
لنفس البلاد تشييداً لقرار الوفد
المكتمل ...
هذا ما حدثنا عليه من مصادرها
التي لا تعرف في الحق لومة لائم،
وهي تدل دلالة لا شك فيها على
ان الوطني الكبير الخط بك
كان صحيفة مزورة بعض رسائل
المهد الحاضر

أمة تنتصب

يظن ذلك الكاتب الكبير

ان أسسط الطيريات التي
يرمها طلبة الحقوق فعلا من أمة
المتنهد، والقانونيين نقول ان الحريات
مكتولة بحكم الدستور ... وانا
كانت الحكومة تدمر على حرية
العدل والنسب والنسب بفساد
الصورة الوحشية فانا لا نصعب
الكرام

المرء المهد الحاضر ان يحول
الأساطير عن مزورة الطيريات بالناس
مع الانجليز في نيويورك فصدر
الامر لبوليس أسبوط بأن يحرب
الخط في ظهره ففدوا قتلا ...
وليس اليوم محال محاسبة
الحكومة على ارتكاب هذه الجريمة
الشكوة في وضع النهار ، والدنيا
هنيام بوالساسة لسان ليس
الزوم محال محاسبة الحكومة
على طريقة معاملتها المتسببة
للمسومة في وقت تدعى فيه أمام
العالم انها حكومة ديمقراطية ...
ولكننا ننسى على الزبيلات ان
السرور وتتهم صاحب العزة بالخط
بك ، بأنه يجرم اليهم برهوناً للنقاد
بصغر كلمته بعدى هذه الشهادة
بني تسيدها البوليس ليضيق
بشر باين يار من أبناء هذه الأمة
يلقى البوليس على الخط بك
أمة يعرف المهد الحاضر انها تهمة
الطاعة من أساسها ... ويظنون
له كان جميع الاسوال من اعيان
أسبوط ... والواقع ان سماعة
الخط بك ، وهو رجل من الكرم
سأل مصر ومن قبل اعيانها رأى
ان يتساهل في الدعاية نشر في



كادوجان ..

الحامي الذي يطلب بتعويض لقتال !

قصيدة امير شراد الوفد

الاستاذ حسن يس

لمرءا يخلصني النحاس
ساعة مصر وعطى الرئيس
فهبنا لتسليح النحاس
وبشاراً قان ابن القناس
عسكري ولتدعنا ففدنا
ليس من دى التذلات عناص
ان راميته كاتب حواس
عزود القصور الرعي ، وحداص
الباكي الحزين
حسن يس

قتلوا الخط ارماء الرصاص
وعزاد رجال وفد ادا ولقت
اوترعى حكومة قشور الارض
او يرمي المشطر العطر حبارا
ليس في السكون منه سرق
محس الان كيف لا تسبح
حس ما انفسوه فهو يري
لك ياصاحب القام الرابع الله
الكرام

قلب وحيد

عندما يتفكر الصباح ...
تسبح الدنيا في الظلام ... ونهدا الرمال التناثر ...
ولسكين الى صدر الارض الخنوق ...
عندما تتعثر السحب في السماء ...
كالقند الذي اغرق سمعه ، يغمي قوس قزح من الافق ،
ونهب العاصفة ...
عندما ينحدر الناي ...
قوت الاغان على النفاث ... ونس القب النفاث ...
عندما نصمت النفاث ...
ستس الجب او الحان ... ونقل وحيد بيلها الصموج





Captain William Odom, pilot of the plane that crashed in the Red Sea, is seen here in a photo taken at the crash site.

2 NEW WORLD FLYERS TAKE OFF AS ODOM STARTS HIS LAST LAP

50-minute delay in Tokyo, but still expects to be on time

While Captain William Odom was last night making for Tokyo on another stage of his globe-girdling flight, another American round-the-world flyer began when Clifford V. Evans and George W. Frenn took off on 8.10 (Cairo Time) from Teterboro, New Jersey.

Desperate, Hitler asked: 'where, when, which?'

London, August 9. HITLER'S last broadcast message from his underground headquarters in Berlin on August 9th as he asked out its remaining strength in a plea to the German people to follow the Fuehrer's commands on the Eastern Front in 1945.

The message, addressed to Gen. Alfred Jodl, who was captured in Berlin and handed over to the Russians, was broadcast on the radio.

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese? Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

"Where are the Americans? Where are the British? Where are the French? Where are the Russians? Where are the Chinese? Where are the Japanese?"

Hiroshima today

Of the city of Hiroshima today, the only thing that remains of the city that was destroyed by the atomic bomb is the ruins of the city.



Ruins of Hiroshima after the atomic bombing.

2 Jews arrested after attack on Cairo express

Two Jews, one of them wounded, were arrested after an attack on a Cairo express.

UK TO HAVE HUNGARIAN HAM, EGGS

First of a series of reports from London, August 9, that the British Government has agreed to supply Hungary with ham and eggs.

GIRL WILL NOT HEAD EXILED GOVT.

DAVID LLOYD GEORG, head of the British Government, has refused to head an exiled government.

Vatican has 'Marshall' relief plan

The Vatican has announced a relief plan for the victims of the war.

100 German rounded up in Shanghai

One hundred German soldiers were rounded up in Shanghai.

Agency charges

The Agency has charged the British Government with a breach of the agreement.

Three powers

The three powers have agreed to a new plan.

Chair which suits anyone

A chair which suits anyone is available.

'FLAMING TORCH' LIGHTS LAMBORRE

The 'Flaming Torch' lights the Lamborre.

Representatives of

Representatives of the British Government have met.

Three powers

The three powers have agreed to a new plan.

Chair which suits anyone

A chair which suits anyone is available.

'FLAMING TORCH' LIGHTS LAMBORRE

The 'Flaming Torch' lights the Lamborre.

Representatives of

Representatives of the British Government have met.

Three powers

The three powers have agreed to a new plan.

Chair which suits anyone

A chair which suits anyone is available.

'FLAMING TORCH' LIGHTS LAMBORRE

The 'Flaming Torch' lights the Lamborre.

Representatives of

Representatives of the British Government have met.

Three powers

The three powers have agreed to a new plan.

Chair which suits anyone

A chair which suits anyone is available.

'FLAMING TORCH' LIGHTS LAMBORRE

The 'Flaming Torch' lights the Lamborre.

Representatives of

Representatives of the British Government have met.

Three powers

The three powers have agreed to a new plan.

Chair which suits anyone

A chair which suits anyone is available.

'FLAMING TORCH' LIGHTS LAMBORRE

The 'Flaming Torch' lights the Lamborre.

Representatives of

Representatives of the British Government have met.

Three powers

The three powers have agreed to a new plan.

Chair which suits anyone

A chair which suits anyone is available.

'FLAMING TORCH' LIGHTS LAMBORRE

The 'Flaming Torch' lights the Lamborre.

Representatives of

Representatives of the British Government have met.

Three powers

The three powers have agreed to a new plan.

Chair which suits anyone

A chair which suits anyone is available.

'FLAMING TORCH' LIGHTS LAMBORRE

The 'Flaming Torch' lights the Lamborre.

Representatives of

Representatives of the British Government have met.

Three powers

The three powers have agreed to a new plan.

SOCIAL AND PERSONAL

Devastating evidence likely

There is little doubt in the minds of those who have seen the "New York Times" editorial that the Egyptian Government is in a position to present a devastating case against the British in the Security Council. The editorial, which appeared on August 10, 1947, is a masterpiece of logic and fact, and it is believed that the Egyptian Government will be able to present a case which will be devastating to the British position.

HOSPITAL AT AMRIA WILL HEAL LEPROS

The Ministry of Health has announced that a new hospital for leprosy patients has been opened at Amria. The hospital is a modern building with all the latest facilities, and it is believed that it will be able to treat all the patients who are suffering from this disease. The Ministry of Health has also announced that it is planning to open similar hospitals in other parts of the country.

STOCKS AND SHARES

Stocks and Shares	Today's Close
1000 Shares	1000.00
2000 Shares	2000.00
3000 Shares	3000.00
4000 Shares	4000.00
5000 Shares	5000.00
6000 Shares	6000.00
7000 Shares	7000.00
8000 Shares	8000.00
9000 Shares	9000.00
10000 Shares	10000.00

Small Propped Advertisements

These are small advertisements which are placed in the margins of the newspaper. They are usually for the sale of goods or services, and they are often very effective in reaching a large number of people.

PREMIER WILL REPLY TO BRITISH DEFENCE TODAY

9,000-word "aggressive speech" reported

EGYPT will today, reply to the British defence, when the United Nations Security Council meets for the first time since the outbreak of the Egyptian crisis. It is reported that the Egyptian Premier, Mr. Mahmoud Fawzi, will deliver a 9,000-word speech which will be an aggressive attack on the British position. The speech is expected to be one of the most important of the crisis, and it is believed that it will have a major impact on the course of the negotiations.

Plan to unite all political parties

The Egyptian Government has announced a plan to unite all the political parties in the country. The plan is to create a new political party which will include all the existing parties, and it is believed that this will be a major step towards the establishment of a new political system in Egypt. The Government has also announced that it is planning to hold elections for the new party.

Streets lie unswept in Alex.

ALEXANDRIA is suffering from a severe shortage of street sweepers, and the streets are lying unswept. The Municipality has announced that it is planning to recruit more sweepers, but it is believed that this will take some time. In the meantime, the streets are becoming increasingly dirty, and this is causing a major problem for the city.

Teachers ask colleagues reinstated

The Egyptian Teachers' Union has asked the Government to reinstate the teachers who have been dismissed. The teachers claim that they were dismissed without any valid reason, and they are asking for their jobs to be restored. The Government has not yet responded to the request, and it is believed that the teachers will continue to demand their reinstatement.

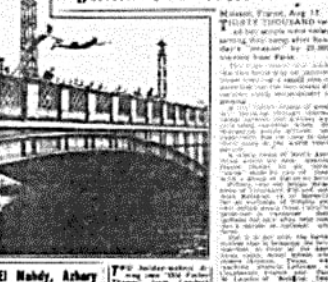
Jaffa Mayor in U.K.

The Mayor of Jaffa, Mr. Yehoshua Herta, has arrived in the United Kingdom. He is on a tour of the country, and he is expected to visit several cities. He is also expected to meet with the British Government, and it is believed that he will be able to secure some assistance for the people of Jaffa.

Harder than ask

It is often easier to ask for help than it is to receive it. This is especially true in the case of the people of Jaffa, who are asking for assistance from the British Government. The British Government has not yet responded to the request, and it is believed that the people of Jaffa will continue to demand assistance.

20,000 visitors 'invade' Jamboree tent city



P.M. denies rumours of new talks

The Prime Minister has denied rumours that he is planning to start new talks with the British Government. He has stated that the Egyptian Government is not in a position to start new talks at the moment, and he has also stated that he is not planning to start any new talks. He has also stated that he is planning to continue the current negotiations.

El Mahdy, Achary explain viewpoints

Mr. El Mahdy and Mr. Achary have explained their viewpoints on the Egyptian crisis. Mr. El Mahdy has stated that the Egyptian Government is in a position to present a devastating case against the British in the Security Council. Mr. Achary has stated that the British Government is in a position to present a case which will be devastating to the Egyptian position.

SUDANESE PLEAS TO UN CLASH

The Sudanese have presented a case to the United Nations Security Council, and it is believed that this will be a major step towards the establishment of a new political system in the Sudan. The Sudanese have also presented a case to the British Government, and it is believed that this will be a major step towards the establishment of a new political system in the Sudan.

Plot to kill manager and burn buses

A plot to kill the manager of the Egyptian Transport Company and to burn the buses has been uncovered. The plot was discovered by the police, and it is believed that the people who were involved in the plot are now being investigated. The police have also announced that they are planning to take action against the people who were involved in the plot.

WILDER SCENES AT FUNERAL OF GANGSTER

The funeral of a notorious gangster was held in a city, and it was a scene of wild disorder. The police were unable to control the crowd, and there were several deaths and injuries. The police have announced that they are planning to take action against the people who were involved in the funeral.

Tribal war goes on, Kena Mudir recalled

A tribal war is still going on in the Kena area, and the Mudir has been recalled. The war is between two tribes, and it has caused a major problem for the area. The Mudir has been recalled to deal with the situation, and it is believed that he will be able to bring the war to an end.

NEWS IN BRIEF

Army camp on fire at Heliopolis

A fire broke out at an army camp in Heliopolis, and it caused a major problem for the camp. The fire was caused by a faulty electrical wire, and it is believed that the camp is now being investigated.

RASHI DRIVER CAUSES BUS DEATHS OF 12

A rash driver caused the deaths of 12 people in a bus accident. The driver was driving too fast, and he lost control of the bus. The bus crashed into a wall, and it caused a major problem for the people who were on board.

MTRE, BIALY RENEGAS AS LABOUR HEAD

Mr. Mtre and Mr. Bialy have been elected as the head of the Labour Union. They are both experienced workers, and they are believed to be able to lead the union in a successful manner.

Plot to kill manager and burn buses

A plot to kill the manager of the Egyptian Transport Company and to burn the buses has been uncovered. The plot was discovered by the police, and it is believed that the people who were involved in the plot are now being investigated.

WILDER SCENES AT FUNERAL OF GANGSTER

The funeral of a notorious gangster was held in a city, and it was a scene of wild disorder. The police were unable to control the crowd, and there were several deaths and injuries. The police have announced that they are planning to take action against the people who were involved in the funeral.

ANBELCO INC.
125 Broad Street, NEW YORK 4, U.S.A.
GEO. ANBELCO, NEW YORK

We invite all those who intend to go abroad for any reason to visit our branch office in New York City. We will be glad to show you our complete line of American-made goods, such as Rayon and Cotton Fabrics, Hosiery, Lingerie, Leather Goods, Pottery, Paints, and many other items. We will also be glad to show you our complete line of American-made goods, such as Rayon and Cotton Fabrics, Hosiery, Lingerie, Leather Goods, Pottery, Paints, and many other items.

الملاحظات

[1 ←]

▮ مارتنيك: جزيرة تقع في شرق البحر الكاريبي، إلى الشمال من ترينيداد وتوباغو، وهي من مجموعة جزر الأنتيل الصغرى. تُعتَبَر أحد الأقاليم السَّتَّة والعشرين المُكوِّنة للأراضي الفرنسية.

[← 2]

□ إناء كبير، يطلق عليه في العامية المصرية: «الآزان».

[3 ←]

يقوم «العمدة» في الريف المصري بنفس الدور الذي يقوم به مختار القرية في بقية أنحاء الريف العربي، وكان يُختار من العائلات الثرية ذات النفوذ في الريف، وهو حلقة الوصل بين الفلاحين وأجهزة الحكم المختلفة، ويعمل بدون أجر.